المعهد الملكي للدراسات الدينية

محمد الجزائري

المندائيون الصابئة



المندائيون الصابئة

■ المندائيون الصابئة

■ تأليف: محمد الجزائري

■ الطبعة الأولى: ٢٠٠٠م

■ الناشر:

المعهد الملكي للدراسات الدينية

ص.ب ٨٣٠٥٦٢ عمّان ١١١٨٣ الأردن

هاتف: ٤٦١٨٠٥١/٢ - ٦ - ٩٦٢

فاكس: ٤٦١٨٠٥٣ - ٦ - ٩٦٢

riifs@go.com.jo

http://www.riifs.org

■ التوزيع:

بيسان للنشر والتوزيع والاعلام

ص.ب ٥٢٦١ - ١٣ بيروت - لبنان

هاتف: ٣٥١٢٩١ - ١ - ٩٦١

فاكس: ٧٤٧٠٨٩ - ١ - ٩٦١

■ الإخراج الداخلي وتصميم الغلاف: محمد نصرالله

محمد الجزائري

المندائيون الصابئة



المعهد الملكي للدراسات الدينية

تأسّس في عمّان، الأردن، عام ١٩٩٤
تحت رعاية صاحب السمو الملكي الأمير الحسن بن طلال
ليكون مركزاً للبحث في الأديان والمؤسسات الدينية
وكافة المجالات التي للشأن الديني تأثير فيها.

الإهداء

إلى: العلاّمة عبد الجبار عبدالله
يوماً رأى، بروحه، المطر يغسل الضغائن،
قبل أن تتقلب القلوب والأبصار،
وتنزلق الأرض إلى العماء!

يتقدّم المؤلف بالشكر إلى السادة: عوّاد علي، علاء الرشق، وحسن البطوش، من أسرة المعهد الملكي للدراسات الدينية لما بذلوه من جهد في مراجعة الكتاب وإعداده للنشر.
كما يشكر الاستاذين الفاضلين: نعيم بدوي وغضبان رومي لأن ما قدماه كان عوناً حقيقياً في إنجاز هذا الكتاب، وتوفير الصور الملحقة والمعلومات.

المحتويات

١

الأقواس

■﴿إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين
مَن آمن بالله واليوم الآخر
وعمل صالحاً فلهم أَجرهم عند ربهم
ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾

[البقرة: ٦٢]

■«باسمائك العظمى أبتهل اليك يا ربي
أن تشمل بالرحمة آبائي القدامى
من المندائيين والمؤمنين والمتصوفين
والعلماء والروحانيين ورؤساء الأمة
فتغفر لهم ذنوبهم وخطاياهم
وأنت الشفيع، يا أرحم الراحمين»

(الفاتحة: للصابئة المندائيين)

■«مسبّح الرب ومزكاة ذاته
ربّ العوالم كلها
مسبّح مبارك، ومسبّح معظم
ذو الوقار القيوم اللّه الربّ العلي

وسبحان ملك الأنوار العلي
اللّه الحق القوي العظيم
الذي لا يحد
النور الزكي، النوْر العظيم الخالد»

(من: افتتاحية الكتاب الكبير، أو كتاب آدم– سيدرا آدم؟
أو كنزا ربا– مكتبة المتحف العراقي/ بغداد/رقم ١٤٤٠)

■ «**باسم الحي**
وباسم معرفة الحي
وباسم الوجود الأزلي الذي سبق الماء
وكان قبل الضوء والنور
ذلك الذي نطق فكانت كلمات
والكلمات كانت كروماً
وكانت الحياة الأولى»

(أول ترنيمة من التعميد)

■ «**صغير أنا بين الملائكة– الأثيريين**
طفل أنا بين النورانيين
ومع ذلك..
فقد أصبحت عظيماً
ونفسي كبرت
لأني شربت الماء من ثغر الفرات»

(ترتيلة يرددها العريس في أثناء مراسيم الزواج بعد أن يشرب الماء المقدّس)

■ «**إن الصابئي يعتقد أن عمر العالم يزيد عن ٧٥٠ ألف سنة، فبعد شيت بن آدم (ع) قضي على هذا العالم بالحرب، فلم يبق منه إلاّ رجل وامرأته هما: (رام) و (رود)، وبعد عشرات الألوف من السنين فُني العالم بالنار (وهو الفناء الثاني) ولم يبق منه إلاّ (شوربي) وزوجته (شروهبيل)، وبعد عشرات أخرى من**

ألوف السنين جاء الطوفان، ولم ينج منه إلاّ (نوح) وزوجته وابنه سام وزوجته (انهريتا)، ولا ينتهي القول إلى هذا الحد، فالدين الصابئي يقول إنه إذا ساد الشر وزاد الكفر، وتفشى الفساد على هذه الأرض، فإن الدنيا ستنتهي أيضاً بريح عاصفة محرقة فيحترق كل ما عليها، وقد يبقى رجل وامرأة مخلصان لربّهما يعيدان إلى الأرض الحياة بذريّة صالحة مجلّلة بالبهاء والخير والصلاح والتقوى..»

(الصابئة: غضبان رومي، ص ١٨٨)

■﴿**ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين**﴾

[آل عمران: ٦٧]

■﴿**ولقد جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى قالوا سلاماً قال سلام فما لبث أن جاء بعجلٍ حنيذ فلما رأى أيديهم لا تصل إليه نكرهم وأوجس منهم خيفة قالوا لا تخف إنا أُرسلنا إلى قوم لوطٍ وامرأته قائمة فضحكت فبشرناها بإسحق ومن وراء إسحق يعقوب قالت يا ويلتي ءألد وأنا عجوز وهذا بعلي شيخاً إن هذا لشيء عجيب قالوا أتعجبين من أمر اللّه رحمة اللّه وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد فلما ذهب عن إبراهيم الروع وجاءته البشرى يجادلنا في قوم لوط إن إبراهيم لحليم أواه منيب يا إبراهيم أعرض عن هذا إنه قد جاء أمر ربك وإنهم آتيهم عذاب غير مردود**﴾

[هود: ٦٩-٧٦]

■﴿**وإذ قال إبراهيم ربِ اجعل هذا البلد آمناً واجنبني وبنيَّ أن نعبد الأصنام**﴾

[إبراهيم: ٣٥]

■﴿**وقال الذين كفروا لرسلهم لنخرجنكم من أرضنا أو لتعودن في ملتنا فأوحى إليهم ربهم لنهلكن الظالمين**﴾

[إبراهيم: ١٣]

▪ ﴿ولنسكننكم الأرض من بعدهم ذلك لمن خاف مقامي وخاف وعيدِ﴾ [إبراهيم:١٤]

▪ ﴿ربنا إني أسكنت من ذريتي بوادٍ غير ذي زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلوة فاجعل أفئدةً من الناس تهوى إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون﴾

[إبراهيم: ٣٧]

▪ ﴿الحمد للّه الذي وهب لي على الكبر إسمعيل وإسحق إنَّ ربي لسميع الدعاء﴾ [إبراهيم: ٣٩]

▪ ﴿رب اجعلني مقيم الصلواة ومن ذريتي ربنا وتقبل دعاء﴾ [إبراهيم: ٤٠]

▪ ﴿إنّ أولى الناس بإبراهيم للذين إتبعوه وهذا النبي والذين آمنوا واللّه ولي المؤمنين﴾ [آل عمران ٦٨]

▪ ﴿قل آمنا باللّه وما أُنزل علينا وما أنزل على إبراهيم وإسمعيل وإسحق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى والنبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون﴾

[آل عمران: ٨٤]

▪ ﴿قل صدق اللّه فاتبعوا ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين﴾ [آل عمران: ٩٥]

▪ ﴿إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركاً وهدى للعالمين فيه آيات بينات مقام إبراهيم ومن دخله كان آمناً...﴾

[آل عمران: ٩٦-٩٧]

■ ﴿واذكُر في الكتاب إبراهيم إنه كان صدِّيقاً نبياً إذ قال لأبيه يا أبت لِمَ تعبدُ مالا يَسمَعَ ولا يُبصِر ولا يغني عنكَ شيئاً يا أبت إني قد جاءني من العلم ما لم يأتك فاتبعني اهدك صراطاً سويّاً، يا أبت لا تعبد الشيطان إنْ الشيطان كان للرحمن عصيًّا يا أبتِ إني أخاف أنْ يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان ولياً قال أراغب أنت عن آلهتي يا إبراهيم لئن لم تنته لأرجمنك واهجرني مليا قال سلامٌ عليك سأستغفر لك ربي إنه كان بي حفياً وأعتزلكم وما تدعون من دون اللّه وأدعوا ربي عسى ألا أكون بدعاءِ ربي شقيا، فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون اللّه وهبنا له إسحق ويعقوب وكُلاً جعلنا نبياً ووهبنا لهم من رحمتنا وجعلنا لهم لسان صدق عليا﴾

[مريم: ٤١–٥٠]

■ ﴿هنالك دعا زكريا ربه قال رب هب لي من لدنك ذرية طيبة إنك سميع الدعاء، فنادته الملائكة وهو قائم يصلي في المحراب، إن اللّه يبشركَ بيحيى مُصدقاً بكلمةٍ من اللّه وسيداً وحصوراً ونبياً من الصالحين﴾

[آل عمران: ٣٨–٣٩]

■ ﴿يا يحيى خذ الكتاب بقوة وآتيناه الحكم صبيا وحناناً من لدنا وزكواة وكان تقياً﴾

[مريم: ١٢–١٣]

■ ﴿إذ قال اللّه يا عيسى إني متوفيك ورافعك إليّ ومطهرك من الذين كفروا وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة﴾

[آل عمران: ٥٥]

■ ﴿ولقد أرسلنا موسى بآياتنا أن أخرج قومك من الظلمات إلى النور وذكّرهم بأَيام اللّه...﴾

[إبراهيم: ٥]

▪ ﴿واذكر في الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها مكاناً شرقياً فاتخذت من دونهم حجاباً فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشراً سويّاً قالت إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقياً قال إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاماً زكياً قالت أنّى يكون لي غلام ولم يمسسني بشر ولم أكُ بغيا قال كذلك قال ربك هو علي هين ولنجعله آية للناس ورحمةً منا وكان أمراً مقضياً﴾.

[مريم: ١٦–٢١]

٢

الأفـق

«زيدوا علـى إيمانكم، الفضيلة
وعلـى الفضيلة، التـعقل
وعلـى التـعقل، التقوى
وعلـى التقوى، المودة الأخوية
وعلـى المودة الأخوية، المحبة»

(الإنجيل: رسالة بطرس الثانية: ٥–٧)

■ يذكر الرحـالـة الفرنسي تـافارنيه أنه حين مرّ بمدينة البصرة سنة ١٦٥٣م قيل له إن أتبـاع يوحنـا المعمدان (الصابئين) في البصرة وأطرافها يشكّلون نحو (٢٥) ألف أسرة!

لم ترد هذه المعلومة في كتـاب (العراق في القرن السابع عشر) حسب، بل هي معلومة جد واقعية..

فقد تعرفت بـالفعل على «الصُبة» كما كنا ندعوهم، منذ بكر طفولتي، كانوا أترابي في محلة (الخندق) التي تقع بين نهري الخندق والربـاط وتطل– من جهة التميمية ونهير الليل– على شط العرب، فهي (المحلة) تشكل جزيرة بـالفعل، إذا اعتبرنـا حزامها الشمالي هو (الربـاط الكبير) و(نـهر المعقل) أو هـي شبه جزيرة، إذا مـا فصلنـاهـا عن «الطويسة» بشارع دينـار.. صعوداً إلى المعقل.. ذلك أن الصابئة سكنوا ضفـاف الشواطىء، ومـارسوا طقوسهم التطهيرية بهـا،

وكنا نشاهد بعضها، مباشرة، بخاصّة تعميد الصغار في طفولتهم، والكبار قبل الزواج إستعداداً لأداء يمين الخلاص، أو كما يعمّد الكبار، من شاء أن يكسب أجراً أو يتوب أو يستغفر..

وكان من أصدقائنا الصابئة من ترعرع معنا منذ الطفولة وأكمل دراسته معنا، في كل المراحل، ولم يكن ذلك غريباً ولا شاذاً.

كانت كنيسة (الكلدان) بقبتها الكبيرة البيضاء تقع على الضفة الأخرى من نهر الخندق، وكثيراً ما ذهبنا، ونحن أطفال مع أصدقائنا المسيحيين لمشاهدة طقوسهم، بخاصّة في الأعياد والأعراس، وكان معنا– ضمن الرفقة الطفولية تلك– فتيان أو صبية من الصُبة، وأحياناً من اليهود أيضاً– إذ ربطت عوائلنا علاقات حميمة بالصابئة أو المسيحيين أو اليهود أو (السود– الزنوج)، ففي البصرة رحابة ثرّة من التعددية والتسامح الديني والعرقي، وإخاء لا مثيل له. ولم يتردد (الصُبة) من دخول بيوتنا والأكل معنا على مائدة واحدة، فلم نكن في البصرة، وتحديداً في محلة الخندق (العريقة) لنتحسّس من أي دين، أو من أية ملّة أو طائفة، فكل مصوغات عوائلنا، منذ البدايات، حتى الزواج وما بعده تجري عند صاغة صابئة أو يهود، ثم تكرس الحال بعد هجرة اليهود خارج العراق، ليجري التعامل مع الصاغة الصابئة تحديداً، وهكذا فأُسرنا كانت (زبائن) دائمين لهذا الصائغ من بيت آل زهرون، أو ذلك من بيت آل السبتي، أو المراني، ... الخ..

وحين كبرنا واشتدّ عودنا جمعتنا علاقات فكرية، وسياسية، ونضالية مشتركة مع جل شبابهم ورجالهم ومفكريهم، فذلك أمر طبيعي لمن ترعرعوا معاً في حضن محلةٍ واحدة، أو مدينة واحدة، أو وطن واحد..

وكان لابد لنا، حين بلغنا سن الرشد، أن نتعلم شيئاً عن طقوس أترابنا وأصدقائنا، إنْ لم تكن من المشاهدة العيانية، فمن أحاديثهم لنا، أو من مطالعات وقراءات تسعف وعينا لتلمس عقيدة الصابئة ومعنى طقوسهم ودلالتها، بخاصة أنهم اعتادوا ألا يفصحوا– جهاراً– عن ذلك.. ولأن البصرة، المياه والشواطىء والبساتين والميناء، مدينة تستوعب التنوع، تجتهد، وتفكر بعقل مفتوح، وتلك سمة تشترك فيها المدن– الموانىء..، ولكونها تتلقى من أطراف جمة من العالم وتلتقي، بل (إن السهول الغرينية العظمى ما بين

النهرين) تقع بين الشرق الأقصى والشرق الأدنى، وهي على اتصال مستمر بكليهما، ومنذ أقدم العصور كانت الطرق تتفرع من هضبات إيران ومرتفعات آسيا وصحارى العرب وسهول الهند، وتمر بما يسمى (العراق) اليوم، في طريقها إلى سواحل البحر الأبيض المتوسط..

ومنذ البدء كان سكان هذه المنطقة يخضعون لتأثيرات جميع أطراف المعمورة، المتحضرة، فليس ثمة بقعة أكثر خصباً منها لنمو الأفكار «التوفيقية»!!

وقد قدّمت بابل ومملكة فارس وميديا ظروفاً طبيعية ملائمة لنمو عقائد دينية توفق بين التقاليد والشعائر القديمة، وبين الأفكار القادمة من الحضارة الصينية القديمة بوساطة فلاسفة الهند الفيديين، وتلك الأفكار التي حدّدت عقائد الناس وبعثت فيهم الروحانية وألهمتهم خلود الروح، وإن مصدرها الكائن الإلهي، كما ألهمتهم بوجود أرواح الأسلاف النافعة، بل أكثر من ذلك، ففي القرون الخمسة التي سبقت ظهور السيد المسيح ثمة تأثير مستمر لليهودية والمصرية والفينيقية والاغريقية على بابل، تماماً كما كان تأثير سومر على تلك المناطق منذ الألف الخامسة والرابعة قبل الميلاد، نتيجة الهجرات الآرامية، السامية.

وقبل السبي الأول، كانت جماعات التجار والصرافين اليهود قد ركزوا أنفسهم ما بين النهرين، بينما كان التجار والمرتزقة الآخرون يمرون من وإلى الشرق الأقصى وسواحل مصر وفينيقيا وبلاد الاغريق.

وبالرغم من كون التاجر والجندي وسيطين لتبادل الأفكار، فهما في أحسن الأحوال لا يشكلان أكثر من ناقلين سلبيين للأفكار الدينية، ففي الأساطير الصابئية، وأساطير الهند وفارس أيضاً، يجد المرء إشارات متكررة للدراويش الرحالة الجوابين المتدينين، كما جاء في أسطورة «هرمزشاه» الصابئية، وأسطورة «كاوتا ما بودي» الهندية، وكما جاء في أساطير القرون الوسطى كأسطورة «كورو ناناك»، وكانوا يرحلون طلباً للراحة العقلية والروحية، فالتأملات في الغرب تنبعث من مفكر يجلس فوق أريكته، والعاملون في حقل الفكر هناك لا يذهبون إلى أبعد من المختبر والمكتبة والمكتب، أما في الشرق فالباحثون عن الحقيقة جوّابون جوّالون، لهم اعتباران عقلي وجسمي،

فالفلاسفة الجوّالون تمتد ساحة عملهم من الصين إلى الهند فبلوجستان وفارس، ومن فارس والعراق إلى البحر الأبيض المتوسط، سالكين ممرات كردستان والممرات المائية (الأهوار) والشطآن، في العراق.

والشرقيون يحبون الجدل الميتافيزيقي ويبحثون عنه، وبمقدار ما تسمو منزلة المرء يكون انصرافه لهذه الممارسة وانصاته لآراء الضيوف، وتكون النتيجة خميرة من الشكوك لدى المثقفين، تنتشر بعد ذلك بين الجماهير بشكل «هرطقة» سرية، أولاً، ثم على شكل «دين جديد». هنا تكمن أهمية الصابئين، فهم بسبب تماسكهم المتطرف حين اختاروا هذا «الدين الجديد» في فترة التوفيقية البعيدة، قد احتفظوا، أيضاً، بالقديم بأمانة وإخلاص، حتى ليستطيع المرء أن يزيح الإبهام من هنا وهناك، وأن يشير إلى هذا بأنه «بابلي»، وإلى ذلك بأنه مزدكي، وإلى ما يمكن أن يعود إلى زمن حُرِّم فيه الحيوان، أو إلى ما يشير إلى مرحلة كان الإصلاحيون المتحمسون فيها يسعون لتطهير بعض العقائد القديمة الموروثة، كما حدث لماني البابلي، وللعيسويين إزاء التلمود.

في فترة كهذه جُمعت الكتابات الصابئية الدينية ونُسخت، وللمرء أن يحدس بأن الجامعين كانوا لاجئين وسوفسطائيين عادوا إلى الجماعات المطمئنة في جنوبي العراق تشينهم وثنية غير قابلة للإصلاح، وكانت الكتابات المصححة تفوح برائحة الإصلاح والتحذير.

إن لب، أو جوهر الدين الصابئي، خلال جميع التقلبات والتغيرات، هو عبادة قوانين الحياة والخصب القديمة، فالحياة العظمى لديهم تجسيد لقوة كونية خلاقة نافعة، غير أنه تجسيد سطحي يكون الحديث عنه دائماً بصيغة الجمع المبهمة، ويظل تجريداً غامضاً، فرمز الحياة العظمى هو «**الماء الحي**» أو «**الجاري**»، وهو أمر طبيعي تماماً في بلاد تلتصق فيها حياة البشر بضفاف النهرين الكبيرين دجلة والفرات.

ومن هنا، يأتي أحد الطقوس الرئيسة لديهم وهو «**الاغتسال في الماء الجاري**». والقوة الثانية الجوهرية في دينهم تتمثل في تجسيد «**النور**»، وفي مجموعة الملائكة النورانيين، أو (الأرواح النورانية) الذين يمنحون الكون نِعم النور والصحة والقوة والفضيلة والعدل. والأمر الجوهري الثالث في الدين الصابئي، هو الاعتقاد (بخلود الروح) وصلتها بأرواح أسلافها، صلة إلهية

مباشرة، فوجبات الطعام تؤكل نيابة من أجل روح الميت، وتمنح أرواح الموتى التي أعطت العون هي بدروها للأحياء.

وفي الدستور الأخلاقي للصابئين، يجب أن يصاحب النظافة وصحة الجسم والطاعة الطقسية سلامة العقل والضمير، وإطاعة القواعد الأخلاقية.

وهذا الازدواج كان مما ميّز شعائر «آنو » و«أيا» في زمن السومريين، وشعائر «بيل» و«أيا» أيام البابليين.

إذاً، حول ضفتي الرافدين، وبخاصة في المناطق السفلى من النهرين، فيما يسمى (البطائح) منهما، حيث يصب النهران العظيمان مياههما في الأهوار، وحيث يلتقيان في مدينة «القورنة» قبل أن يفرغا مياههما في الخليج العربي، وفي (بطائح) عربستان– من بلاد إيران– حول نهر الكارون، الذي يصب هو أيضاً، مياهه في الخليج ذاته،

في تلك الأصقاع تقطن بقايا طائفة يطلق عليها إسم الصابئيين أو الصابئة أو الصُبّة، وتطلق هي على نفسها اسم «المندائي».

قطن الصابئة المندائيون هذه المنطقة حين فتحت الجيوش الإسلامية بلاد الساسانيين، وكانوا بأعداد كبيرة تكفي لأن يذكرهم القرآن الكريم، ويمنحهم الحماية ويسميهم (الصابئيين)، هذه التسمية التي لا يزالون يعرفون بها اليوم، والتي تضمن لهم وجودهم وعيشهم بين المسلمين. ولكن هذه التسمية غير مؤكدة دينياً عند هذه الطائفة، فهم يُعَرِّفون أنفسهم باسم «مندايي»، وتعني باللغة الآرامية، كما سنرى تالياً: «العارف» من الفعل «مدّعا» أي عرف وعلم.

والشعار الرئيس لديهم هو الارتماس في الماء الجاري، وأن طهارتهم اليومية تمارس كذلك عن طريق الاغتسال بالماء، وهذه الممارسة تسمى «مصبته» أي «التعيمد» وأن التسمية (صابئي) مأخوذة من فعل «صبا» الآرامي ومعناه: يرتمس ويتعمد، فهم يقولون في صيغة الأذان عندهم: «انش صابي بمصبته شلمي» أي: كل من يتعمد بالمعمودية يسلم، وكما يقولون في التعميد: (تعمدت بعماد إبراهيم الكبير).

وكثير من الاقوام المجاورة لهم من الآراميين، أو ممن يعرفون اللغة الآرامية، قد أطلقوا عليهم اسم (الصابئيين) أي (المغتسلة).

يعتقد الصابئة المندائيون، كما سنبحث ذلك تفصيلاً، أن نبيهم الأول هو

«آدم» الذي نزل عليه كتابهم المقدس «كنزا ربا» أي «الكنز العظيم» أو (صحف آدم)، وأن شيت بن آدم وسام بن نوح ويحيى بن زكريا (ع) هم أنبياؤهم، وأن موطنهم الأصلي، في بعض المضان التاريخية، هو «فلسطين»- كما جاء في كتاب «هرن كويثا» أي (حرّان الداخلية).

بدأت هجرتهم تحت رعاية الملك المندائي الناصورائي: «أردوان ملكا» إلى مدينة (هران) = حران، الواقعة في أعالي الفرات.

ثم نزحوا إلى القسم الادنى من بلاد ما بين النهرين، حيث أقاموا مركزاً لهم في مدينة «الطيب» «طيب ماثا» جنوبي العراق.. ثم في (ميسان) بالعمارة. أما لغتهم فهي لهجة آرامية أصلية حروفها متسلسلة على وفق الأبجدية القديمة وعددها (٢٤) حرفاً، تبدأ بحرف الألف وتنتهي أيضاً، بحرف الألف، لأن باعتقادهم، أن لكل نهاية بداية.،. وسنرى تالياً الصلة الوثيقة بين هذه اللغة واللغة السريانية والعربية في آن.

ومن أبرز من كتب عنهم، بعد معايشة استمرت عدة سنوات: (الليدي دراوور) والتي ترجمت، بعد أن كتبت كتابها الشهير «الصابئة المندائيون»، الذي ترجمه الاستاذان الفاضلان نعيم بدوي وغضبان رومي، حيث يعد المصدر الرئيس لدراسة هذه الطائفة ومعتقداتها- ترجمت العديد من كتب الصابئة المندائيين إلى اللغة الانكليزية، ومنها:

- كتاب حران كويثا (حران السفلى)، وكتاب النياني (التراتيل والصلوات)، وكتاب، (سيدره إد نشامنا)- المصبتا- كتاب التعميد، وكتاب (اسفر ملواشه: سفر الملواشة (الاسم الديني)، وكتاب: (دراشه إديهيا) (درس يحيى)، أو «تعاليم يحيى»، و (ترسر الف شياله: اثنا عشر ألف سؤال)، و(القلستا= كتاب عقد الزواج)، و(ألمه ريشايا وألمه زوطا = العالم الرئيسي والعالم الصغير)، و(مصبته أدهيبل زيوا = عماد جبريل)، و(اقماهي وزرسته = كتب الأحزان)، و(ديوان أباثر= ديوان محاسبة الأرواح ووزنها)، وكتاب (كنزا ربا) ترجم إلى اللغة الألمانية وهو الكتاب الرئيسي، وقد ترجمه البروفيسور (ليدز باريسكي..)

ومن الذين كتبوا عن الصابئة المندائيين:

- أحمد أمين: (فجر الإسلام وضحى الإسلام).
- عبد الرزاق الحسني: (الصابئون في حاضرهم وماضيهم).

- **الاب أنستاس الكرملي**: (مجلة المشرق م ٤٠، ص ٥٥١- بيروت).
- **عباس محمود العقاد**: (أبو الأنبياء).
- **عبد الحميد عبادة**: (المندائي).
- **سيوفي**: (دراسات في دين الصابئة، باريس ١٨٨٠م).
- **أوليري**: (كيف انتقل العلم الإغريقي إلى العرب).
- **ليدز باريسكي**: ترجم (كنزا ربا) الذي يقع في ٦٠٠ صفحة بما يقدر بـ١٢٠ ألف كلمة.
- **براندت**: (الدين المندائي).
- **نولدكه**: (قواعد اللغة المندائية).
- **سيكلبرج**: (المصبته).
- **الليدي دراوور**: (المندائيون في العراق وايران)، وكتب وأبحاث أخرى.
- **الدكتور ماتسوخ**: (اللغة المندائية القديمة والحديثة).

وقاموس بالانكليزية إلى المندائية، بالإشتراك مع الليدي دراوور.

- **الدكتور رودلف كورت**: (المندائيون) وأبحاث أخرى.

النشوء والخلق في النصوص المندائية، ت. د. صبيح مدلول السهيري (جامعة بغداد/ ١٩٩٤).

- **غضبان الرومي**: (الصابئة) بحث اجتماعي تاريخي ديني، مطبعة الأمة، بغداد ط ١/ ١٩٨٣.
- **ناجية المراني**: (مفاهيم صابئية مندائية).
- **عبد الفتاح الزهيري**: (الموجز في تاريخ الصابئة المندائيين).
- **د. رشدي عليان**: (الصابئون حرانيين ومندائيين).
- **الشيخ رافد الشيخ عبد الله**: (التعميد المندائي- الصلاة المندائية).
- **نعيم بدوي والشيخ هيثم مهدي سعيد**: (مدخل في قراءة اللغة المندائية).
- **بيتر مان/ نورنبير ج/ براندت وليدز باريسكي**: من أوائل مترجمي كتاب المندائيين المقدس: (كنزا- ربا = الكنز العظيم).
- **عزيز سباهي**: الذي أصدر في العام ١٩٩٦ كتاباً شاملاً عن الصابئة، وهو منهم بعنوان: «أصول الصابئة المندائيين ومعتقداتهم الدينية»، وقد أعيد طبعه في العام ١٩٩٨، دار المدى، دمشق، (٢٦٦ صفحة).

إلى جانب ما جاء به المؤرخون العرب والعديد من الباحثين، كما سيرد ذكرهم في سياق البحث..

لهؤلاء جميعاً الفضل في إظهار هذا البحث للوجود، وبخاصة: الأستاذ غضبان رومي عكلة الناشي، والأستاذ نعيم بدوي، والأستاذة ناجية المراني.. فلهم بالغ الشكر، ورحم اللّه من رحل منهم، إلى دار الآخرة. كما أخص بالشكر الأستاذ عبد الفتاح الزهيري، إذ كان (موجزه) مؤشراً مهماً في تقصي البحث، كما أخص بالشكر الأستاذ الكاتب همام المراني، الذي لازمتني صداقته ورفقته منذ أكثر من أربعين سنة في البصرة وبغداد، ولفضله في توفير مراجع البحث وتسهيل لقائي بشيوخ الطائفة وأعضاء المجلس الروحاني، ورموز الصابئة المندائيين في بغداد، والتعرف على طقوسهم وتقاليدهم ومنشوراتهم وأنشطتهم..، التي كانت لي عوناً كبيراً فيما توصلت إليه، ومن اللّه التوفيق.

٣

الإضاءات

«**إذا اضطهدتم فقولوا: نحن منكم، ولكن لا يكن ذلك قلبياً**»
(من كتاب: كنزا ربه)

التبست على أبي حنيفة حقيقة الصابئة، فاختلف هو مع صاحبيه أبي يوسف ومحمد «**في** مسألة أكل ذبائح الصابئة، فحرمها أبو حنيفة وأحلها صاحباه، فقال أصحابهم إنه ليس بخلاف على الحقيقة، وإنما هو خلاف في الفتوى، لأن أبا حنيفة سئل عن الصابئة الحرانيين وهم معروفون بعبادة الكواكب فأجراهم مجرى عبدة الأوثان على تحريم المناكحة والذباحة، وصاحباه سُئلا عن الصابئة (المندائيين) الساكنين في البطيحة، وهم فرقة من النصارى يؤمنون بالمسيح عليه السلام فأجابا بجواز أكل ذبائحهم ومناكحتهم..» ذلك ما ذكره ابن القفطي في كتابه تاريخ الحكماء (ص: ٣١١).

إن ثمة فرقاً كبيراً في الدين بين صابئة حران، وبين الصابئين الأصليين، أو من يسميهم ابن النديم صابئة البطائح أو المغتسلة، وقد فطن فقهاء المسلمين لهذا الفرق، وزالوا اللبس.

وجاء في كتاب الخراج لأبي يوسف ص (١٤٥):

«والجزية واجبة على جميع أهل الذمة ممن في السواد وغيرهم من **أهل الحيرة** وسائر البلدان من اليهود والنصارى والمجوس والصابئين والسامرة...»

يفهم من ذلك، أن الصابئين الساكنين في البطائح هم المقصودون في القرآن الكريم، وأنهم هم الذين خضعوا للجزية، وشأنهم في ذلك شأن جميع أهل الذمة من الكتابيين، وأن الحرانيين أفادوا من هذا التسامح المفروض لصابئة البطائح فاتخذوا اسم الصابئة واحتموا به.

المؤرخ السيد عبد الرزاق الحسني، وقع في ذات اللبس الذي وقع به أبو حنيفة، لكنه، بعد تدقيق ودراسة، وإطلاع استدرك ما كتب عنهم واتهمهم بأنهم عبدة كواكب، فنشر مقالته عن اعتقادهم بالله (مجلة العربي، العدد ١١٢، عام ١٩٦٨).

لذا فإن السيد سليم مطر، وقع بذات اللبس حين اعتبر دينهم «الجامع بين عبادة النجوم البابلية والروحانية العرفانية القريبة من المسيحية»(١)، وعلى هذا الأساس، اعتقد أنهم (حافظوا) على لغتهم الآرامية بسبب (محافظتهم) على دينهم (الجامع) ذاك..

وفاته ما فات غيره، أنَّ الصابئة المندائيين لم يعبدوا النجوم، وهم توحيديون خلاف اولئك الحرانيين الذين تسموا باسم الصابئين لاكتساب التسامح الديني، وليسوا هم كذلك، بل إنهم (قوم وثنيون متفلسفون فارون من اضطهاد الكنيسة..)

ولأنه، لم يزل اللبس، نشر مقاربة لغوية، تجمع المفردة السريانية إلى جانب معناها المندائي وتفسيرها العربي عن مجلة «حوبودا– حزيران، ١٩٩٦، ص ٣٥» الصادرة في (السويد)، كما فعل الصحفي الكاتب عزيز سباهي، الذي أصدر كتاباً عن المندائية، والذي يطل في بعض كتاباته عبر مجلة «الثقافة الجديدة»(٢).

ثمة مجموعتان من اللغات: آسيوية وسامية لأقوام الشرق القديم، وكان شيوع اللغات الهندوأوربية ضئيلاً عهد ذاك..

أما أهم اللغات السامية فهي الأكدية، والأكدية تسمية أعطيت لمجموعة الشعب السامي الذي سكن بلاد وادي الرافدين منذ عهد سحيق، وانشطرت الأكدية فيما بعد إلى بابلية وآشورية. وهذه اللغة أخت لغات سامية أخرى كالعبرية والعربية والسريانية والحبشية القديمة، من حيث تقارب جذور الأفعال والاعلال والقواعد والمفردات، بينما تختلف السومرية عنها بجذور

أفعالها وأحرف الجر والوصل والتركيب، إذ للسومرية عين المواصفات الموجودة في لغات الشرق الأوسط القديمة، والتي يطلق عليها اصطلاحاً اسم اللغات الآسيوية، رغم اختلاف مفردات السومرية عن مفردات اللغات الآسيوية.

إن ما يميز الكتابة التي أوجدها السومريون في وادي الرافدين قديماً هو اعتمادهم مادة خاصة، فبينما نلقى مناطق أخرى استخدمت مواد الخشب والجلد والبردي للتعبير عن الفكر عبر رموز متفق عليها، مع شيء يسير من أنصاب حجرية نقشت عليها بعض الكتابات، نرى شعوب وادي الرافدين تستخدم الصلصال، بحيث أن القاص الكتابي للتوراة، لدى وصفه لتشييد برج بابل، يحدد خاصية ما بين النهرين بقوله: «واستعاضوا عن الحجر باللبن» (سفر التكوين ١١: ١-٣)، ولا عجب فقد كانت أرض جنوب العراق (منطقة فيضانات)، لذا نرى الناس الذين سكنوها، يلجأون إلى استخدام المادة المتوفرة لديهم وهي: الطين (٣).

إن التغيرات التي واكبت كتاباتنا وخطوطنا الحالية، عبر العصور، واختلاف الأبجديات، ترجع كلها أساساً إلى أصل مشترك واحد، إلاّ أنها نظراً لاستخدامها من قبل عدة أقوام، توحي إلينا وكأن الكتابة المسمارية لم تحافظ على شكل واحد خلال عمرها الطويل، ومعلوم بأن آخر مصدر (نمتلكه) بالمسمارية يرجع إلى عام ٨٠ للميلاد، فقد كتب في عهد دوميسيان (٤).

ظهرت الكتابة المسمارية في نهاية الألف الرابع قبل الميلاد، وتوثقت في تضاعيف الألف الثالث، وطرأ عليها تغيير في أواسط الألف الثاني ، حتى انشطرت في الألف الأول إلى فرعين: آشوري وبابلي، فالمراحل التي لحقت بالكتابة تتجاوب تماماً ومراحل التاريخ.

والكتابة المسارية النموذجية هي ولا شك الكتابة الآشورية السرجونية، والتي ترجع إلى القرن السابع قبل الميلاد، وتعتبر مفتاحاً لحل رموز جميع الخطوط المسمارية حتى سمي هذا العلم بعلم الآشوريات، وذلك عقيب أولى الحفريات التي أجراها (بوتا) في منطقة آشور منذ عام ١٨٤٢. وبعد قرن ونيف فقط من هذا التاريخ، توصل العالم إلى بدايات الكتابة في وادي الرافدين، مع اختلاف ملحوظ في وجهة النظر، لأن التنقيبات- خلال هذه

الفترة- اتجهت نحو القسم الجنوبي من بلاد ما بين النهرين وحتى ضفاف الخليج العربي، وذلك انطلاقاً من الحفريات التي قادها (**سارزيك عام ١٨٧٧**) وحتى المحاولات الأخيرة.

وقد كشفت هذه التنقيبات عن كتابة «تصويرية» تمثل الأشياء، فنبت السؤال عفوياً: ترى من هم أصحاب هذه الكتابة؟

وكان الجواب: إنهم السومريون، الذين استوطنوا هذه المنطقة قبل ثلاثة آلاف سنة ق.م، ووسموا هذه الكتابة بطابعهم المميز. وللتكيف مع حضارة السومريين، ما لبث (الساميون) الذين استوطنوا في شمال سومر (وهي البلاد التي سميت فيما بعد بـ «كلدو») وأخضعوها بعد أن تبنوا كتابتهم وتطبعوا بعاداتهم، فسحرتهم رموزهم، واحتفظوا بالسومرية كلغة مقدسة، كما استخدمها الأكديون أيضاً، رغم كونها غريبة عن لغتهم «السامية»، وبفضل السومرية حقق البابليون الازدهار الحضاري في العالم القديم(٥).

في تناولها، بحذر، كما تقول الليدي دراوور،(٦) لسلسلة من (التطابقات اللغوية والتاريخية)، تتساءل، ماذا يعني «مادای» أو «**ماندائي**»؟

تجيب: في المقتبسات من كتاب (حران كويثا) يوجد تعبير : بنوا منادياً (جمع مندى) وسكنوا هناك، وبيت العِبادة العادي يسمى في لغة الكتابة (المندائية): «مشكنة» (**مسكن**)، ويعرف بلغتهم العامية: (الرطنة) بـ «مندى». وفي ديوان «شرح بروانيا» يسمى بيت الشعائر «مندا»، ويوضح الكهنة أن الكلمة «فارسية» ومعناها: «المسكن»، وتأتي الكلمة بشكل مركب في اسم «ماندلتا» وهو اسم يطلق على نصب قصبي ثلاثي الشكل يقام في ساحة الدار التي يموت فيها أحد أفراد الأسرة، ويعني ذلك هنا، بوضوح: سكن الأرواح، أو «مسكن الآلهة».

وتؤكد الليدي دراوور أنه (بقوة التشابه) في (التعابير الدينية) في السريانية والآرامية، فإن «منداد- هي» قد ترجم إلى «**معرفة الحياة**» أي: غنوصية، (والغنوصيون المعرفيون أتباع حركة دينية فلسفية نشأت في القرون الأولى للمسيحية ومزجت في اعتقاداتها بين اللاهوت المسيحي وأديان الشرق القديمة والافلاطونية الحديثة وفلسفة فيثاغور، وكان الغنوصيون يعتقدون بسبب روحي غير مدرك يظهر ذاته بالفيض الإلهي وهو عكس العلم المادي مصدر الشر).

وبالقياس ترجمت لفظة (الماندائي) إلى الغنوصيين- المعرفيين- وكما أشار البروفيسور پالس Pallis، فقد تكون هذه اللفظة مستوردة، فكلمة (المعرفة) في آداب المندائيين هي: «ماديثا و يادوثا و مادا أو مادهثا»، ثم ألحقت بكيفية ما النون للفعل «ادا» (يعرف) ولا يعرف سبب ذلك، وأكثر من هذا، حيث نأخذ من اسم «مندادهي» لفظاً بمعنى «معرفة» أو (غنوسطي) لا نذهب بعيداً في تقييم هذه الجملة:

«أنتم (مندادهي).. الشجرة العظمى التي هي جميع المندايي».

و(الشجرة) في كتب الصابئين رمز ديني للحياة الإلهية، وليس من النادر أن تمثل أرواح الصابئين بالطيور ملتجئة إلى مأوى في كرمة أو شجرة ضد عواتي الزمن، وهنا من المعقول ترجمة كلمة «مندا» إلى «مسكن» أو «مأوى».

تستشهد الليدي دراوور بما وضعه (فنكلر)(٧) عن «مندا»- كمنطقة عرفت في أيام البابليين المتأخرين، غربي بحر قزوين، حوالي ٥٥٣ ق.م:

«أمر الاله مردوخ الملك نابونيدس وهو يظهر له في المنام أن يسترجع هيكل القمر القديم الشهير في حران، وقال الملك إنه لا يزال في أيدي (عمان ماندا) وسأل كيف يصح لملك بابلي أن يتدخل في حصتهم من الغنائم التي حصل عليها شيشاريس؟ وقد أجابه الإله بأن عمان مندا هزمهم وحمل اشتوميكو (استياجيس) أسيراً ونهب مدينتهم (ايكباتانا)...» وايكاباتانا هي مدينة همدان الآن، ويخمّن (فنكلر) أن من المحتمل أن (عمان ماندا) كانت قبيلة ميدية. ويجرؤ ر.و.ر. روجرز في مؤلفه «تاريخ فارس القديمة» على القول: إن (مندا) هم:المادای أو الميديون. ويقول (دي لاتر): «شعب وامبراطورية الميديين»:

«كان كورش في المخطوطات البابلية التي تحمل اسمه سيداً لجميع آسيا الشرقية، وتقسم الشعوب التي خضعت لسلطته إلى ثلاث مجموعات، شعوب كوتي أو كَوتي، وشعوب سالمات كاكادي، وشعوب الماندا؛ وشعوب كوتي هم سكان أرمينيا، وشعوب سالمات كاكادي هم مجموعة الشعوب الخاضعة تماماً لسيطرة الامبراطورية الآشورية والبابلية، وكانت شعوب الماندا خاضعة لملوك الميديين، وتطلق عبارة «رجال ماندا» من قبل (أسرحدون) على الكيمريين سكان كومر المجاورين للبحر الأسود والذين يعتبرهم الإنجيل ذوي علاقة بالميديين ومن الذين ساعدوهم على تخريب امبراطورية نينوى».

فهل هذا التشابه يسمح باستنتاج أن اسم «شعوب ماندا» كانت صفة عنصرية تشير إلى **الشعوب الآرية**» قرب القفقاس كالكيمريين **(السيمريين)** وهم بهذا سكان ايران؟

لفظة «**ماندا**» تأخذنا إلى بعيد، في ثنايا التاريخ، إذاً..

ولأنها تأتي في لهجات إيرانية عدة، وفي لغات فيها كلمات إيرانية، و«**ماندا**» تعني مثلاً في شمال العراق: سوقاً داخلية مسقفة أو «بازاراً»، وفي **الكوجراتي**، توجد كلمة «**مندى**» أو «**مندافا**» وتعني: **الظل** أو **الهيكل**، وهي مأخوذة من «**ماندايا**» السنسكريتية بنفس المعنى.

والتوديون، في جنوب الهند الذين لهم تقاليد في الهجرة من القزوين، يسمون قريتهم، أو مجموعة أكواخهم من القش مع طينية للأبقار المقدسة: «**ماند**»، وتأتي «**ما– دا**» في السومرية بمعنى: **الأرض، أو السكن**.

واللغويون لا يجزمون بنسبة كلمة: «**ماتو**» السامية إليها، فهل تقودنا كلمة «**مادا**» **إلى الميديين**؟

إن اللغة كثيب من الرمل، لغير علماء اللغة، وهنا لا نجرؤ، كما لا تجرؤ **الليدي دراوور** من قبل، على أكثر من سؤال أولئك الذين يتصفون بهذه الصفة «علماء اللغة» إذا كان من الممكن أن يكون أصل كلمة: «**مادا**» أو «**ماندا**»: موطنا، أو محل سكنى، أو ملجأ، أو أنه يشير إلى (بناء) مجموعة من الأبنية على عكس ما تقيمه العشائر الرحالة من مبانٍ مؤقتة.

«فاذا كان ذلك ما ذكرت»– تقول– فإن معنى «**ماندادهي**» سيكون مساوياً لـ «**بيت الحياة**» أو «**موطن الحياة**»، **ويكون تجسيداً (مرة اخرى) للروح الجماعية للإنسان الذي يمثل جسمه موطن الروح، أو كما افترض (ليدز بارسكي) بأنه: تجسيد لجنس المانداثيين.**

ولغة الصابئيين ضد نظرية انحدارهم من الشمال، كما أشار إلى ذلك البروفيسور **بركيت** Burkitt، وهي لدى (**نولدكه**): **لهجة بابلية** حيث قال:

«**تنتسب اللغة المندائية انتساباً وثيقاً إلى لغة التلمود البابلية، فكلا اللغتين متجاورتان من الناحية الجغرافية، وفي الواقع يمكن أن ندعي بأن لغة التلمود البابلي كانت تستعمل في بابل العليا، وأن المندائية كانت تستعمل في بابل السفلى**» (N.P.P.XXVFF)

ثم كتب في محل آخر يقول:

« هناك علاقة وثيقة واضحة بين اللغة المندائية ولغة التلمود خلال النحو فيهما، ويظهر أن المندائية شكل متأخر عن التلمودية في الظهور، ولكن ليس بكليتها، لأن النصوص المندائية أنقى لغوياً وليست مختلطة بعناصر غريبة، وهي تمثل الكلام الآرامي في بابل خيراً مما يمثله التلمود.

ولو حفظ العرب لنا شيئاً أكثر بقليل من الكلمات التي نعرفها في الوقت الحاضر من لغة النبطيين العراقيين (سكان بابل المتحدثين بالآرامية) لوجدنا الخصائص الرئيسية للغتين المندائية والتلمودية أكثر مما نقدر عليه الآن » (N.P.P.XXVI)

جاء في بحث (**تاريخ الأدب السرياني من نشأته إلى الفتح الاسلامي**) المنشور في المقتطف، الجزء الأول، والمجلد الخامس عشر بعد المائة، سنة **١٩٤٩ لمؤلفيه الدكتور مراد كامل والدكتور محمد حمدي البكري:**

«ونستطيع بعد ذلك أن نقسم اللهجات الآرامية إلى شرقية وغربية، أما الشعبة الشرقية فتضم لهجة «الرها» الآرامية، وكان موطنها ما بين النهرين، وسميت بعد ظهور المسيحية بالسريانية.

ولهجة آرامية يهودية بابلية هي لهجة (التلمود البابلي) وكان موطنها شمالي العراق، ولهجة الصابئين الآرامية وهي اللهجة (المندعية) (المندائية) وموطنها جنوب العراق، ثم يقولون عن اللهجة المندائية (واسمها مشتق من الكلمة الآرامية– مدّعا–) ومعناها: (**المعرفة**) ويسمى أصحابها بالصابئيين أو المندعيين (المندائيين)، **وهم طائفة من القبائل الآرامية كانت تسكن منطقة الأردن ثم هاجرت منها إلى العراق».**

إن عدم وجود الأصوات الحلقية في المندائية والخلط المستمر بين السين والصاد والزاي وبين الكاف والقاف توازي إلى حد ما ماهو موجود في اللغة البابلية، ولكن حقيقة كون الهاء وحدها جعلت لتؤدي وظيفتي الهاء والحاء الساميتين، يشير، إلى أن اللسان كان في وقت ما غريباً على القوم الذين تحدثوا به، أو أن فيه قدراً معتبراً من العناصر الآرية أو غير السامية؛ وفي الحقيقة توجد (آه) ولكنها تستعمل بصورة خاصة موصولة بالشخص الثالث المفرد فقط، وتلفظ (أي) أو (آ) بحسب الجنس والعدد، فلا اعتبار لها بين الحروف.

والكتب المقدسة المندائية ليست مطبوعة، وقد قام بنسخها باليد، الكتاب الكهنوتيون طيلة قرون عديدة، وكانوا يحصلون على قسم من دخلهم بالقيام بهذا العمل للمتدينين من أفراد الطائفة الذين يعتقدون بأن امتلاكهم للكتب المقدسة يحفظهم من الشرور في الدنيا والآخرة(٨).

إن تاريخ جمع ونسخ القواعد والطقوس وعلم نظام الكون والأدعية والتراتيل، مسألة ليست سهلة الحل، وإنما أصالة الكتب والزمن الذي تذكرت فيه كل فقرة بشكلها الأصلي ثم كتبت، مسألة أكثر تعقيداً..

ويظهر أن أغلب هذه الكتب قد دوّن إما في أيام الساسانيين أو بعد الفتح العربي.

والمراجع التاريخية، بحسب الليدي دراوور، قليلة والشيء الوحيد التاريخي بهذا الشأن موجود في الكتاب الثاني عشر من «**الكنزه**» حيث يدون قائمة بملوك البارثيين والساسانيين، وتنتهي القائمة بخسرو بن هرمز، وبهذه النبوءة:

«**سيخلف ملوك العرب، ملوك الفرس، وسيحكمون احدى وسبعين سنة**».(٩)

وأغلب النسخ التي تدارستها الليدي دراوور التي تعايشت مع الصابئة لمدة ١٥ عاماً، ليست قديمة– كما تقول– بالرغم من امتلاكها لنسخة من كتاب «**تفسير بغره**» تعود إلى القرن السادس عشر، وقد علمت بعدم وجود أية مخطوطة صابئية في مكاتب أوروبا يعود تاريخها إلى أقدم من القرن السادس عشر، وليس في أية مكتبة أوروبية مجموعة كاملة من كتب الصابئين..

وقد جلب أحد المندائيين المتدينين من الأحواز نسخة يعود تاريخها إلى ما قبل ١٨١٦ سنة وأحالها المجلس الروحاني للصابئة المندائيين إلى وزارة الأوقاف العراقية، وتشكلت (لجنة عليا) لغرض الإشراف على طباعتها، وهذه النسخة الفريدة تتكون أغلب صفحاتها من صفائح من نحاس..

والسبب في تقديري يعود إلى أن أكثر أفراد هذه الطائفة كانوا يعيشون في أكواخ من القصب توقد فيها النار شتاءً وتنشب فيها الحرائق بشكل عام، لذا كان الصابئون يطمرون كتبهم المقدسة في أثناء حدوث الأزمات، وفي الأوقات العصيبة.

ولقد شاهدت الليدي دراوور نسخاً ذات حواش محترقة أكد لها أصحابها

بأن اكواخهم قد دمرتها النار «إلا أنّ الكتب المقدسة «بمعجزة» لم تمس بأي ضرر».

وتفسر ذلك بكون الكوخ يشتعل وينطفىء في لحظات بينما يمكن إنقاذ الأدراج والكتب المغلفة بالقماش والمحفوظة عادة داخل صندوق معدني.

وتقول التقاليد إن الكتب المقدسة لم تدون على الجلد مطلقاً «**لأن ذبح الحيوانات تدمير للحياة ولهذا فالجلد غير طاهر**» بل إنها دونت على ورق البردي وعلى المعادن والحجر.

وقد رأت كتاب «سدره إد نشماثه» (**كتاب الارواح**) مكتوباً على ألواح من الرصاص، ويمكن أن يكون هذا التقليد قديماً أو لا يكون، لأن استعمال الصفائح المعدنية يعود إلى إمكان تطهيرها بغمسها في الماء الجاري قبل استعمالها، وقديماً، كما يقول كاهنهم، كانت جميع الكتب التي تستعمل في الطقوس تطهر بهذا الشكل.

وفي الوقت الذي عاصرت فيه الليدي دراوور، صابئة العراق، كان أحد المتعبدين الكهان يقوم بكتابة كتاب «سدره إد نشماثه» على صفائح نحاسية مطعمة بالفضة.

وتغلف الكتب تغليفاً تاماً بالخام الأبيض أو الموسلين، وتربط الدواوين بأشرطة من الخام أيضاً، ويصنع الحبر من قبل الكهان أنفسهم، وينبغي أن يكون أسود لماعاً، ولكل كاهن – تقريباً – تركيبه الخاص لعمل الحبر (**ديوثا**) الذي يحفظ على شكل بلورات تذاب في الماء حين يراد استعمالها.

ومن نماذج تركيباتهم للحبر، ذلك المزيج من الغراء الذي يوضع بماء النهر ويترك إلى أن يذوب ثم يغلى إلى درجة التبخر لمدة ستة أيام، ويسحق في اليوم السابع ويخلط بمسحوق الفحم بنسبة مثقال واحد من الفحم إلى خمسة وعشرين مثقالاً من الغراء لمدة أربعة إلى خمسة أيام، ثم يمزج بالماء إلى أن يصبح عجينة ناعمة، ثم بعد غليانه يصير على شكل بلورات تمزج بماء النهر (**يردنه**) لعمل الحبر، وينبغي أن يتلى عليه دعاء «اسوثه ملكه» (**صلاة التسليم**).

ويستعمل كهان آخرون بندق العفص أو السخام المأخوذ من زيت السمك (أي دهن السمك المذاب)، وتضاف إليه بعض الأعشاب من النوع الجيد، مما

يمكن الحصول عليه، وتبلغ كلفة كتابة «كنزه» آنذاك حوالي ٥٠٠و٤ دينار، إذا أرادها مشتر جديد!!

والكتابة بحد ذاتها عمل طلسمي يجلب الخير للذين يقومون به، وتمثل الكتب، أحياناً، كما لو كانت أشخاصاً ذوي أرواح يمكن إقحامها في الطلسم. وأكبر هذه المخطوطات هو كتاب «كنزه ربه» (**الكنز العظيم**) ويسمى أيضاً: (سدره ربه) (**الكتاب العظيم**) أو (**كتاب آدم**).

وقد ترجم هذا الكتاب منذ العام ١٨١٣م من قبل **ماثيو نوربيرغ** السويدي Mathew Norberg، وظهرت له ترجمات وتعليقات في فترات مختلفة بلغت ذروتها في ترجمة البروفيسور **ليدز بارسكي** النفيسة إلى اللغة الألمانية وقد طبعت عام ١٩٢٥م.

وسبق هذه الترجمة كتاب «**دراشة إد يهيا**» عام ١٩١٥م. وبعض التراتيل والطقوس عام ١٩٢٠، ومن بينها «**سدره إد نشماثا**» (**كتاب الارواح: طقس التعميد**) وترجمة صلوات «**المسنحثة**» وبعض أدعية وطقوس الزواج. وترجمة أحد الدواوين في مكتبة «**بودليان** Bodleien مؤرخة في ٩٣٦هـ.

إن الدواوين الطلسمية كلها على ذات الروحية والأسلوب، وقد استنسخت واعيد استنساخها منذ قرون – حرفياً– (لأن بعض الأسماء والأرواح الطلسمية التي لا تزال تذكر قد اختفت من الدين الأصلي وهي غير موجودة في أي كتاب من كتبهم المقدسة)، وتعتبر هذه الأحراز الصغيرة واقياً ضد الأمراض وسوء الطالع والعين الحاسدة والشريرة.

والحرز الطلسمي نوعان، فالكبير لا يمكن للإنسان أن يحمله ويُدعى «**قماهة**»، أما الصغير والذي يطلق عليه اسم «**زرستا**» فهو الحرز المعتاد، وهو ثابت لا يتغير، ويكتب للتو على قصاصة طويلة من الورق عرضها من عقدتين إلى ثلاث، تلف بأحكام وتدلج في صندوق صغير من الذهب أو الفضة بحيث يمكن تعليقها في عنق الإنسان بوساطة سلسلة أو خيط، وهذا النوع من الأحراز طويل عادة حتى ليبلغ السبعة أو الثمانية أقدام طولاً، ولهذا يستعمل له ورق رقيق جداً.

إن الوثائق الطلسمية تكشف عن مزاج حاملها التهيبي وتخوفه من الضغينة والمرض والنكد. وفيها تصب أقسى وأطول اللعنات على رؤوس

الأعداء والوشاة والمارقين عن الدين، بينما تجسد فيها الأمراض عادة كما لو كانت كائنات شيطانية،

والاسم الفلكي لمن تصنع من أجله الأحراز يذكر في الحرز عدة مرات مع التضرع لقوى النور والحياة من أجله ومن أجل عائلته وممتلكاته ومهنته. والأسطر الأولى القليلة والأسطر الأخيرة أيضا، تكون عادة الحروف الأبجدية، ولها قوة وقائية، ثم يتبع ذلك صيغة قصيرة:

«حمداً لإلهي طاهر القلب، طاهر الفم».

وكلها تبدأ بجملة: **«باسم الحياة العظمى لتكن الصحة والطهارة والقوة والثبات والنطق والسمع وسرور القلب وغفران الخطايا لفلان، أو فلانة، ابن أو ابنة فلانة»** (الأسماء الفلكية).

وفي الكتب المقدسة والطقوس يذكر اسم الأم لا اسم الأب، وتعبير: «**والنصر للحياة**» يستعمل عادة في نهاية المقاطع والفقرات في جميع الكتب، ثم يتبع ذلك كتابة الحرفين «س – أ» يفصل بينهما خط مستقيم طويل، ويكون في بعض النهايات بمعنى «**أمين– سالا**»، وقد يكون الحرفان: «س – آ» يمثلان كلمة: «**سالا**».

ولا يذكر يوحنا المعمدان في الدواوين الطلسمية، وتظهر أسماء «انوش وهيبل وشيتل» ولكن نادراً ما يذكر اسم «انوش اثرا»، ويتضرع باستمرار إلى «ياور زيوا» و«سيمات هي» مقترنين، وسيمات هيي، روح أنثوية تعتبر أماً لكل متنفس، ويتحدث عنها أحياناً باعتبارها أنثى لأحد أرواح النور العظمى، وأحياناً يكون ذلك الروح «شامش» مما يوحي بمطابقة «ياور زيوا» لذلك الكوكب (١٠).

وكما ذكرت الليدي دراوور، فإن الكاهن المندائي عمل لها حرزاً هو «**تعويذة حب**» مرفوعة إلى «**ليبات– دلبات– عشتار**»، وتظهر مع ذلك إشارات عدائية للكواكب ولعلامات البروج في نفس الحرز.. تماماً كما فعل البابليون، والسومريون من قبل في تعاويذهم والتعازيم، والتي كانوا يطردون بها الأرواح الشريرة، ويقضون على المرض، وايضاً ربما في أناشيد «**عشتار**» التي يرددونها يقتربون من حبيباتهم أو أحبتهم كي تقوى المحبة، ويكون الأحياء، أحق بالحياة، من تعلقهم بالجانب الميت، إن **الحب يمنحهم الحرية... والإيمان والأمان.**

ذلك هو الطلسم الذي تكتبه الأديان كلها، تعاويذ خير، ورقى موشاة بكتابة ذات طابع ممين، وسري..

«**هذا عرشها، مورق اسمها**»، إلهة الخصب، دائماً، و«**كنز الحياة**» وعرشها معلوم، وهكذا يخلد في ذاكرة الكتابة المندائية ، ويخلد في الكلمة.

حين نرى إلى لهجة «**التلمود البابلي**» فسنجدها (شرقية) أقرب ما تكون إلى (المندائية) العراقية، بحسب د. أحمد سوسه (١١)، (وقد احتوى على بعض مصطلحات يونانية ولاتينية)، ومن المعروف أن ثمة تلموداً يعرف بالتلمود الفلسطيني، ويسميه اليهود «الأورشليمي». ويعرف الثاني بالتلمود البابلي، ولكل من هذين التلمودين طابعه الخاص، وهو طابع البلد الذي وضع فيه، ولغتا التلمودين مختلفتان وتمثلان لهجتين آراميتين، وكما أشرنا عن البابلي، فلهجته (أقرب إلى المندائية العراقية) لكن لهجة (التلمود الفلسطيني) هي بالآرامية الغربية..

وحجم التلمود البابلي أوسع من الفلسطيني بأربعة أضعاف، ويقع في ٥٨٩٤ صفحة، ويطبع عادة باثني عشر جزءاً..

ويعدّ كتاب التلمود عند اليهود جزءاً من أحكام الديانة اليهودية، والتلمود معناه: التعاليم أو الشرح، أو التفسير.. وهي «**مجموعة الشرائع اليهودية التي نقلها الأحبار اليهود شرحاً وتفسيراً للتوراة واستنباطاً من أصولها**». **وأصل كلمة «تلمود» من العبرية «لاماد» أي: «يعلم» ويقسم التلمود إلى قسمين: «المشنة» (أي: النص أو المتن) و«الجمارا» (أي: التفسير والشرح) والتلمود اسم جامع للمشنة والجمارا معاً.**

المشنة: عبارة عن مجموعة تقاليد اليهود المختلفة في شتى نواحي الحياة اليهودية مع بعض الآيات المأخوذة من كتاب التوراة.

أما الجمارا: **فهي مجموع المناظرات والتعاليم والتفاسير التي وضعت في المدارس العالية بعد الانتهاء من وضع المشنة.**

يقول د. سوسه: «إن اليهود يزعمون بأن هذه التقاليد والتعاليم ألقاها النبي موسى (وعزرا) شفاهة على شعبه، وقد أعطيت له حين كان على الجبل، ثم تداولها هارون وليعازر ويشوع، وسلموها للأنبياء، ثم انتقلت من الأنبياء إلى المجمع العلمي الأعلى (سنهدرين) وخلفائهم حتى القرن الثاني بعد المسيح

(ع). ويعتبر أكثر اليهود (التلمود) كتاباً منزلاً ويضعونه في منزلة التوراة» (١٢).

وقد دون التلمود الفلسطيني في طبرية حيث نشأت في فلسطين طبقة من العلماء يعرفون بـ «التنائيم»، فأخذ هؤلاء يشرحون أحكام التوراة، ويدونون قوانينها وتبويب شرائعها في مجموعة أصبحت تعرف بـ«المشنة»، وقد استغرق وضعها حوالي مائتي سنة (١٠-٢٢٠م) حيث جرى جمعها بعناية (الحبر الأكبر يهوذا بن شمعون الملقب بالربن الأقدس (١٩٥-٢٢٠م) سنة ٢٠٠م. وهو (الراب الأكبر) يهوذا بن الربن عمليال سابع رؤساء المجمع اليهودي الأعلى (سنهدرين) جامع (المشنة) التي أصبحت أساساً للتلمود، و«التنائيم» كلمة آرامية جمع «تناء» أي: «معلم».

وأسس مباحث التلمود تقوم على ستة أبواب:

١- الفلاحة، ٢- الأعياد والمواسم، ٣- النساء وما يتعلق بهن من زواج وطلاق وحضانة ونذور وإرث ووصية، ٤- النواهي والعقوبات، ٥- الذبائح وما يتعلق بالتقدمات والقرابين ومراسيم الهيكل وما إلى ذلك، ٦- الطهارة.

وكان اليهود حريصين على ألا يطلع على التلمود غيرهم إلا من يأمنون جانبه من غير اليهود ممن يؤيد نزعاتهم خوفاً من ثورة العالم المسيحي ضدهم، فقد أخفوه أربعة عشر قرناً منذ أن وضعه حاخاماتم، وفي سنة ١٢٤٣م أمرت الحكومة الفرنسية في باريس بإحراق التلمود علناً بعد أن كشف ما يحتوي من عبارات الطعن والإهانة ضد الأغيار من الناس وضد المسيحية والسيد المسيح بوجه خاص، وقد جرى حرقه عدة مرات في مختلف الأزمان والأقطار (١٣).

ومن أهم مظاهر الانحراف عن (توراة) موسى (ع) الأصلية، أن (التوراة) التي كتبها الكهنة بعد عصر موسى بعدة قرون تقوم على (التفرقة العنصرية) وقتل الأطفال والنساء والشيوخ.

يذكر ابن حزم الاندلسي (علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الظاهري ٣٨٤-٤٥٦هـ/ ٩٩٤-١٠٦٤م) في (الفصل في الملل والأهواء والنحل)، أن السامريين يزعمون بأنهم يحتفظون بالتوراة الأصلية المنزلة، ويقطعون أن التي بين أيدي اليهود، محرفة، مبدلة، وهما غير الذي أنزله الله على موسى. وأكد في ملاحظاته على بعض النصوص التوراتية أنها تنقل «فضائح

واكذوبات وأشياء تشبه الخرافات»، ففي الوقت الذي تؤمن التعاليم الإسلامية بعصمة الأنبياء والرسل باعتبارهم صفوة البشرية الذين يجب أن يتخذ الناس من سلكوهم قدوة يقتدون بها، نرى إلى التوراة تفتري عليهم بأعمال قبيحة تتنافى ومكانتهم الدينية والإجتماعية «فقد نسبت إلى الملك داود أنه زنا بزوجة أحد قواده» (٢صم، ١١ :٢-٥) كما نسبت إلى سليمان أنه أحب نساء كثيرات أجنبيات (أمل ، ١١: ١-٨) وإلى لوط إثماً مع ابنتيه (تك، ١٩ : ٣٠-٣٥) وإلى أمنون بن داود اغتصاب أخته ثامارا (٢ صم، ١٣، ١- ٢٢)

ويؤخذ من سور القرآن الكريم أن (التوراة) التي كانت بين أيدي الناس في زمن نزول الفرقان المحمدي هي غير التوراة التي أنزلت على النبي موسى في سيناء. وقد أثبتت الاكتشافات والدراسات العلمية الحديثة التي حددت تواريخ الوقائع التاريخية بحسب تسلسلها الزمني هذه الحقيقة التاريخية.. وينبهنا القرآن الكريم إلى فرية إدعاء التوراة المحرفة، والقائلة بأن إبراهيم **الخليل** وحفيده **يعقوب** (إسرائيل) أجداد اليهود، وأن اليهود من نسلهما، ففي الآية الكريمة: **﴿ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين﴾** [آل عمران: ٦٧] ما يوضح بأجلى بيان نفي هذا الادعاء من حيث الأساس، وبذلك يكون القرآن الكريم أول من كشف لنا عن هذه الحقيقة التي تعني **بأن إبراهيم ما كان على دين (يهوه) إله اليهود، بل كان حنيفاً مسلماً** - كما سنرى في مبحثنا القادم-، كما تعني أن **عهد إبراهيم الخليل هو غير عهد اليهود**، ولا يتصل بعهد اليهود الأخير الذي يرجع إلى أكثر من ألف عام بعد عهد إبراهيم الخليل واسحق ويعقوب. وثالثاً، ينبهنا القرآن الكريم أيضاً، إلى أن إبراهيم الخليل مرتبط بالجزيرة العربية (بيت الله العتيق) (البقرة الآيات: ١٢٥، ١٢٨)، وقد جاءت المكتشفات الأثرية حول الهجرات السامية من الجزيرة العربية إلى الهلال الخصيب، ودراسة علم المقارنة بين اللغات مؤيدة لهذه الحقيقة نفسها التي تربط صلة إبراهيم الخليل بوادي الرافدين وجزيرة العرب.

وينبئنا، رابعاً، القرآن الكريم بأن الديانة اليهودية (على عهد النبي موسى) كانت في أصلها تقر بالبعث والنشور واليوم الآخر والحساب والجنة والنار، كما هي عند الصابئة المندائيين الموحدين، ولكن أسفار العهد القديم (التي بين أيدينا) تخلو من ذكر اليوم الآخر ونعيمه وجحيمه (١٥).

إن الخبراء توصلوا إلى أن الكثير مما ورد في التوراة من قصص وأساطير وشرائع يرجع إلى أصل قديم وجد مثيله أو ما يشبهه في المدونات السومرية والأكدية والكنعانية والبابلية والآشورية والمصرية، مما يدل على أنه ليس لليهود أدب مبتكر أوثقافة خاصة بهم..

كما توصل الخبراء إلى أن مواداً عديدة في التوراة مأخوذة من شريعة حمورابي والشرائع القديمة الأخرى، وأن أكثر التراتيل والمزامير والتسابيح الدينية التي وردت في التوراة مقتبسة من الكنعانيين في (اوغاريت)، ومن المصريين..، وبالأساس من بلاد وادي الرافدين.. وأن معظم شرائع التوراة اقتبسها اليهود من بابل، ومن شريعة حمورابي.

فقصة الخليقة البابلية وأصل الوجود، كما هي في المعتقدات السومرية والبابلية والآشورية، الأصل، نجد نفس عناصرها في التوراة منذ قولهم «**وكانت الأرض خربة وخالية وعلى وجه الغمر ظلمة وروح اللّه يرف على وجه المياه**» (تك، ١:٢).

البعث والقيامة عند السومريين والبابليين، وجدت صداها في (**حياة أخرى بعد الموت**). فكلاهما ينكرا (**البعث والقيامة**)، فقد وصف السومريون والبابليون **العالم الآخر** بأنه **عالم الظلمة والرهبة**. (**العالم السفلي**) الذي يحكم فيه الإله «نركال»، وقد ورد وصف (**الآخرة**) في قصيدة نزول الإلهة **عشتار إلى العالم السفلي في بداية الربيع من كل عام لتخرج زوجها تموز إله الخصب والنماء والربيع**، بأنه: موضع مخيف مسور بسبعة أسوار ضخمة يحرسها حراس مردة وشياطين، وتتولاه الإلهة (**ايرشكيكال**) آلهة الظلام والدجى والموت.

بمعنى أن ليس في عقائد البابليين والسومريين ما يوعد به الإنسان من آمال دينية لذيذة بعد الموت، أي لا توجد عندهم جنة ولا نار.

والتوراة تخلو من فكرة البعث والنشور في حياة أخرى أو لدار العقاب ودار الثواب في الآخرة. وقد ظهرت جماعة من اليهود مؤلفة من طبقة الكهنة وبعض الكتبة كانت تجاهر بمبدأ نكران البعث والنشور والقيامة، وتذهب إلى أن (**عقاب العصاة**) و (**إثابة المحسنين**) إنما يحصلان في حياتهم، **وهؤلاء صاروا يعرفون بالصدوقيين نسبة إلى رائدهم الأول صدوق أو صادق** [١٦].

ثم ظهرت قبيل عهد المسيح فرق من اليهود تؤمن بالقيامة وبالعقاب وبالملائكة، فكان أقدمهم السامريون الذين اتخذوا لهم هيكلاً خاصاً بهم في جبل جرزيم في شكيم (نابلس، حالياً) حيث مارسوا عبادتهم منعزلين عن اليهود، حيث اشتدت العداوة بينهم.

والفريسيون فرقة من اليهود متأخرة يؤمن أتباعها بالقيامة وبالروح وبالملائكة على نقيض الصدوقيين الذين لا يؤمنون بالقيامة ولا بالروح ولا بالملائكة، وكان (بولس الرسول) فريسياً من حيث إيمانه بالقيامة فقاومه اليهود وناصبوه العداء هم والصدوقيون.

كذلك سرقوا قصة آدم وحواء بما فيها جنة عدن، التي وردت في التوراة، إذ ترجع جذورها إلى سومر، فنجدها مصورة على نقش سومري (١٧).

كما سرقوا فكرة الفردوس من السومريين والساميين ايضا..، إذ عثر على لوح نقشت عليه قصيدة سومرية فيها تشابه بين المدونات التوراتية والقصة السومرية، وكان موضع الفردوس بموجب القصة السومرية في «دلمون»: «إنها أرض الخلود التي لا يوجد فيها مرض أو موت أو حزن، ولا ينعب فيها غراب، ولا ترفع الطيور أصواتها بعضها فوق بعض، ولا تفترس أسودها، ولا يأكل ذئب فيها حملاً، إلا أنه كان ينقصها الماء العذب اللازم لحياة الحيوان والنبات، فأمر إله الماء السومري العظيم (انكي) «اوتو» إله الشمس أن يملأها بالمياه العذبة النابعة من الأرض» وهكذا تحولت «دلمون» إلى حديقة إلهية غناء مملوءة بالأثمار والمروج والرياض.

إلى جانب وصفهم لمنطقة (الغمر): (آبسو).

وفيما يخص قصة آدم وحواء، إتخذ الساميون شجرة التفاح لتمثل شجرة الحياة، بينما اتخذ السومريون «النخلة» لتمثل شجرة الحياة لوجودها في بيئتهم.، حتى حين انتقلت إلى (بعلبك) صارت هناك، أيضاً، شجرة العائلة، وشجرة العيد..

إن «كرايمر» يرى أن اليهود تأثروا بالكنعانيين الذين أخذوا فكرة الفردوس الإلهي عن السومريين، ففي كتابه «ألواح سومر» يقول: «لقد ترك الأدب الذي أوجده السومريون أثره العميق في العبرانيين (اليهود) ومن أكثر الأمور المثيرة هو تقصي أوجه الشبه والمطابقة بين الأفكار والبواعث السومرية

والتوراتية». إن اسفار التوراة في صيغتها ومضمونها كليهما ليست بالقليلة الشبه بالآداب التي خلقتها وأوجدتها الحضارات القديمة في بلاد الرافدين» (١٨).

كذلك الأمر مع قصة قابيل وهابيل.. وجذورها في الملاحم السومرية (حين خلق الإله أنليل- إله الهواء- أن تنمو الاشجار والحبوب وأن تحل في البلاد الوفرة والرخاء فخلق لهذه الغاية مخلوقين أخوين هما «ايميش» و«آينتين» ليعنيا بشؤون الزراعة والفلاحة وتربية الحيوان، ويبدو من سياق القصة أنَّ نزاعاً نشب بين الاثنين أفضى بهما إلى التحكيم، ولكن أنليل اختار (إنتين) وجعله فلاح الإله،

وتتكون هذه القصة من ثلاث مائة سطر أكثر من نصفها كاملاً لا ابهام فيه.

ومن الأساطير الأخرى التي تمثل طرفاً في النزاع المستحكم بين (البدو) و (الحضر)، بين الراعي والفلاح، أسطورة الإله (لهار) إله الماشية وأخته الإلهة (إنشان) إلهة الحبوب، وهي قصة تدور كسابقتها حول الصراع، تماماً كما بين قابيل وهابيل..

وتوجد اسطورة ثالثة، سومرية، سميت «إنانا تفضل الفلاح»، تظهر الصراع بين «الراعي دموزي/ تموز» والفلاح «انكيمدو» على حب «إنانا» حيث عزمت على اختيار زوج لها، وكان أخوها (اتو) يحثها على الزواج من (دموزي) الراعي لكنها تفضل (انكيمدو) الفلاح، فيأتي إليها (دموزي) ليعرف السبب الذي يجعلها تفضل الفلاح عليه، إلا أنّ (إنانا) لا تجيب، ورغم محاولات «انكيمدو» إرضاء الراعي وثنيه عن عزمه بالهدايا وأنواع الاغراءات، فإن «الراعي» يرفض..- وهنا يتعذر فهم ما تبقى من كتابة الرقيم- غير أن الظاهر أن «دموزي» الإله الراعي، قد تغلب على «انكيمدو» الإله الفلاح (١٩).

أما قصة نوح والطوفان فقد جاءت في التوراة مشابة أيضاً، لمدونات السومريين والبابليين وكذلك قصة يوسف مع امرأة سيده ومثيلتها في النصوص القديمة، وولادة موسى المنقولة عما رواه سرجون الأول ملك الأكديين (٢٣٨١-٢٣١٦ ق. م) عن نفسه، وقد تناول فرويد بحث أسطورة (انتشال البطل من الماء) بقوله: «إن أقدم ما نعرفه من الأشخاص الذين ارتبطت بهم خرافة الولادة هذه، سرجون الأكدي..» (٢٠).

«أما القصة التي رواها ستون لويد فمفادها أن سرجون الاكدي (لا يعرف أباه)، فأمه (كانت إحدى عذارى الهيكل، فحملت به ووضعته سراً، فخبأته في صندوق من البردي وأحكمت بابه بالقير وألقته في نهر الفرات، فعثر عليه «أكي» الفلاح فرباه ليكون ابنه، ثم صار سرجون اللقيط بستانياً فساقياً لحاكم كيش وقد عشقته الإلهة عشتار فصار ملك سومر وأكد» غير أن الأستاذ طه باقر قد أثار في تعليقه على ذلك أن النص الوارد في كتاب ستون لويد « يمثل رأياً قديماً، وأن البحث الحديث يرى أن أم سرجون كانت كاهنة عليا من صنف الكاهنات المحرم عليهن الزواج أو على الأقل إنجاب الأطفال» (٢١).

وتستقي الشرائع أحكامها عادة من بيئتها وظروف مجتمعها، سياسياً، ودينياً، ومعاشياً، بحيث تنسجم مع آمال الشعب، ولا أدل على التشابه الواضح في شريعة حمورابي و(شريعة التوراة) (وليست شريعة موسى- كمصطلح- لأن كل ما جاء في شريعة التوراة منسوباً إلى موسى بل ثمة تطابق كلي في مواد الشريعتين..)

إن شريعة حمورابي ترجع إلى عهد صاحبها سادس ملوك سلالة بابل الأولى الذي حكم في الفترة الممتدة ما بين سنة ١٧٩٢ و ١٧٥٠/ قبل الميلاد، وهو القائل: «إن الآلهة قد نادتني لأمنع الأقوياء من أن يظلموا الضعفاء، ولأنشر العدل والنور في الأرض، وأرعى مصالح الخلق». وقد دونت شريعته المكونة من ثلاثة آلاف سطر باللغة البابلية (السامية) وبالخط المسماري الأكدي، على مسلة كبيرة، كما هو معروف، من حجر الديورانت الأسود، وقد نصبها حمورابي في فناء معبد (ايزاكيلا) معبد الإله (مردوخ) الإله الرسمي للدولة البابلية، ونصب مثلها في معبد الإله (شمش) في مدينة (سيار) ويظهر حمورابي في هذه المسلة وهو يتسلم بخشوع عصا الراعي ليكون راعي البشر، وشريط القياس للبناء من إله الشمس = شمش، وهو جالس على عرشه، وقد ارتدى حمورابي رداء الكهنة والعمامة، وهي لباس الرأس عند الساميين الغربيين...»

ويؤكد العلامة بريستد: «أن التوراة الحالية تحتوي على اقتباسات من الأدب الفرعوني القديم» أيضاً، ويقيم المقارنة بين مزامير داود وأناشيد اخناتون- التوحيدي- كما ورد في سفر الأمثال الكثير مما كتبه الحكيم

المصري «اميمنمنوني » في وصاياه لابنه.. وهو يورد في كتابه عدداً من المقابلات بين الكتابين.، كما يؤكد بأن «القصص الشعبية العالمية» كانت مصدراً من المصادر التي اقتبس منها كتاب أسفار العهد القديم، مما كان شائعاً في بلاد الرافدين، ومصر والهند والتبت وفارس والمكسيك عن الجنة، والأشجار المحرمة، والأفاعي التي سلبت الناس الخلود، والطوفان..

ويقول: «وكانت معظم الآداب المصرية الأولى آداباً دينية، وأقدم العقائد المصرية ترانيم نصوص الأهرام، وقد أخذ الشعراء العبرانيون عن البابليين والمصريين هذه الطريقة وخلدوها في المزامير» (٢٢).

ويقول اولبرات: «لقد أصبح مؤكداً الآن أن القصص العبرية المتعلقة بالخليقة والطوفان والجنة... الخ، إما أن تكون مأخوذة من السومريين، أو مأخوذة عن طريق الأكديين والعموريين» (٢٣).

أما كرايمر، خبير الآثار السومرية، فأكد بأن الأدب السومري لم يؤثر فقط على التوراة، بل على آثار شعوب عدة:

«لقد كان للأدب السومري تأثير كبير على أوسع المجالات الروحية في (الآداب) التوراتية التي تؤلف (المبتكرات الأدبية) عند العبرانيين، وكذلك الإلياذة والأوديسة وهما الملحمتان الزاخرتان بالقصص الأسطورية الملحمية الاغريقية، و«الريكفيدا» التي تمثل النتاج الأدبي عند قدامى الهنود،، و«الافستا» (الابتسان) التي تؤلف النتاج الأدبي عند الإيرانيين القدامى..

كل هذه المجموعات والتآليف الأدبية لم تكتب في صيغتها الحالية قبل النصف الأول من الألف الأولى قبل الميلاد، في حين أن أدبنا السومري المدون على الألواح يعود تاريخه إلى ما يقرب من ألفي سنة قبل الميلاد، أي أنه أقدم من تلك الآداب بما يزيد على ألفي سنة..»

يضاف إلى ذلك فرق حيوي آخر- يؤكد صموئيل كرايمر- وهو أن «نصوص التوراة والإلياذة والأوديسة والريكفيدا والافستا (الابستان)، كما هي بأشكالها الحالية قد طرأ عليها التعديل والتحوير والحذف والتنقيح، من قبل جامعي هذه المواد لشتى الأغراض والدوافع ووجهات النظر، ولم يكن أدبنا السومري كذلك، إذ إنه لا يزال محتفظاً بنصه الأصلي الذي كتبه الكتاب القدامى منذ أربعة آلاف سنة، دونما تحوير أو حذف أو تعديل..»

ولهذا السبب نستطيع القول– جازمين– يشدد كرايمر: «بأن القيمة الأساس للأدب السومري وأهميته الحقيقية بالنسبة للدراسات الإنسانية المتصلة به، قد أصبحت واضحة وجلية» (٢٤).

وإذا كان الأمر قد بلغ حد التأثر والتعالق والتخصيب حتى في «**التوراة**»، فهذا يدلل على ذلك الإرث العتيق العميق من الإبداع، الذي تركه الأسلاف في سومر وأكد وبابل لينهل منه الآخر، المجاور، أو الذي كان تحت ظل تلك الدول والممالك الكبرى التي امتدت من بلاد الرافدين، أو ما بين النهرين (العراق) كمركز للمملكة، إلى الأصقاع التابعة لها من أرض كنعان إلى فينيقيا، إلى أعالي الفرات في بلاد الشام، وإلى الذين تأثروا بدياناتها ومعتقداتها القديمة، **كاخناتون**، في مصر ، تأثراً **بالمندائية، الدين التوحيدي، الذي سبق اليهودية واليهود... كما سنرى.**

ولا يتوانى علماء اللغات القديمة عن إرجاع جذور اللغات **كلها (السامية) إلى جذرها العراقي**، وسنقيم مقاربة بين المندائية والسريانية. إزاء المعاني العربية في لاحق بحثنا هذا كجدول مشاهدة.

فهل كانت المندائية، هي العقيدة، واللغة، الأقدم تأثيراً على الديانات التالية وآدابها، كون الآرامية أخذت خصائصها القوية في كل صقع جابته، أو حلت به.؟

«لأن تسمية آراميين– كانت تشمل كل القبائل الساكنة قديماً في البلاد الفسيحة المحددة ببلاد فارس شرقاً، والبحر المتوسط غرباً، وبلاد الأرمن وبلاد اليونان في آسيا الصغرى شمالاً، وحدود جزيرة العرب جنوباً، كانت قاطبة معروفة ببني آرام والآراميين...» (٢٥).

على أساس أنَّ «**السامية**» من حيث الجوهر والمعنى تعادل «**العربية**»، بحسب د. **جواد علي**، الذي اعتبر «**العرب**» **هم أقوام شبه الجزيرة العربية كلها، والدليل على أن بلاد الشرق الأدنى كلها كانت تعرف كوحدة قومية واحدة، ترجع إلى أصل واحد، هو الأصل السامي– العربي.**

وقد قسم علماء اللغات **الأبجدية** التي تفرعت من **الكنعانية القديمة**، مثلاً، إلى مجموعتين رئيستين: المجموعة **السامية الشمالية**، والمجموعة «**السينائية**» **العتيقة**..

وسنرى لاحقاً ، كيف وصل «المندائيون» إلى «شبه جزيرة سيناء» وكيف دخلوا مصر، في الهجرات الأولى ثم. كيف أثَّروا على فرعونها «اخناتون» لأن يغير من عبادته، ليصير توحيدياً.

فإذا كانت المجموعة الأولى (السامية الشمالية) قد تفرعت عنها: الفينيقية والعبرية القديمة، والقرطاجية، والليبية. والآرامية: وفروعها النبطية والعبرية المتأخرة المعروفة بالمربع، والسينائية المتأخرة، والعربية، فإن (السينائية) (نسبة إلى شبه جزيرة سيناء) القديمة، التي تفرعت منها (السامية الجنوبية) و(السبئية) و(الإثيوبية) تفرعت منها أيضاً: المندائية! (٢٦).

وقد اختلفت الآراء في تعيين تاريخ كتابة طور سيناء أو الأبجدية الطور سينائية، البسيطة، مثلاً، إذ يعود تاريخها إلى العام ١٨٥٠ قبل الميلاد، في رأي بعضهم، في حين يرى الأستاذ طه باقر بأن تاريخ هذه الكتابة لا يتعدى النصف الثاني من الألف الثانية قبل الميلاد، لذا يعتبر علماء اللغات، بأن العربية هي أقربُ جميع لغات الساميين إلى (اللغة السامية القديمة)، كما أوضح ذلك العلامة أولسهوزن، وأكده الدكتور ولفنسن: إن العربية تمثل، إلى حد معين، «اللغة السامية النقية» لأنها حافظت على كونها اللغة الأم التي هي على الأقل: «الأقل تأثراً بالعناصر الاجنبية». وأياً كان قول المؤرخين «فمسألة الابجدية»- كما يراها العقاد- «من المسائل التي لا حاجة بها إلى التاريخ والرواية»، ويبرهن على ذلك «بأسماء الحروف وأشكالها ومعانيها» كونها «شاهدة بانتقالها من المصادر العربية، سواء كانت فينيقية أو آرامية، أو يمنية من الجنوب، «فالأبجدية التي تسمى عند اليونان «الفابيتا» وتبدأ بالألف والباء والتاء، ثم تتوالى فيها حروف كثيرة بلفظها العربي في العصر الحاضر على وجه التقريب، وليس لأسماء الحروف معان مفهومة في اللغة اليونانية، ولكنها بهذه الأسماء مفهومة المعنى في لغتنا العربية العصرية، فضلاً عن اللهجات العربية الغابرة، وأقرب هذه الحروف إلى المعاني العربية الشائعة في أيامنا، حرف الباء من بيت، وحرف الجيم من جمل، وحرف العين من عين، وحرف الفاء من فم، وحرف الكاف من كف، وحرف الميم من ماء، والياء من يد، وأشكالها المرسومة قريبة من أسمائها الأولى، كما يرى في شكل البيت وشكل رقبة الجمل وشكل العين وشكل الفم وغيرها من الأشكال...، فكلها

أوائل كلمات مفهومة من بقايا الكتابة التصويرية التي ترسم الشكل كله، وتأخذ من الكلمة حرفها الأول عند الكتابة بالحروف».

■ مقاربة لغوية، بين السريانية والمندائية بإزاء المعنى بالعربية، لإعطاء صورة عن (العلاقة) الجذرية للمندائية:

السرياني	المندائي	المعنى بالعربي
إليا	الا	مرتفع، المكان العالي، علا.
آلاها	آلاها	الله.
أطفا	أطف	العطف، والعاطفة.
أيّا	ايا	قراءة الياء مشددة، للنداء: (أيا جارةً لو تسمعين كلامي).
الما	الما	الكرة الأرضية، عالم كون.
اليها	الف	المتعلم، الذي يستطيع، بخاصة، قراءة حرف الألف.
أمّا	اما	العمة: المرأة الكبيرة في البيت.
أمّو	امو	عمو، عم الرجل الكبير، أو سيد البيت
آمين	أمين	استجابة للدعاء: آمين رب العالمين: تطلق أيضاً، صفة للإنسان الطيب، الأمين، المخلص في عمله.
أمَرَ	أمر	أمر: إيعاز، إصدار الأمر، آمر (أمير) الذي يصدر الأمر.
أمر	امر	العمر: عمر .. (السنوات التي يعيشها المرء).
اناشا	اناشا	ناس، أناس : مجموعة من البشر.
ناشوثا	ناشوثا	صفة الإنسان: ناسوي، ناساني، من الفضائل كالمحبة والإخلاص، إنسانوي، أيضاً.
امثا	انتا	أمة، مصحفة من: الأم، التي تنجب المجتمع.
انا	أنا	أنا، ضمير المتكلم.
انا	انا	عنى يعني، عناية بالشيء، عون، أي مساعدة.
ادما	آدم	آدم: أبو البشرية (مركبة من الآشورية: آ + دم = الدم الذي مزج مع التراب ليصير الانسان المخلوق.

السرياني	المندائي	المعنى بالعربي
بخ	اها	أخ، (اخوني = أخي) في المندائية يستبدل حرف. الخاء بالهاء: (اهوني) والحاء: ايا = اهب.
بخ	اها	جمعها في المندائية: أهي = اخوان، الاصح: أخ، اخواني، اخواتا = اخ، اخي، اخوان.
اصبا	اصبا	اصبع، وبالآشورية (اصيبا) تعني: متراصف، متسلسل. اشتقت من اصطفاف الاصابع باليد أو الرجل.
ابثر	اباثر	بأثر، يتبع، أو متسلسل من أثر، اتبع أثره.
ابد	ابدا	ابد، إلى الأبد، الآبدين.
أَبَدَ	أَبَدَ	عبد، عبادة، (المندائية والآشورية القديمة خالية من حروف العين مثل الانكليزية فتلفظ عبد: أبد.
سارا	سرا	القمر، سهرا، مدلول المعنى من السهر، الساهر.
اسوثا	اسوثا	الحرية، الصحة، السعادة، تلفظ: ازوثا = صفة للانسان الذي يتمتع بالصحة والسعادة.
اريايا	اريايا	عربي، والجمع أرباي بالآشورية والمندائية.
اصرا	اسرا	عشرة، (رقم عشرة).

ولا تكتب الأرقام عند الصابئة المندائيين عددياً، بل حروفياً مثل:

١- اهدى، أوهاد= واحد
٢- ترين: اثنين
٣- ثلاثا= ثلاثة
٤- أربا= أربعة..

همشا= خمسة
شتا= ستة
شبا= سبعة

هاد ايسار= احد عشر
تريسار = اثنا عشر
وهكذا........

الإحالات:

(١) يعتقد السيد سليم مطر في كتابه (الذات الجريحة)- اشكالات الهوية في العراق والعالم العربي (الشرقاني) ص ٣٠٠: بأن عبادة النجوم البابلية والروحانية العرفانية، القريبة من الميسحية، هما (دين) الصابئة المندائيين الذين سكنوا (جنوب العراق والاحوان).

والحقيقة أنَّ هذا اللبس وقع فيه آخرون، بسبب البدايات، حيث حمل لقب «صابئة حران» فئتان الأولى: حرانيون عبدوا الكواكب والنجوم، والأخرى: مندائيون هم من الأحناف، أي توحيديون يلتقي معهم إبراهيم الخليل (ع) في ملته التوحيدية، وقد وقف عند هذا اللبس طويلاً الأستاذان نعيم بدوي وغضبان رومي في مقدمتهما لترجمة كتاب الليدي دراوور: «الصابئة المندائيون». أنظر : الطبعة الثانية، بغداد، ١٩٨٧ (المقدمة وبخاصة ص ١٥، ١٦، ١٧).

(٢) الذات الجريحة، ص ٣٠٠-٣٠١ (اللغة المندائية الصابئية وأصلها الآرامي).

(٣) التعبير عن الفكر، الكتابة، أنظر: علوم البابليين ص ١٨-١٩.

(٤) Domitianus دوميسيان: امبراطور روماني، ابن فسبسيان وأخ طيطس، وقد ملك من سنة ٨١م وحتى وفاته.

(٥) علوم البابليين، نفسه، ص: ٢٠-٢١.

(٦) الليدي دراوور: الصابئة المندائيون، ص: ٥١- وما بعد.

(٧) Cambridge Ancient History Volume 3. P. 220.

(٨) دراوور: نفسة ص ٦٥- الترجمة العربية.

(٩) السابق، نفسه، ونجد ضمن هذه الأسماء اسم (اردوان) أيضاً.

أنظر: الملوك المسمين بهذا الاسم في «تاريخ البارثيين» لمؤلفه De Bevoise.

(١٠) دراوور: نفسه ص: ٧١، ٧٢،٧٣.

(١١) د. أحمد سوسه: مفصل العرب واليهود في التاريخ، دار الرشيد للنشر، بغداد، ١٩٨١، ص: ٣٦٣.

(١٢) نفسه، السابق، وأنظر: الدكتور أحمد شلبي، (مقارنة الأديان اليهودية)، ص ٢٦٦.

(١٣) نفسه، السابق، ص: ٣٦٨.

(١٤) أحمد سوسه: مفصل العرب واليهود في التاريخ، ط ٥، بغداد، دار الرشيد، ١٩٨١، ص: ٣٢١.

(١٥) أنظر: الدكتور علي عبد الوافي: (اليهودية واليهود)، ص: ٤٦، (سوسة: نفسة ص ٣٨٣).

(١٦) سوسة، ص ٤٢٥.

(١٧) أنظر التصوير رقم ٦٦، سوسة ص ٤٢٧، و:

The seal Cyliders Of Western Asia, 1910 W. H. Ward,

(١٨) ألواح سومر، «الأساطير السومرية»، الترجمة العربية ص: ٢٣٩-٢٤٠.

(١٩) مجلة سومر م ٥ (١٩٤٩)، ج. ح، ص ١٧٩-١٨٣ و ٢٠٣-٢٠٥.

SN. Kramer,"Sumerian Mythology" PP. 49 FF, 53 FF, and 101 FF

(٢٠) فرويد: «موسى والتوحيد»، الترجمة العربية، ص ١٦-٢٤.

(٢١) أنظر: سوسه، ص ٤٣٦.

(٢٢) ديوارانت؛ «قصة الحضارة» ج ٢، م١، ص ٣٦٨-٣٧٠.

(٢٣) اولبرات: «الشعب اليهودي قديماً وحديثاً»، ج١، ص : ٢٦.

(٢٤) صامويل كرايمر: ألواح سومر/ الأساطير السومرية، الترجمة العربية، ص: ٤٣-٤٤.

(٢٥) سوسة، المفصل..، ص: ٣٢١.

(٢٦) دليل الراغبين في لغة الآراميين، (القس متى الكلداني)، ص ٧.

٤

الخروج

«وكانت الأرض كلها لساناً واحداً ولغة واحدة»
(تك ١١:١)

في بحثه «نزهة المشتاق في تاريخ يهود العراق»[١] يشير يوسف رزق الله غنيمة، إلى ورود اسم (الكلدان) في مواضع عديدة من (الكتاب المقدس)، وبصورة مختلفة: (كاسديم/ كاشديم/ جسديم)، ونسبت إليهم (البلاد) الواقعة في جنوب شرقي بابل، على ساحل البحر، حيث كان يبتدىء الخليج العربي في ذلك العهد.

وكانت حاضرتها (بيت ياكين)، وورد اسمها في الرقم الآشورية: (مات تامتيم) أي: (أرض البحر). ويذهب العلماء إلى أن اسم (ارفخنشاد) (تك ١٠:٢٢–٢٤) و(١٠ و١١ و١١–١٢) تصحيف: «أريف كاسديم» ومعناه متاخم الكلدان أو «تخومهم»، فتكون بمعنى: «أرض الكلدان»، وأن (القبيلة) التي نزلت في (ارفخنشاد) اندفعت نحو الغرب، وبقيت في خطتها جيلاً بعد جيل، حتى بلغت (أرض شنعار)، وعبرت الفرات فوصلت مدينة أور وسكنت فيها أو حواليها، وكانت هذه المدينة– يومئذٍ– حاضرة ملوك شمريين (سومر).

ويقال إن إسم (الكلدان)، جاء من رجل إسمه (كاسد) (تك ٢٢:٢٢).

وقال بعض المحققين إن اسمهم: (كشديم) ومعناه: (الفاتكون) لأنهم غزاة، كما جاء في (سفر الملوك الثاني ٢٤ :٢): «فأرسل الرب عليه غزاة الكلدانيين».

وكما جاء في (سفر أيوب ١ :١٧): «الكلدانيون عينوا ثلاث فرق فهجموا على الجِمال وأخذوها». وقال فريق من الباحثين: إن هذا (الحرف) مشتق من (الكشد) ومعناه: الكثير الربح والكسب، وكان الكلدانيون يحبون الكسب والربح، ومن أعمالهم في أواخر عهدهم: العرافة والتنجيم والسحر «فأمر الملك بأن يُستدعى المجوس والسحرة والعرافون والكلدانيون» (دانيال: ٢ :٢). وقد ورد ذكرهم في «الكتاب المقدس» ذكر أمة ذات سلطان وشوكة تعيش في بذخ وترف، وقد استولت على الحكم في بابل.

جاء في (سفر اشعيا: ٢٣: ١٣): «ها هي ذي أرض الكلدانيين الشعب لم يكن ... الخ» و (١:٤٧):

«انزلي واجلسي على التراب ايتها العذراء ابنة بابل
اجلسي على الأرض بلا كرسي يا ابنة الكلدانيين
لأنك ،ولا تدَّعين، ناعمة ومترفهة..»

وهذا (سفر إرميا) مشحون بذكر الكلدانيين وجيش الكلدانيين، (٢١ : ٤): و «التي انتم محاربون بها ملك بابل والكلدانيين».

و (٢٥ : ١٢): «وأرض الكلدانيين»، و (٣٢ : ٢): «وصدقيا ملك يهوذا لا يفلت من يد الكلدانيين»، و (٣٢ : ٢٨): «ها أنا أدفع هذه المدينة إلى أيدي الكلدانيين».. الخ.

وقد دلت آيات الكتاب أن (لغة الكلدانيين) كانت الآرامية، فقد جاء في (سفر دانيال ٢ :٤): «فكلم الكلدانيون الملك بالآرامية».

وقصارى القول في الكلدانيين أنهم: (جيل من الناس ظعنوا بادىء ذي بدء إلى بلاد بابل الجنوبية)، ولم يطلق اسم (كلدة) على بابل باسرها إلا حينما أسس (نبو بولاصر) مملكة بابل الجديدة نحو سنة ٦٢٦ ق. م، فعم اسم (قبيلته) باسرها [٢].

– أما ديار بين النهرين، فهي: (Mesopotamia) كما أطلق عليها اليونان، وهي : (بيت نهرايا) كما سماها الآراميون،

أو : (آرام نهرائيم) كما جاءت في (الكتاب المقدس) وعند العبريين.

أو : (الجزيرة) حسبما عرفت عند العرب.

وكانت (حرّان) عاصمة بين النهرين يوم نزلها إبراهيم الخليل (ع) بعد ظعنه من أور (تك ١١:٣١). وإلى هذا الصقع توجه (العبد) ليخطب زوجاً لإسحق (تك ٢٤ :١٠).

وإذا كانت (بلاد كنعان) لليهود (أرض ميعادهم) وقبلة آمالهم وتعلة سعادتهم ومحط رحالهم بعد تيههم، فالعراق وطن أجدادهم، ومنشأ آبائهم، ومهد لغتهم، وأرض سبيهم، ومآبهم بعد خراب هيكلهم ودمار مقدسهم. وإذا كان (الأردن) نهرهم المبارك، ومياهه مطهرة عاهاتهم، فالرافدان نهران ذكرهما كتاب دينهم بين انهر الفردوس، كما أن ذكر (شنعار) وبين النهرين، وبابل وآشور، وبلاد ماذي وشوشن، هي في ذاكرة هذا الشعب، طالما يرى الكتاب المقدس بين ايديهم يتلون فصوله، صباح مساء، ويكررون آياته ليلاً ونهاراً، ويترنمون بأناشيده، ويتغنون بمزاميره على توالي الأيام وتعاقب المواسم.

لقد ورد ذكر تلك الأقطار في (سفر التكوين) و (الملوك) و (اشعيا) و (دانيال) و(استير) و(يونان) و(المزامير) وغيرها من الأسفار، ويتجدد ذكرها عند (تلمودهم) مخزن تفاسيرهم الدينية وكنز آدابهم القومية.

أما (أرض شمر وأكد)، فيطلق هذا الاسم على: (صقع بابل كله، فكان شماله يسمى في الأعصر الموغلة في القدم: أوري أو كيوري، ويظن أن سكانه كانوا من الشمريين (السومريين) وجنوبه يدعى كنكي.. وبعد ذلك العصر الغريق في التاريخ سمي الشمال: أكد، وكانت مدنه: أكد وسپار وكيش (تل الأحيمر) وأوبي (باحمشا) وكوثي وبابل.

وسمي الجنوب: شمر (سومر) ومنه: لجش (تلو) وشروباك (فارة) وأور واريدو وأوروك وأوما (جوخا) وآداب (بسمايا).

قال المؤرخ الكلداني (وبيروس): «كان بادىء ذي بدء في بابل حشد من الناس مؤلفاً من عناصر مختلفة، سكنوا بلاد كنعان».

وبيروس، عاش بعد المائة الثالثة ق. م، وفي عهد حكم اليونان على بابل، وكتب تاريخه باللغة اليونانية، وأودعه أخباراً جليلة عن تاريخ بابل القديم ومأثورات الكلدان، واسمه الآرامي: (بيراسيا) أي: ابن الطبيب.

- «وقال الرب، هوذا شعب واحد ولسان واحد» (تك: ١١ :٦).
- «فبددهم الرب من هناك على وجه كل الأرض» (تك: ١١ :٨).
- «ومات هاران قبل تارح أبيه في أرض ميلاده في أور الكلدانيين» (تك: ١١:٢٨).
- «وأخذ تارح إبرام ابنه ولوطاً بن هاران ابن ابنه وساراي كنته إمرأة

ابرام ابنه فخرجوا معاً من أور الكلدانيين ليذهبوا إلى أرض كنعان» (تك: ١١: ٣٢)

يقول ماتيو كولان:

«مئات الملايين من البشر يعترفون اليوم بإبراهيم أباً لهم في الايمان».

إنه إرث تقاليد دينية عمرها أجيال. وكذلك فعل الصابئة المندائيون: بآدم، وسلالته يعترفون، وبإبراهيم أباً.

إنه المصير الفريد لهذا الإنسان الذي يتيه تاريخه في غياهب الزمن، في حين- من المفروض- أن يكون: (الجد والمثال) في الإيمان، لكل من يؤمن بالإله الواحد.

يرد اسم إبراهيم ٧٥ مرة في العهد الجديد، ويرد اسم موسى ٨٠ مرة.

ويحصي المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، بأن القرآن ذكر (إبراهيم) بكونه اسم علم مستقل ٦٩ مرة، ولم يشر إلى اسم أبيه (آزر) إلا في أية واحدة وهي:

﴿وإذا قال إبراهيم لأبيه آزر أتتخذ أصناماً آلهة...﴾ [الأنعام: ٧٤]

لذا حاول أهل الأخبار والمؤرخون المسلمون البحث عن تفاصيل نسب إبراهيم (ع) في المصادر الإسرائيلية إذ لم يرد ذكر أجداده في القرآن الكريم، فقالوا بأن «إبراهيم- خليل الله- هو إبرام بن تارح (وهو: آزر) من ناحور بن ساروغ بن راعو بن فالخ بن عيبر بن شالح بن ارفكشاد بن سام بن نوح بن لامك بن متوشالح بن اخنوخ- وهو ادريس كما يزعمون- وكان أول بني آدم اعطي النبوة، وخط بالقلم، ابن يردْ بن مهللئيل بن قينان بن بانش بن شيث بن آدم.»(٣).

وقد حاول مفسرو القرآن الكريم التوفيق بين ما جاء في القرآن عن اسم أبي إبراهيم وما أُخذ عن التوراة، فذكر القرطبي أقوالاً متعددة كان أبرزها أنه كان لأبي إبراهيم اسمان: (آزر) و(تارح) مثل (اسرائيل) و(يعقوب) وهما اسمان لشخص واحد، أو اسمٌ ولقب، فكان أحدهما اسماً والآخر لقباً.(٤)

يؤكد د. جواد علي في سفره المهم «المفصّل في تاريخ العرب قبل الإسلام» أن عدد الرجال المعروفين الذين حملوا اسم «إبراهيم» لدى العرب في ذلك الزمان، بلغ ثمانية رجال، بل إن الرسول محمد (ص) قد سمى ابنه إبراهيم. وكان الأحناف في مكة وشبه جزيرة العرب يسعون للوصول إلى دين إبراهيم

والسير على هُداه في مجال العبادة، فقد ذكر ابن اسحاق أن نفراً من رجال قريش أحزنهم ما عليه قومهم من شرك وضلال، فقال بعضهم لبعض: «تعلموا واللّه ما قومكم على شيء، لقد أخطأوا دين أبيهم إبراهيم، ما حجرٌ نطيف به، لا يسمع ولا يبصر، ولا يضر ولا ينفع، يا قوم: التمسوا لأنفسكم ديناً، فإنكم واللّه ما أنتم من شيئ»، فتفرقوا في البلدان يلتمسون الحنيفية، دين إبراهيم(٥).

وتشير بعض المصادر إلى أن العرب قبل الإسلام حاولوا تخليد ذكرى إبراهيم ودمجها في طقوس عبادتهم الوثنية، فرسموا صورته على جدران الكعبة وهو يستقسم بالأزلام، فأمر الرسول محمد (ص) أصحابه عند فتح مكة سنة ٨هـ بمحوها، وقال: «قاتلهم الله جعلوه شيخاً يستقسم بالأزلام» (٦)

يقول الباحثون: ومن الأمور المقررة عندهم أيضاً، أن العرب لم يكونوا، قبل الإسلام، جيمعاً مشركين، بل كان بينهم من اعتنق الديانة اليهودية والنصرانية والصابئية.

ومن الطبيعي أن يكون ثمة حوار وتأثر وتأثير بين أصحاب الأديان المختلفة، فقد كان العرب على معرفة قبل الإسلام بإبراهيم وبنيه وبقية الأنبياء (٧).

ماذا جاء عن إبراهيم الخليل في التوراة، وكيف فسر الكهنوتيون واللاهوتيون خروجه والوعد؟ إذ عنه، قال يسوع: «إبراهيم أبوكم ابتهج حتى يرى يومي، فرأى وفرح» (يو: ٨ :٥٦) فكيف جاء ذكره في النصوص الكتابية، ثم في القرآن الكريم ولدى المفسرين الإسلاميين؟

النصوص الكتابية التي تخص إبراهيم هي الاصحاحات (١٢–٢٥) من التكوين، بل ينبغي البدء من (١١ : ٢٦)، وثمة إشارات في (تك ١:٢٦، ٢٧:٥ و ٣١:٤٩) (يشوع ٢٤ :٢–٣) ، (تحميا ٩ : ٧ :١)، (أخبار ٢٧:١)، (اشعيا ٢٩: ٢٢)، (سيراخ ٤٤ : ١٩ –٢٢)، (طوبيا ٧ :١٤)، (يهوديث ٨ : ٢٦ :١)، و(مكابيون ٢ :٥٢)، ويرد أحياناً مقروناً باسحق ويعقوب، بشأن المواعيد والنسل والقسم والعهد والدعوة والقربي من اللّه.

ان الأسفار (الدينية) هي كتب لها عمقها التاريخي، لكنها ليست كتب تاريخ، لأن هدفها تقديم فن الحياة لأناس من اللّه، وللناس فيما بينهم، ثمرات خبرات العهد.. في حين إذا كنا نحب الانطلاق من تاريخ حقيقي، أي من وقائع

ثابتة: جغرافية وزمانية، لابد من القول: إن إبراهيم عاش **قبل ثلاثة آلاف سنة في جنوب بلاد ما بين النهرين، (في: أور) تحديداً، المدينة الأثرية الشهيرة، وإنه صعد حتى أعالي بلاد ما بين النهرين عن طريق القوافل، كما كان يفعل البدو الذين كشفت التنقيبات في ماري والفرات الأوسط عن تحركاتهم.**

ولكن هل هذه هي رسالة إبراهيم؟

هنا سنتناول مسارين: الأول البحث العلمي عن الآباء، كما يقدمه اللاهوتيون، والثاني مؤسسا على ما جاء به المسلمون، عبر القرآن الكريم والحديث وتقصيات المؤرخين.

بدءاً، لابد من الاعتراف بأن حصيلة البحث العلمي عن الآباء تتفاوت؛ إذ يعتبر (**فيلهاوزن**) (J. Welhausen) (١٨٤٤ - ١٩١٨): أن سِير الآباء تمت بصلة إلى الموروث الشعبي (**الفولكلور**) المعاصر للكتبة الأوائل الذين عاشوا في عصر (**أور شليم**).

ثم حاول (**فون راد** Von Rad) و (**كونيكل** Gunkel) و(**نوث** Noth) أن يتلمسوا **عناصر تقليد شفهي أقدم.** وحاول غيرهم (**برايت**، Bright **وورايت** Wright، **والبرايت** Albright، و **باروت** Parrot، ودي **فوكس** De Vaux، وخورمي Dhorme أن يوفقوا بين المكتشفات الأثرية ومعطيات الكتاب المقدس من خلال وثائق (**ماري واوغاريت وأور**) من دون التوصل إلى شيء جازم.

غير أن هذا الإجماع تبدد في عامي ١٩٧٤-١٩٧٥ بسبب دراستي **تومبسون** Thompson **وفون سيترز** Van seters، وخلاصتهما أن (**سِير الآباء**) لا ترقى إلى (**تقاليد تاريخية**)، ولا يمكن معرفة شيء عن (**تاريخ إسرائيل**) قبل **القرنين** ٦-٧ ق. م.

ومن جملة أدلة هذين الباحثين، أن الكثير من (**العادات المحكية**) عن سير الآباء، هي ما نلقاه لدى شعوب الشرق الأوسط في القرنين ٦ -٧ق. م إنما لا ينبغي أن يعني بأن هذه (**العادات**) ليست (**أقدم**) من هذا التاريخ.

لذا أرجع **تومبسون** تاريخها إلى القرنين ٩-١٠ ق. م، وحق لدي بوري Pury De أن يقول إنها «**حكايات أقدمين**» (أساطير الأولين)، وإن إبراهيم واسحق ويعقوب ليسوا (**قادة**) ولا (**أبطالاً**) بل (آباء).

إنها (سيَر) تحدثنا عن (شيء آخر) غير التاريخ، أي عن (ايمان) الآباء!

وفي وسعنا الإفادة من الحوليات الآشورية والفرعونية، ووثائق ماري وأوغاريت وتل العمارنة وغيرها لمعرفة «تقاليد الآباء» (٨).

إن القصص الديني تشكل مقارباً للتاريخ، ولا يوجد شيء مثل «التاريخ الموضوعي».

وككل تاريخ، فإن خروج إبراهيم الخليل (ع) تأثر بوعي، أو بغير وعي، بعدة عوامل في اختيار المواد التي تضمنها، ذلك أن القصاصين الشفاهيين الذين يصوغون، بصيغ تقليدية، (خلاصة) الأحداث، ومجريات الأمور، في «أقاويل» و «حكايات» تحتل، أحياناً، مكانة «شبه رسمية» نظراً لأهميتها، حيث يسجل الساردون، ضمن تقاليد الكتابة آنذاك، البدء من الإقامة في أرض كنعان، باختلاف الأسباط والقبائل، ثم التحول إلى «ملوكية ثابتة» **(مع صموئيل وداود)**. والانقسام بين أسباط **الشمال وأسباط يهوذا**، ثم ما جرى من اضطرابات إثر **الحملات الآشورية واستعادة** السامرة عام ٧٢٢ ق. م، و**(السبي اليهودي)** إلى بابل، واعتلاء **(حزقيا)** العرش (٧٢٩ -٧١٦ ق. م)، ثم **حملات (نبوخذ نصر)** منذ العام ٦٠٥، **واسترجاع أورشليم** عام ٥٩٧ ثم عاد في العام ٥٨٧ السبي إلى بابل حيث كان **(حزقيال) مع المسبيين الأوائل**، ثم استيلاء **(كورش)** على بابل، وعودة اليهود إلى (أورشليم **عام** ٥٣٨ ق. م، حتى **اكتمال كتابة التوراة - أيام عزرا** ٣٩٨ ق.م - وهي كتابة (سياسية) **محرفة، تلغي دور ورثة إبراهيم الخليل وسلالته من إسماعيل، الذين يصيرون لاحقاً: ملة الحنفاء المسلمين.**

يتساءل عادة، باحثو «التوراة» وبخاصة **جوناثان ماكرنيت**- رئيس قسم دراسات الكتاب المقدس في كلية ليوبيك بلندن- في مقالته المنشورة في العدد الثالث والثلاثين من مجلة (Judaism) (٩).

«لماذا كثيراً ما لا نعلم شيئاً عن الخمس والسبعين سنة الأولى من حياة إبراهيم، أو عن العوامل التي أدت إلى دعوته بواسطة الله؟

وإلى أي طبقة اجتماعية ينتمي؟ وماذا كانت علاقتة بالقوى السياسية آنئذ؟».

إن تلك المسائل تثير الاهتمام، اليوم، كالتاريخ الاجتماعي والثقافي، والمعتبرة (غير ذات أهمية) عند أولئك الذين أتونا بالسرد القصصي، كان

اهتمامهم ينصب على شيء آخر، لأنهم، إنما كتبوا ما يمكن تسميته بـ «**التاريخ النبوي**» التاريخ الذي يحاول قراءة «**يد الله في الفاعلية الإنسانية**»! لقد صنعوا «اختيارهم»، الذي يعدوه مهماً، من الأساطير والقصص التقليدية، وشظايا السجلات المبكرة المتاحة لهم، وكانت «مكتوبة» و«متاحة» و«مشكلة» و«مضافة»- بطريقة حسنة- لتخدم «أهدافهم» باعتناء!

لذلك فان ما نقرأه ليس «التاريخ الحقيقي لإبراهيم» أو لسواه، لكنه «تفسير» ذو مغزى لأسباب عدة!.. بخاصة، إذا حاول (أولئك الكتبة) أن يكتبوا (**فقط**) عن «بني صهيون» (**بني اسرائيل**) و (دولتهم!) الشمالية! التي «**وهبها-الوعد**» أو «**عهد سيناء**» حيث (عُرف التاريخ الكهنوتي) كأنه (سياق) لعهود بل انه «سياق منسجم»:

«**العهد مع نوح**» بحسب (تك: ٩)، و«**العهد مع إبرام**» (تك: ١٧).. «**عهد سيناء**» وهو «**تجديد واكتمال للعهد**» (مز: ١٩ :٣-٨)، ونص (تك: ١٧) يقع في تضاد مع (تك: ١٥) باحدى (صياغات) التوراة (العهد القديم)، أو صياغة (**للعهد بين الله والأب إبراهيم**) حيث تصطدم بصياغة معقدة، وبثقل الأسلوب، والتكرارات، ضمن أحاديث الأربعة الموضوعة على «**فم الله!**».

يؤكد **ماتيو كولان**، معترفاً، بأن «**النصوص الكهنوتية هي ثمرة انعكاس جرى في مدرسة واحدة**» مؤيداً ما جاء به (ج. بريند) من أن «وحدة» تلك النصوص متأتية من «**إيمان لاهوتي**» أكثر من «**تأليف أدبي**»، فإن (**العهد الابراهيمي**) بحسب كتابة **بيريت**، أيضاً، هو نتيجة رد فعل «**لاجئي الشمال**» المؤمنين «**بمركزية العبادة**» في أورشليم، وباختيار «**بيت داود**» (**مقراً للملكية**)!... **إنها كتابة «كتبة بلاط» لضمان (حكم) شخص الملك!**

هذا (النص) تمت قراءته أثناء (السبي)، وجرى (**تأشير**) بعض العناصر والتأكيد أولاً على: عنصر ديمومة العهد، وعطية أرض كنعان، المهم بالنسبة للمسبيين في بابل، حيث (تتخذ) «مبادرة الله المجانية» و«**الالتزام الأحادي**» «**حناناً**» **عجيباً** «**للعودة**» **إلى** «**البلد المتروك**»، وفي التدبير العام (**للتدبير الكهنوتي**) نلقى العنصر النهائي الذي يجعل من (العهد) مع إبراهيم عهداً رئيساً لإسرائيل، ضامناً له (اختيار) الشعب، وعطية (**أرض كنعان**) تجاوزاً

للمستحيل على وفق الأدوار المعطاة (ساعة) قيام (عهد سيناء) (خروج ٣٢: ١٣-١٤، لاو ٢٦-٤٣، حز: ٢٠).

وهكذا يتضمن (العهد) ثلاثة (وعود): نسلاً غفيراً، الرب يكون إلهه، وعطية أرض كميراث دائم. وتؤكد (الآيات ١٥-٢٧) أن «**العهد محفوظ لاسحق ونسله، ولو أن إسماعيل هو غير منسي**» و«**سوف يتبارك في نسله**»، وما تحول (**الختان**) إلى اليوم الثامن (الآية: ١٢) المطبق على اسحق وحده (٢١-٤) إلا في **هذا المعنى**!

ويكشف (**العهد القديم**) بالآيات ١ و ٢ب و ٤-٦ (الاصحاح ٢٠) عن: «**تحقق الوعد منذ الآن. في شخص اسحق، الطفل الضاحك..**»

يتخذ تحقق (الوعد) بميراث الأرض في الإصحاح ٢٣، تجسده (**بفرصة وفاة سارة**)، **فشراء مغارة (المكفيلة) وإصرار إبراهيم على إعطاء ثمنها** (الآيتان ١٣ و١٦) **لعفرون الحثي** (الاسم الكهنوتي لسكان هذه البلاد) هو أول (**مستمسك للتملك**) (الآية: ٢٠) مع (الضمان)، نسبة إلى أهالي البلد (الشهود)، وما إلحاح (**النص**) على ذلك إلا لداعٍ قانوني، لا معنى له إلاّ إذا كان يعود إلى تقليد (**يقنع**) السامعين!

هناك، يدفن إبراهيم، أيضاً (٢٥: ٧٩ ب و ١٠) **كنوع من تملك حقيقي بقدر أكبر!!**

ماتيوكولان، يؤكد أيضاً، ما جاء في (تقاليد السبي) و(العودة)، إبراهيم في الحالين، وبأن (النصوص الكهنوتية) التي تذكر إبراهيم أيام السبي إلى بابل، (تكتب بانسجام) مع الأوساط الكهنوتية، ففي الاصحاح الثالث من (**حزقيال**)، وفي قول مؤرخ سنة ٥٨٦-٥٨٥ ق.م يتحدث (**النبي المسبي**) بلسان الباقين في القدس فيقول (الآيات ٢٣، ٢٤، ٢٥):

«**وتعلن كلمة الرب حكماً قاطعاً تماماً لكل من يبقى في أرض إسرائيل**».

إن (برهان) **أهالي يهوذا** هو (ذو معنى) فهم: «يستندون على ذكرى امتحان إبراهيم، وتملكه البلاد، إذ كان رجلاً أوحد، لاسند له، وببرهان دامغ، حتى يصلوا بكل حق إلى التأكيد على الاحتفاظ بتملك الأرض، لكن حزقيال يُنفذُ ذلك باسم الرب، بدون أن يعارض التفسير المعطى للعهد الإبراهيمي، لكن حزقيال يرفض بشدة إدعاء من يحتجون، بسبب «أفعالهم الأثيمة»، التي تعارض (تعليمات العهد).

سوف (يخدم) هذا التفسير بعينه «نبياً آخر» في «المنفى»، تلميذ مدرسة أشعيا، لكي يُشدد على مواطنيه وينتشلهم من (اليأس والجحود).

وتوجد «معجزة خلاص» في الاصحاح ٤١ تلخص أعمال الأب إبراهيم (الآيات ٨، ٩، ١٨). للتذكير بالامتحان، والدعوة، وهجرة إبراهيم، مما (يضمن) – مجدداً – بأن «الله يستطيع أن يأتي بإسرائيل مجدداً إلى الأرض».

ويرى بعضهم في «الوجه السري» لعبد الرب: اشعيا، (ملامح) إبراهيم الجديد– بحسب (ر. مارتن) و(آشرد)، إذ ثمة (مداخلات بين شهود اللّه) فهم ينتمون إلى (نظام الخلاص)، وإلى عهد مؤسس على استعداد مجاني (لانكوص عنه) تشمل اطالته الأمم، وكذلك الدعوة إلى شخص (العبد الفريد) يمكننا أن نلقي شعاعاً: شعاع مصير الأب إبراهيم.

يُنَظِّر «المعلمون» الكهنوتيون للخروج ، على أنه إختيار الله لإبراهيم، كي يصحب إسحق «ولده»، ويكوِّن (شعب الله المختار) على (أرض الميعاد) حيث يتحقق الوعد!!

ففي الفصل الثاني عشر من سفر التكوين: إبراهيم يتسلم دعوته، مع الكلمات العبرية: «ليخ لخا» (Lekh L' kha) وتعني حرفياً: «اذهب لأجل نفسك go For yourself» يختبر جوناثان ماكونيت (رئيس قسم دراسات الكتاب المقدس في كلية ليوبيك بلندن) (١٠) أهمية هذه الكلمات، معتبراً اياها جديرة بالاهتمام (الآن)، لأنها، أيضاً، قد وجدت في الاصحاح ٢٢ من التكوين، الذي يتحدث عن «ربط إسحق» حيث مَيَّز «المعلمون» بحسب ماكونيت، عادة بين الاصحاحين، وكوّنوا بوضوح (مجموعة من الأقواس حول حلقة القصص):

«عندما يصل إبراهيم إلى أرض الميعاد، يجد مجاعة، فيضطر إلى الذهاب لمصر، هناك يصرح أن امرأته سارة (ساراي) هي أخته– المصطلحة بـ «فكرة الزوجة – الأخت»، إذ نحن تجاهلنا– يقول ماكونيت– حقيقة أن الاصحاح (٢١) متعلق بإسماعيل وهاجر، فسنجد الاصحاح (٢٠)؛ الذي يسبقه يقول لنا أيضاً، عن موضوع (الزوجة – الأخت) ولكن في هذا الوقت عندما يزور إبراهيم أبيمالك (أبي مالك) ملك جرار، فهاتان الحكايتان هما من (القوس الداخلي) حول بقية القصص..

في الاصحاحين (١٣ ، ١٤)– يتابع ماكَونيت– قراءته بخصوص أبن أخي

إبراهيم: لوط، وكيف انفصل عن عمه، وذهب للعيش في سهل قرب سدوم، وعندما اشتعلت الحرب في المنطقة بين مختلف الملوك، خُطف لوط وأنقذ بواسطة إبراهيم الذي التقى ملك سدوم.

إذا نظرنا إلى المكان المقابل في النهاية الأخرى لدورة القصص، أي الاصحاحين (١٨ ، ١٩) فسنقرأ بخصوص انقاذ لوط من الخطر، وفي هذا الوقت يساوم إبراهيم لانقاذ مدينة سدوم ودمارها بعدئذٍ، لذلك (هذان الزوجان من الاصحاحات متماثلان في المواضع والمواقع)

لقد اقتربنا من مركز القصص، فالاصحاحان كلاهما (١٥–١٧) متعالق **بحوار اللّه مع إبراهيم، وإقامة العهد بينهما، (فقد صنع بواسطة وعد الله في الاصحاح ١٥ والمتبادل من خلال قبول إبراهيم للختان، علامة العهد في الفصل ١٧)**.

لذلك– يؤكد **ماكونيت**– (سيكون الفصل المركزي للدورة هو الاصحاح (١٦)؛ **قصة عقم (ساره) وحديث (هاجر) وولادة (إسماعيل). إن أهمية هذه** الأحداث ستفحص لاحقاً.

إذا نظرنا بعناية إلى الكلمة العبرية، فسنجد مرة أخرى أن كلمات: «**إذهبْ لأجل نفسك**» هي – بحسب المعلمين الكهنوتيين: «رجاءً خذ ابنك، وحيدك الذي تحبه، إسحق، و «**اذهب لأجل نفسك» بمعنى اذهب لأجلهم إلى أرض مورة وقدمه هناك ذبيحة!**» وهو، **كما يعرف المسلمون، تخريج مناقض لقصص القرآن، حيث الذبيحة (إسماعيل) وليس إسحق، ومع ذلك، يتخيل (المعلمون التوراتيون) الحوار بين إبراهيم الخليل والله تعالى على (الصورة) التي يريدون، ويهدفون!!**

فهم يعتقدون أن هذه الكلمات المفتوحة: «**اذهب لأجل نفسك**».. تترتب ببطء صعوداً نحو (**قصة عاطفية**) مرتبطة باسم (إسحق).. لقد أحس (المعلمون) بهذا، وبضمنهم (Rashi)– المعلّق الكتابي المشهور في العصر الوسيط – حيث سجلوا (رؤيتهم) لكلمات اللّه هذه، لقد (رأوا) – هنا– جزءاً واحداً من الحوار المسجل!..

(قال اللّه لإبراهيم «**رجاء، خذ ابنك**» فاستفسر إبراهيم عن أي منهما: «**لكن أنا لي ولدان!**»، فقال له اللّه «**وحيدك!**»، «**ولكن كلاً منهما هو الوحيد لأمه**»، ربما كان يخمن ما سيتبع ذلك، فقال اللّه: «الذي تحبه» فأجاب إبراهيم:

«لكني أحب كليهما»، وهكذا أصبح من الضروري أن يقول اللّه له الاسم: «إسحق!» وعندها لم يجاوب).

هكذا يضع (المعلمون!) الحوار (الناقص)- غير المسجل!!.

ويبدأ الاصحاحان الثاني عشر والثاني والعشرون (البداية) نفسها مع (**بناء عاطفي**) و(**دعوة مطابقة**): «**اذهب**».

إن عبارة «**ليخ لخا**» - العبرية- لا توجد في أي مكان آخر من (التوراة) و(المعلمون) يكتبون (بوضوح) عندما (يعلقون) على هاتين الدعوتين مع (المسارات المؤشرة) و(السهولة) الآتية من (المعرفة النهائية) للنص و(استعمالاته):

«أيهما كان الأكثر قسوة في: «**اذهب لأجل نفسك**»، الأول أم الأخير؟ يتساءل (**جوناثان ماكونيت**) ويعلق: «أساساً، يبدو أنه لا يوجد برهان، فمن المؤكد أن التضحية بالإبن الحي هي الأعظم، وشيء يبعث على الغرابة...»».

ويتساءل (مرة أخرى): «**الآن، ماذا كان القصد لدى إبراهيم من تخليه عن عائلته وبلده ودينه وكل شيء يمنحه الهوية كالمحبة والأمن في سبيل الذهاب بمغامرة مجنونة؟**» «لقد وجد (**دون كيشوت**) إن تلك **حماقة وخرافة** وهو في عمر **الخامسة والسبعين**، ولكن أن **يقتل أب ابنه وأن يضحي بماضيه أو بمستقبله؟ هل طلب اللّه استبدادي حقاً؟**» لو نقرأ الاصحاح (٢٢) لوحده، فسنستنتج أن اللّه (حاشاه) مجنون كإبراهيم الذي أطاعه! برغم ذلك ليس جديراً بالاهتمام ولن يساعدنا كثيراً كون (أول) كلمة له ليست إلزامية، بحسب الصياغة التعبيرية، العبرية: رجاء: (كلح-نا)، أي «**رجاءً خذ**» هو شيء للّه، وهو (طلب) غريب، فبخصوص أي شيء ، كل هذا؟.

ثمة جواب، يتماشى مع النواهي والأوامر في القرآن الكريم، **فاللّه يأمر، ولا «يرجو»**، في حين نجد الجواب المحتمل في (خلفية) (الكتاب المقدس/ التوراة) بالنسبة إلى دورة إبراهيم، اللّه خلق العالم ورأى ذلك حسن، لا زال آدم قمة وفخر كل خلقه، يؤكد إرادته مقابل اللّه، حالاً بعد إخراجه من الجنة (عدن)! أصبح (قايين) أول القتلة، ومن هناك يبدو أن (الصراع الشامل) أصبح (خاصية) خليقة اللّه، المزعجة!

(بأسف)- يقرر اللّه تدمير العالم بالفيضان (الطوفان)، ولكنه يصون شيئاً

من خلال شخص واحد، (نوح)، المختار، لأنه كان نوعية مستقيمة (تك ٦:٨ :٩)، لقد كان رجاء اللّه من خلال هذه الجودة أن العالم يمكن، حتى الآن، أن ينقذ، ولكن لم يحصل ذلك بسبب (انحدار) نوح: (**جلب اولئك الذين بنوا برج بابل!**)، عندما أعاد الإنسان تحدي السماء، لذلك (يبدو أن اللّه مازال يحاول أن يصقل خبرته).

«الآن، سينتقي شخصاً واحداً قبل أن يكون طفلاً، ويختبره، ويصقله، ليرى إذا كان (مادة صحيحة) ليبني عليها (النوع البشري)؛ إبراهيم، أيضاً، مثل نوح، هو مستقيم ويعلم اللّه أنه سوف (يسلم) هذه النوعية إلى ابنه (تك: ١٨– ١٩).

إن اللّه (سيعطيه) والمنحدرين معه (**قطعة صغيرة من الأرض**) (**جزءاً من الأرض**) (**عالماً صغيراً من الأرض**) ليخلق عليها (**شكلاً جديداً**) من (**الإنسانية والمجتمع**)، لذلك (**يأخذ**) إبراهيم (بعيداً) عن أرضه (أور الكلدانيين) ويعطيه (**أرضاً جديدة**) إنه يأخذه (**بعيداً**) عن عائلته، ولكن يعده أنه من خلاله «**ستتبارك كل قبائل الأرض**» (تك ١٢:٣).

يقول د. **يوسف حبي**: «نفهم من النصوص التوراتية أن تارح، والد إبراهيم، هو من مواليد سام، أحد أبناء نوح الثلاثة، وأن تارح عاش سبعين سنة، وولد إبرام وناحور وهاران، وأن إبرام اتخذ له زوجة هي ساراي» (١١).

وهناك روايتان، **واحدة تفيد بأنّ مبادرة الخروج من مدينتهم، أور الكلدانيين، والذهاب إلى أرض كنعان، واقامتهم في حاران**، هي من قبل (تارح) الأب، فهو الذي أخذ (إبرام) ابنه و(لوط) ابن ابنه هاران وساراي كنته امرأة إبرام ابنه، ومضى بهم من أور إلى **حاران** وأقاموا هناك، وكان عمر تارح يومذاك مئتي سنة وخمس سنين، ومات بحاران (تك ٢٦ : ١١ –٣٢).

أما **الرواية الثانية** (التوراتية). فتؤكد بأن مبادرة الانطلاق من أور إلى حاران هي من قبل الرب الذي قال لابرام نفسه: «انطلق من أرضك وعشيرتك وبيت أبيك إلى الأرض التي أريك، وأنا أجعلك أمة كبيرة، وأباركك وأعظم إسمك، وتكون بركة، أبارك مباركيك، وشاتمك ألعنه. ويتبارك بك جميع عشائر الأرض» (تك ١٢ :١ –٣). فانطلق إبرام، ومعه لوط ابن اخيه هاران، وكان إبرام يومذاك ابن خمس وسبعين سنة، غير أن انطلاقته هي من **حاران إلى أرض كنعان، ويقطع الله عهداً مع إبراهيم بأن يعطيه ولنسله الأرض من نهر**

مصر إلى نهر الفرات الكبير. (تك ١٥ :١٨). وأنه سيكون أبا جمهور أمم، ويكون إسمه إبراهيم، واسم امرأته سارة، ويكون الختان علامة العهد. (تك ١٧).

ويطرح الباحث عدة اسئلة تقتضي إجابات ليست بالهينة، منها:

- أحقاً إن أصل إبراهيم من أور، وهل أور هذه هي أور الكلدانيين في جنوب العراق؟

- هل يوجد انطلاقتان، واحدة من أور على يد والد إبرام- إبراهيم، والثانية من حاران، على يد إبراهيم نفسه بدعوة من اللّه؟

- ما معنى العهد الذي قطعه اللّه مع إبراهيم، وما علاقته بالإيمان وأبوّة إبراهيم للمؤمنين باللّه الواحد؟

ويجيب الباحث، بأن نشأة إبراهيم هي في «أور الكلدانيين»، أو كان موطنه الأصلي منها- على حد تعبير التوراة- حيث جاء في (قاموس الكتاب المقدس)(١٢) تحت لفظة (أور الكلدانيين) ما نصه: وهي مسقط رأس إبراهيم النبي ولد ونشأ فيها ولكنه خرج منها إطاعة لدعوة الرب وذهب إلى حاران ومنها ذهب إلى كنعان، (تك ١١ :٢٦ و ٣١ و١٥ : ٧ ونحم ٧ :٩) ومكان أور اليوم خرائب تدعى (المغيّر).

و(المغيّر) هي (المقيّر) إذ يلفظ أهالي المنطقة القاف غيناً وبالعكس، تقع على بعد ١٥كم جنوب غربي مدينة الناصرية ونهر الفرات، في منطقة تعرف اليوم بـ «المغيّر»، شرقي (تل العبيد)، وإلى الشمال الغربي من بلدة (سوق الشيوخ)، والشمال الشرقي من بلدة (أبو شهرين) وهي (أريدو) القديمة، تقوم «أور» التي كانت مركزاً عظيماً للحضارة السومرية، وعاصمة ثلاث سلالات حاكمة ابتدأت منذ ٢٨٠ سنة ق. م وحتى القرن ١٨ ق. م.

أما حاران، فمدينة من مدن بلاد بين النهرين، تقع على نهر بليخ، وهو فرع للفرات، على مسافة ٢٨٠ ميلاً إلى الشمال الشرقي من دمشق، وكانت مركزاً تجارياً لوقوعها على أحد الطرق الرئيسة بين بابل والبحر المتوسط- وأن اسم حاران نفسه قد يكون من أصل أكدي (وقد نقول اليوم ابلي، والابلية، والأكدية على تماس كبير) الأمر الذي يعزز صلتها بأور، مع محاولة مدها إلى بيئة آرامية، وكذلك عبادة القمر (سين).

وكنعان هي الأرض التي سكنتها ذرية كنعان بن حام الرابع (تك ١٠، ١،٦؛

أخبار: ١ :٨)، واستولى عليها العبرانيون بعدئذ (خر ٦ :٤، لا ٢٥ :٣٨) حدودها القديمة مدخل حماة شمالاً، وبادية الشام والعرب شرقاً، وبادية العرب جنوباً، وساحل البحر المتوسط غرباً، وهي التي باسم أرض الميعاد، الأرض المقدسة، اسرائيل وهي: **فلسطين**، وقد ورد ذكر كنعان في الوثائق البابلية والمصرية منذ الألف الثالثة قبل الميلاد.

وقد كان نظام الحكم في بلاد سومر متمثلاً في دويلات مدن مستقلة الواحدة عن الأخرى يخضع حاكمها الخاص لسلطة إله المدينة الرئيس، لأنه إنما يدّبر مدينته نيابة عن الإله.. وكانت السلطة العليا، في الأغلب، بيد مجلس عام، على رأسه حاكم، وكان لكل مواطن حق الكلام، ولا سيما من هم أكبر سناً، يختار من بينهم «مشرعو القوانين». وكانت السلطة المدنية عادة بيد الكهان، لا سيما في الدويلات الصغيرة، حتى جرى التمييز بين السلطتين حين اتسعت الدويلة وكثرت المهمات، وانفصل الحاكم المدني في قصر خاص هو غير المعبد الذي بإدارة الكاهن، وظل الحكم الأخير بيد الآلهة، وتمكن السومريون، مع مر العهود، من تكوين امبراطورية سومرية في عهد «أورنمو» الملك (٢١١٣–٢٠٩٥ ق. م) صاحب أول شريعة معروفة في العالم.

ويقع قصر الملك (اورنمو) شرقي الزقورة، بينما ترتفع المعابد في قلب المدينة، والزقورة على مقربة منها، ومن المعابد معبد دب– لال ماخ، كما نلقى في المدينة الأثرية مباني أخرى من العهد البابلي،

ويشاهد في القسم الجنوبي من المدينة حيّ سكني فيه دور ترقى إلى عهد لارسا (نحو ١٨٠٠ ق. م) من بينها بيت يدعى (**بيت إبراهيم الخليل**) – كما سماه السير **ليونارد وولي، منقب أور مدة ١٢ سنة** (أنظر كتابه: L. Wooley, Excavations at Ur).

هذه، كانت بلاد «أبينا إبراهيم» والبيئة الحضارية والدينية التي نشأ فيها، بل إن عهده اتسم بازدهار ورقي وحضارة لم يشهد العالم القديم، في أي مكان آخر، ما يضاهيها، فهو عهد الملك حمورابي (١٧٩٢–١٧٥٠ ق. م) المشرّع العظيم والحاكم القوي العادل، وفيه نشأت وتبلورت أسطورة كلكامش، ونشأت أسطورة اتراخاسيس، وهو في مصر المرحلة الانتقالية الثانية المسماة (الهكسوس). يؤكد د. حبي، على توسع البيئة (هذه) على خلفية (العبرانيين) الذين تريد التوراة إرجاعهم بشكل أو بآخر إلى إبراهيم، (وهنا أيضاً يختلف

العلماء في تحديد الأصل أثنياً، بل بعضهم يعد العبرانيين شريحة اجتماعية أكثر من شعب خاص).

ومهما يكن من أمر فإنه لابد من التذكير بأن حياة إبراهيم تقتضي تعرّفاً على بلاد ما بين النهرين بأكملها، وبلاد الشام، وفلسطين، ومصر، كما على شعوب هذه المنطقة الواسعة وحضاراتها، فلهذا كله علاقة بإبراهيم، لأن بعض (المجتهدين) في العقود الأخيرة شككوا في الأمر، وحاولوا إحتواء «أور» ضمن «الأراضي المقدسة» من بلاد فلسطين، ولعلهم انساقوا إلى ذلك (دينياً) أكثر من توجهم توجهاً علمياً بحتاً، وانطلق غيرهم، من المؤرخين الآثاريين الحضاريين إلى تحديد المنشأ الإبراهيمي في حاران، أو في كنعان، دون استبعاد بلاد سومر كموطن أصلي له، مع تأكيدهم على وحدة المنطقة ككل، وتقارب البيئة بين جنوب بلاد ما بين النهرين وأعاليها واستمرار التواصل الحضاري في المنطقة.

ويقول السير ويليم ويلكوكس: «ومن المحقق أن إبراهيم، الذي كان يسكن في أور الكلدانيين، كان يعرف الأساطير السومرية المتعلقة بالخليقة والطوفان، كما أن موسى الذي مكث بين المديانيين مدة أربعين سنة لابد أن يكون قد رحل إلى أور نفسها مراراً عديدة وسمع أخبار السومريين وقرأ أساطيرهم في مكتباتهم، وذلك لأن خيام الميديانيين كانت تمتد من خليج العقبة إلى جنوب دلتا الفرات» (من جنة عدن إلى عبر نهر الأردن، ص ٤٠)

إذاً: **إن الموطن الأصلي لإبراهيم هو أور الكلدانيين، وإنه عاش في كنعان، ولحرّان في حياته أثر،** ايضاً. وقد أثبتت الاكتشافات الأثرية والتاريخية الأخيرة حقيقة (إبراهيم) للأسباب التالية:

- إن اسمه ورد في ديار المشرق (العالم الإسلامي) في الألف الثاني ق.م، ويرد بصفة اسم شخص، ويأتي إبرام عادة كاختصار لابيرام، بمعنى «**أبي إرتفع أو كبر**» بحسب روبرت مارتن اجارد (Actualite d' ABRAHAM 11-12).

وليس تحرك أهل إبراهيم من الجنوب نحو الشمال بظاهرة غريبة في تلك العهود، كما يؤكد كوبر، وأندريه بارو، الذي يقول بأن البنياميين سلكوا طريقاً مماثلاً تماماً لرحلة أبينا إبراهيم، إضافة إلى (كون) أور– وحاران– مركزين تجاريين ودينيين كثيراً ما تبادلا العلاقات، وتركزت ديانة الأهالي في المدينتين على الإله سين (القمر).

ويعزز الرأي الآخذ بـ (عراقية) إبراهيم، خط الرحلة الذي سلكه إبراهيم من أور إلى حاران فأرض كنعان، سواء من خلال موقع إبراهيم في بابل القديمة، (الحلة في أيامنا) وكما من (موقع)– مقام– إبراهيم الخليل على الحدود العراقية التركية (قرب الجسر الواقع في منطقة زاخو على الخابور، أي في المثلث العراقي– السوري– التركي).

ربما كان ترحاله أو ترحال ذويه بدافع التجارة، أو لجفاف أصاب جنوب العراق، أو لأسباب سياسية، ويأتي (مرقد) إبراهيم الخليل (ع) في مدينة (الرها) شاهداً آخر يؤكد حضور إبراهيم في بلاد ما بين النهرين من أقصى الجنوب إلى أقصى الشمال، والعلاقات المستمرة التي كانت قائمة بين الأطراف والناس..

يؤكد الباحثون، بإجماع ، بأن (آباء) إبراهيم كانوا يعبدون آلهة متعددة، وأن إبراهيم آمن بالله الواحد، وأن أول إعلان واضح لإيمان البشر بالله الواحد، إنما حصل في سومر، جنوبي وادي الرافدين، البلد الذي خلق، بلا ريب، أجواء ملائمة لإبراهيم ليبلغ إيماناً توحيدياً: «فآمن إبراهيم بالله فحسب له برّاً» (يع: ٢ :٢٣). ولم يكن إيمانه اعترافاً بالله الواحد العلي السرمدي الأبدي، فحسب، بل كانت لإبراهيم علاقة (شخصية) وإيّاه، و(شركة روحية) وثيقة، حتى أنه نال لقب «خليل الله» (٢ أي: ٢٠ :٧) و (يع: ٢ :٢٣) (١٣).

يقول الأب يوسف حبي: «وليس التقليد الإسلامي بمختلف عن فحوى الدعوة الإبراهيمية، وإن كانت هناك معطيات متباينة بين ما تقدمه التوراة وأسفار الكتاب المقدّس الأخرى من جهة، وما يقدمه الإسلام، سواء في القرآن أو الحديث، فالاتفاق قادم من منطلق تصميم إلهي تتجلى من خلاله مبادرة الله بشكل مباشر أو عن طريق نبي أو مرسل أو بشير، يشركهم رسالته ليحملوها للبشر، ومنهم إبراهيم، الذي يحتل – بحسب محمد حميد الله – مكانة مرموقة في الاسلام.»(١٤).

حاول المؤرخون المسلمون تقديم معلومات متضاربة، وإن كان بعضها مقرباً، عن (المكان) الذي ولد فيه إبراهيم الخليل (ع) والعصر الذي عاش فيه، فقد أورد الطبري– مثلاً– (عدداً من الأقوال) حول (الموضع) فقال:

«وقال بعضهم: كان مولده بالسوس من أرض الأهواز.

وقال بعضهم: كان مولده ببابل من أرض السواد.

وقال بعضهم: كان بالسواد بناحية كوش.

وقال بعضهم: كان مولده بالوركاء بناحية الزوابي وحدود كسكر، ثم نقله إلى الموضع الذي كان به نمرود من ناحية كوش.

وقال بعضهم: كان مولده بحرّان، ولكن أباه (تارح) نقله إلى أرض بابل» (١٥)

أبوه «تارح» أو «عازر» يعمل في خدمة الملك ببابل، وقد كان إبراهيم الشاب يرى في النجم والقمر والشمس آلهة، حتى فطن إلى نفسه، وكان من بين القوم من هو توحيدي، كالمندائيين، وربما تحاور معهم، لأنهم (أحناف) أيضاً، لكن بعضهم يعبد (سن) إله القمر، أيضاً.. وعزف إبراهيم عن عبادة الأصنام، أو الكواكب، بل آمن بالخالق الواحد الأحد، وكان عليه أن يجاهر بهذا الإيمان ويدعو له، وكان عليه أن يتحمل العذاب والألم بسبب إيمانه التوحيدي، إذ يضع الإسلام تضحية إبراهيم في بابل أو كلدة، في حين يجعلها أهالي الرها في كنعان، إلاّ أن الحطب لم يحترق، فيخرج إبراهيم سالماً، وتحصل بينه وبين ملك بابل (محاورة إيمانية) يضطر بعدها إلى تحمل المنفى، لأن «الملك» لا يتيح لإبراهيم التعبير عن (معتقده) الجديد، فيغادر ومعه لوط، إلى بلاد الشام. وكانت تابعة للعراق: لوادي الرافدين- متغرباً عن أرض الكلدانيين موطنه، وبسبب مجاعة حصلت هناك، يلجأ إلى مصر، ثم يعود ويتزوج (الأَمَة: هاجر) فتلد له إسماعيل الذي نلقاه أخيراً في مكة، حيث يشيد الكعبة التي كان الطوفان محاها. (١٦).

إذاً فإن أغلب الروايات تشير إلى أن إبراهيم (ع) قد ولد في أرض السواد من جنوب العراق في عهد (نمرود بن كوش) الذي كان يحكم ذلك الاقليم، في ذلك الزمان.

ورغم ذلك، ثمة من يختلف مع تلك (الأغلبية.) فالدكتور كمال الصليبي، توصل - حين كان أستاذاً في الجامعة الامريكية ببيروت - إلى أن «إبراهيم لم يعش في العراق أو فلسطين، بل عاش في منطقة عسير في الجنوب الغربي من شبه الجزيرة العربية». (١٧)

كما أن ولادته، بحسب التاريخ الميلادي، كانت في حوالي سنة ١٨٦٦ ق.م، أي بعد خلق آدم بـ ١٩٠٦ سنة(١٨).

«ذكر حمزه الأصفهاني أنه لقي في بغداد رجلاً من علماء اليهود في سنة

٣٠٨هـ، فأخذ عنه الأخبار عن عمر الدنيا، وأعمار الأنبياء، وكان مما ذكره: إن عمر إبراهيم (ع) إلى أن ولد له إسحاق مائة سنة، ومن ذلك الوقت إلى أن مات خمس وسبعون سنة، أي أن إبراهيم قد عاش ١٧٥ سنة، كما ذكر أن عمر العالم منذ خلق اللّه آدم (ع) حتى هجرة الرسول محمد (ص) للمدينة المنورة: ٤٣٨٢ سنة، وإن إبراهيم قد ولد بعد خلق آدم بـ ١٩٠٦ سنة».

إن نصوصاً قرآنية عديدة تنعت إبراهيم بأبي المؤمنين، كما يسمى أبا ضيفان، لضيافته الشهيرة التي تذكرها التوراة، وفي القرآن، أيضاً، ذكرٌ لكتاب منسوب إلى إبراهيم.

كيف نظر القرآن إلى إبراهيم (ع)؟ وماذا جاء فيه على لسانه؟

■ عبادة الله الواحد:

- ﴿يا قوم إني بريء مما تشركون إني وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين﴾ [الأنعام: ٧٨-٧٩]

- ﴿إذ قال لأبيه وقومه ماذا تعبدون أإفكا آلهةً من دون الله تريدون فما ظنكم برب العالمين فنظر نظرة في النجوم فقال إني سقيم فتولوا عنه مدبرين﴾ [الصافات: ٨٥-٩٠]

- ﴿واذْكر في الكتاب إبراهيم إنه كان صديقاً نبياً إذ قال لأبيه يا أبتِ لم تعبد مالا يسمع ولا يُبصر ولا يغني عنك شيئاً...﴾ [مريم: ٤١-٤٢]

- ﴿إذ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين، قال لقد كنتم أنتم وآباؤكم في ضلال مبين قالوا أجئتنا بالحق أم أنت من اللاعبين قال بل ربكم رب السموات والأرض الذي فطرهن وأنا على ذلكم من الشاهدين وتالله لأكيدن أصنامكم بعد أن تولّوا مدبرين﴾ [الأنبياء: ٥٢-٥٧]

- ﴿فاسألوهم إن كانوا ينطقون﴾ [الأنبياء: ٦٣]

هذه الآيات تتدرج بالمفاهيم، بدءاً من البراءة من الشِرك، وإدانة عبادة الأصنام التي لا تسمع ولا تبصر، ومخاطبته قومه في تسفيهها، مما سبب (معاقبته) بحرقه في النار:

- ﴿قالوا حرِّقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين قلنا يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم وأرادوا به كيداً فجعلناهم الأخسرين﴾ [الأنبياء ٦٨-٧٠]
ويأتي ذات السرد والتأكيد في(سورة الصافات: ٩٧-٩٨).
حينذاك يأتي الخروج، الهجرة، أو النفي، بعد نجاته من (القوم المشركين) وملكهم:
- ﴿ونجيناه ولوطاً إلى الأرض التي باركنا فيها للعالمين﴾[الأنبياء: ٧١]
وأكد القرآن ديانة إبراهيم: ﴿وقال إني ذاهب إلى ربي سيهدين﴾[الصافات: ٩٩]
وملته: ملة إبراهيم ﴿كان حنيفاً وما كان من المشركين﴾ [آل عمران: ٦٧]
ذكر القرطبي، ليس المقصود - هنا: حنيفاً مسلماً - الإسلام بتفاصيله وأحكامه التشريعية المعروفة اليوم، وإنما هو الخضوع والاستسلام لأوامر اللّه تعالى وحده، فالمسلم، بحسب هذا المفهوم، أو التعريف، هو كل من آمن باللّه واستسلم استسلاماً كاملاً لأوامره ونواهيه.
والحنيف: أي المائل عن عبادة الأصنام - الشِرك - إلى عبادة اللّه وحده:
﴿إذ قال له ربه أَسلِم قال أسلمت لرب العالمين ووصّى بها إبراهيم بنيه ويعقوب يا بنيّ إن اللّه إصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون﴾ [البقرة: ١٣١:١٣٢]
وقد أكد القرآن الكريم في عدة آيات بأن إبراهيم (ع) كان نبياً اصطفته العناية الإلهية لحمل رسالة التوحيد إلى قومه، وأن الوحي قد نزل عليه من السماء، وأن تعاليم رسالته كانت مدونة في صحف شبيهة بصحف النبي موسى (ع):
(سورة مريم: ١٩، سورة الحديد: ٢٦، سورة الأعلى: ١٩، سورة آل عمران: ٨٤، سورة النساء: ٦٣).
ذكر القرطبي أن صحف إبراهيم كانت (أمثالاً) كلها، وهي ذات طبيعة عقلية تأمر بحسن التصرف والسلوك، نحو قوله:
«على العاقل أن يكون بصيراً بزمانه، مقبلاً على شأنه، حافظاً لسانه، ومن عد كلامه من عمله، قل كلامه إلاّ فيما يعنيه» (١٩)
أما الوحي:
﴿وإذ قال إبراهيم ربّ أرني كيف تحيي الموتى قال أو لم تؤمن قال بلى ولكن

ليطمئن قلبي قال فخذ أربعة من الطير فصرهُنَّ إليك ثم اجعل على كل جبل منهن جزءاً ثم أدعهن يأتينك سعياً واعلم أن اللّه عزيز حكيم﴾ [البقرة: ٢٦٠].

ذكر القرآن الكريم أن اللّه كان يرسل إليه ملائكة في هيئة بشر، وكان يتحدث إليهم كما يتحدث مع البشر، ولكن هؤلاء الملائكة لم يكونوا ينقلون إليه تشريعات دينية، وإنما كانوا يتحدثون معه عن أعمال أمرهم اللّه أن يقوموا بها، أو يزفوا له البشرى السارة حيث أراد اللّه أن يرزق زوجته العاقر صبياً (سورة الصافات، الآيات من ١٠٢-١٠٧).

وكان إبراهيم يتلقى الوحي، أيضاً، عن طريق (الرؤى) التي يراها في المنام، وكان يعمل على تنفيذها، لأنه يراها أوامر إلهية واجبة التنفيذ، وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه الحالة عندما تحدث عن محاولة إبراهيم التضحية بابنه لأنه رأى في المنام أن يقوم بذبحه (كما بينت سورة هود في الآيات ٦٩-٧٦).

- وعزز القرآن بأن إبراهيم (ع) لم يكن يهودياً ولا نصرانياً، وإنما كان (حنيفاً مسلماً) (سورة البقرة: ١٣٠-١٤٠) و(سورة آل عمران: ٩٥)

وقد عزز هذا التأكيد بالاشارة إلى أن إبراهيم (ع) قد عاش قبل موسى وعيسى (ع) بزمن طويل، أي قبل أن تظهر الديانة اليهودية والنصرانية - (كما جاء في سورة آل عمران، الآيات ٦٥-٦٨). والحقيقة أن تأكيد القرآن لهذه الحقيقة هو صدى لما كان يدور في عصر الرسالة من جدل بين المسلمين وأهل الكتاب، وبخاصة اليهود، الذين كانوا يدعون أنهم على ديانة إبراهيم ومن ذريته، ويتخذون من هذه الدعوة وسيلة للتعالي على العرب وغيرهم من الأقوام الجاهلية في نظرهم، (٢٠) في حين لم تشر المصادر إلى (تعالي) **الصابئة المندائيين، الذين سبقوا إبراهيم (ع) في التوحيد، ولم يتجاهلهم** القرآن الكريم. أما الأبناء والأسباط، فجاء في القرآن الكريم على لسان إبراهيم (ع) قوله تعالى:

- ﴿**الحمد لله الذي وهب لي على الكبر إسماعيل وإسحق**﴾ [إبراهيم: ٣٩].

- ﴿**قالت يا ويلتي أألد وأنا عجوز وهذا بعلي شيخاً إن هذا لشيء عجيب قالوا أتعجبين من أمر اللّه**﴾ [هود: ٧٢-٧٣].

إذا كانت سارة (ابنة هارون) عاقراً، صحبت إبراهيم (ع) في هجرته من أور الكلدانيين – إلى أرض حرّان، وزوَّجَتْهُ من أَمَتها «هاجر» وقالت:

«**إن اللّه عز وجل قد حرمني الولد فادخل بأَمَتي لعلنا نتعزى منها**».

وقد رزق إبراهيم (ع) من (هاجر) بولده البكر: **إسماعيل**، وكان له من العمر ست وثمانون سنة [21].

ويذكر (ابن قتيبه) أن إبراهيم (ع) تزوج بعد موت (سارة) إمراةً من الكنعانيين يقال لها (**قطورا**)، فولدت له أربعة أبناء، ثم تزوج أخرى يقال لها (**حجورا**) فولدت له سبعة نفر، فكان جميع ولد ابراهيم **ثلاثة عشر رجلاً**[22].

وكانت وصية إبراهيم لبنيه:

﴿**ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب يا بنيّ إن اللّه اصطفى لكم الدين، فلاتموتن إلاّ وأنتم مسلمون أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدي قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسمعيل وإسحق إلهاً واحداً ونحن له مسلمون**﴾ [البقرة: ١٣٢–١٣٣]

ولم يشر القرآن الكريم لوجود أخ ليعقوب، ربما لعدم وجود دور ديني أو رسالي له ولذريته، إلاّ أن المصادر الإسلامية اللاحقة تحدثت عنه معتمدة في ذلك على الأخبار الإسرائيلية، فذكر (ابن قتيبه): إن (**رفقة**) **بنت ناحور زوجة إسحق ولدت له ولدين توأم هما: (عيسو) و (يعقوب)، وقد اشتهر (يعقوب)**[23] **باسم (إسرائيل) وهو يعني بالعبرية: عبد اللّه** [24]

وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه التسمية ليعقوب في آيتين هما (سورة آل عمران: ٩٣ وسورة مريم: ٥٨)، كما تحدث عن ذريته في آيات كثيرة باسم (بنو إسرائيل)، وقد عرف أبناء يعقوب المباشرين باسم (الأسباط) وعددهم اثنا عشر سبطاً، كما جاء في القرآن الكريم (سورة الأعراف: ١٦٠) وقد أوضح (القرطبي) أن الأسباط هم أولاد يعقوب، وهم اثنا عشر ولداً، ولكل منهم (أمة من الناس) وأحدهم (سبط)، والسبط في (بني إسرائيل) بمنزلة القبيلة في ولد إسماعيل [25].

– ويستنتج مما أورده القرآن أن هؤلاء الأسباط كانوا أنبياء، شأنهم في ذلك شأن أبيهم وجدهم:

﴿**قولوا آمنا بالله وما أُنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسمعيل وإسحق**

ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون﴾ [البقرة: ١٣٦]

- لجأت بعض المصادر الإسلامية إلى مصادر أهل الكتاب للتعرف على هؤلاء الأسباط، فذكر الطبري أن أولاد (يعقوب) وهو (إسرائيل)، الإثنا عشر هم: **روبيل، وشمعون، ولاوي، ويهوذا، وزبالون، ويسحر، ويوسف، وبنيامين، ودان، ونفثالي، وجاد، وآشر** (٢٦).

وأسكن إبراهيم (ع) ابنه إسماعيل بمكة كدافع ديني لبناء «بيت اللّه»

﴿ربنا إني أسكنت من ذريتي بوادٍ غير ذي زرعٍ عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون﴾ [إبراهيم: ٣٧]

ذكر الطبري أن إسماعيل وأمه (هاجر) عاشا إلى جوار قبيلة عربية من (جرهم) جاءت واستقرت معهما عند بئر زمزم، فلما أصبح إسماعيل في سن الزواج وتزوج امرأة منهم. ثم أنَّ هاجراً توفيت، وبقي إسماعيل مع زوجته العربية من جرهم. وقد اكتسبت بحكم النشأة والتربية لغة العرب وعاداتهم، وكان إبراهيم (ع) يتردد على مكة في أوقات متباعدة لزيارة ابنه والاطمئنان على أحواله، حتى أمره اللّه بالعمل مع ابنه على تجديد قواعد المسجد الحرام ودعوة الناس للحج إليه.

وإن الاخباريين أشاروا في رواياتهم إلى أن إسماعيل رزق من زوجاته العربيات باثني عشر ولداً هم: «**نابت، وقيدر، وأدبيل، وميشا، ومسمع، ودما، وماس، وأود، وطور، ونفيس، وطما، وقيدمان. ومن نابت وقيدر نشر اللّه العرب**» (٢٧).

وبذلك يكون (إبراهيم) (ع) **هو الجد الأعلى للعرب الشماليين (الإسماعيليين) ولبني إسرائيل، فهو «أبو المؤمنين والأنبياء»**.

ولأن القرآن لم يصرح باسم ابن إبراهيم، الذي تعرض للامتحان العظيم مع أبيه، هل هو إسحاق أم إسماعيل:

﴿فبشرناه بغلام حليم فلما بلغ معه السعي قال يا بُنَي إني أرى في المنام أني أذبحك فانظر ماذا ترى قال يا أَبتِ إفعلْ ما تُؤمر ستجدني إن شاء اللّه من الصابرين فلما أسلما وتَلَّهُ للجبين وناديناه أن يا إبراهيم قد صدّقت

الرؤيا إنا كذلك نجزي المحسنين إن هذا لهو البلاء المبين وفديناه بذبحٍ عظيم﴾ [الصافات: ١٠١-١٠٧]، فإن المحدثين يميلون إلى أن **إسماعيل** هو **الذبيح**، كون التوراة تصف فيها بأنه ابن إبراهيم الوحيد، وكان إسماعيل هو الابن الوحيد إلى ان ولد إسحاق (٢٨).

﴿وإذْ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسمعيل ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم﴾ [البقرة: ١٢٧].

﴿إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركاً وهدى للعالمين فيه آيات بينات مقام إبراهيم ومن دخله كان آمناً...﴾ [آل عمران: ٩٦-٩٧].

وبعد أن أتم إبراهيم (ع) بناء بيت اللّه الحرام (وهو الكعبة) على الأسس التي كان شيّد عليها آدم (ع) أمره اللّه أن يُطَهِّر هذا البيت من كل مظاهر الشرك والوثنية، ويخصه لعبادة اللّه وحده:

﴿وإذا بوأنا لإبراهيم مكان البيت أن لا تشرك بي شيئاً وطهِّر بيتي للطائفين والقائمين والركع السجود وأذِّنْ في الناس بالحج يأتوك رجالاً وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق﴾ [الحج: ٢٦-٢٧]

وهكذا يقوم إبراهيم وإسماعيل بالحج والطواف حول الكعبة، حيث جاءه جبريل وأمره بذلك، فطافا به سبعاً يستلمان الإركان كلها في كل طواف، فلما أكملا سَبعاً، صليا خلف المقام ركعتين، قال (الأزرقي عن رواية ابن إسحاق): **فقام معه جبريل فأراه المناسك كلها: الصفا والمروه ومنه ومزدلفه وعرفة.** (٢٩) ويورد الأزرقي أن إبراهيم قد حَجَّ بالناس على وفق هذه المناسك، وعاد إلى الشام، وهناك توفي(٣٠).

يشهد، إذاً، وادي الرافدين، مسقط رأس أبي الأنبياء إبراهيم الخليل (ع). في (أور الكلدانيين)، وهناك قبائل (الأخليمو) الآرامية، منهم من كان قبله، ومنهم من جاء بعده..

وهكذا تعايش (المسلمون الأحناف/ الموحدون) مع من كان على الوثنية وعبادة الأصنام - كوالد إبراهيم - أما السلالات التي حكمت في العصور القديمة لهجرات الكنعانيين إلى وادي الرافدين، فأول الموجات جاءت أواخر سلالة أور الثالثة، وقضت عليها، ونتج عنها جملة سلالات أشهرها: (آيسن ولارسا وأشنونا)(٣١)

بعدها جاءت موجة أخرى، أشهرها سلالة بابل الأولى لمؤسسها «سومو أبم»، أسست لها إمارات في (سبأ) و(الوركاء)، إلاّ أن (بابل) انفردت بالحكم دون غيرها.

أما هجراتهم فلم تنقطع، بل تعدت السهل الرسوبي (بلاد سومر وأكد) حيث أقاموا، فيها حكم سلالاتهم، امتداداً حتى الفرات الأوسط (منطقة ماري وعانه) – أو خانات، أو خانه القديمة التي سميت باسم (خانين) القبيلة التي استوطنتها، وهي قبيلة أمورية الأصل، ثم (إقليم أشنونا)، وواصلت هجراتها حتى استوطنت (شرقي دجلة) مصطدمة بالجبال الحاجزة في منطقة عيلام (إيران).

وحلت اللغة الآمورية السامية الغربية محل اللغة الأكدية السامية الشرقية في العراق، والتي اصطلح عليها باللغة البابلية القديمة.

أما أشهر السلالات الحاكمة في العهد البابلي القديم، والتي لا يخلو سكانها من الموحدين، كونها كنعانية، فهي «مملكة أورشليم» في عهد (ملكها): «**ملكي صادق**» حيث (بارك الخليل أرضها).

وازدهرت (آيسن) في عهد ملكها (**لبت عشتار**) (١٩٣٤–١٩٢٤ ق. م)، واشتهرت بشريعتها التي سبقت شريعة حمورابي، وكان لبت عشتار، الملك، قد دونها باللغة السومرية. أما سلالة أور، في العهد الأكدي، فكانت من أغنى الأقاليم، والممتدة حدودها إلى مركز بغداد الحالية وبما تعرف بمنطقة (**تل محمد**) و(**بغداد الجديدة**) و(**تل الحرمل**) الموجودة في ضواحيها الشرقية، وقد عثر فيها على (أربعة آلاف) لوح من الطين تضمنت نصوص عقود ووثائق تاريخية وقانونية، واقتصادية، ومعاملات، ورسائل. كما احتوت جملة ألواح رياضية مهمة، ونسخة من الشريعة العائدة إلى مملكة (**أشنونا**) (١٩٠٠–١٨٥٠ ق. م)، كما عثر على ما يدل على أول جامعة قامت في العالم هي (**جامعة شاديوم**) أو (**شاديم**) التي منها انبثق نور المعرفة، وهي في عصر إبراهيم الخليل، وملوك أشنونا.

كانت الديانة السائدة آنذاك هي: «**المندائية**»، **ديانة التوحيد**، كما أشار المسعودي في كتابه (التنبيه والأشراف)[٣٢]، وقد انبثقت من بلاد الرافدين، وانتشرت خارجها، ومن أشهر **الملوك المندائيين**: « **بلالاما وايليا ونور– أخم** »،

وقد سادتها فترة مظلمة، بعد ازدهار، وانتهت على يد الملك البابلي القوي (حمورابي) (١٧٦١ ق. م) كما استوطن الأموريون دولة (ماري) التي نشأت على القناة الممتدة من البحر الأبيض المتوسط (الحالي) إلى (البحر الشرقي) وهو (الخليج العربي)، ويعرف موقعها الآن بتل الحريري في البوكمال- سوريا.

وحدَّ حمورابي البلاد من آشور حتى أكد، ولقب بملك جهات العالم الأربع، وبعده، تداعت سلالة بابل الثانية، ثم الثالثة، بسبب الحروب، وكانت سلالة بابل الثالثة قد اتخذت من «عقرقوف» مركزاً للحكم (وعقرقوف اسم آرامي معناه: موضع قضبان الخشب) طغت شهرة زقورة معبده، تماماً مثل «برج بابل».

هذه الدولة الرافدية، تناظرها آنذاك الحضارة المصرية زمن (اخناتون - منفوس الرابع» لكونهما- بحسب د. طه باقر- دولتين موحدتين على الدين الصابئي المندائي[٣٤]، تلتها سلالة بابل الرابعة التي اشتهرت في عهد ملكها «نبوخذ نصر الأول» (١١٢٤ ق. م).

اشتد تدفق الهجرات الآرامية، وقتها، على طول نهر الفرات، فاصطدمت بالآشوريين شمالاً، وعندما ضعفت الدولة الآشورية، استأنف الآراميون تدفقهم المندفع باتجاه الشرق الأدنى كله فتغلغلت قبائلهم ثانية في بلاد بابل وانتزعت الحكم من سلالة (آيسن)، وبهذا قضت على سلالة بابل الرابعة. وأسست في جنوب بابل عدة مشيخات وإمارات كانت الدولة الكلدانية إحداها والتي اشتهرت بملكها «نبوخذ نصر الثاني» الآرامي، الذي حاصر فلسطين، بعد أن حاول اليهود التمرد على أبيه «نبو بولاصر» الذي كان قد تحالف مع الدويلات التابعة للآشوريين، وامتد حكمه إلى مصر عبر الشام، وبعد سقوط نينوى ٦١٢ ق. م تم له القضاء على جيشها المنهزم إلى حران. إذ ذاك ضم فلسطين وسورية إلى بابل.

دحر «نبوخذ نصر الثاني» حلفاء الآشوريين، الذين جاؤا لنجدتهم مهددين دولة بابل، وطاردهم إلى داخل حدود مصر، فسمع بنبأ موت أبيه فعاد إلى بابل وتبوأ عرشها سنة ٦٠٤ ق. م، وعلى يديه جرى **السبي الأول** (ثلاثة آلاف أسير)، فتحركت مصر لنجدة أورشليم وانحاز حاكمها ضد بابل، وكان نبوخذ نصر الثاني قد نصبه عليها بعد موقعته الأولى، فأعاد محاصرتها وأسر منها ما يزيد على (أربعين ألف أسير وعلى رأسهم حاكمهم صدقيا)»، وجاء بهم إلى

بابل، ويبقى هؤلاء الأسرى يمارسون طقوسهم في بابل، **وأعادوا كتابة التوراة، والتلمود (البابلي) كما يحلو لهم، فحرفوا التاريخ لصالح مصالحهم، وأضافوا أساطير ومعارف وادي الرافدين**. ودام حكم نبوخذ نصر الثاني ٤٢ سنة، (٦٠٤– ٥٦٢ ق. م).

وبعد تعاقب عدة ملوك، تولى أحد كبار رجال نبوخذ نصر الثاني، وهو من أبناء نبلاء حرّان، الحكم، ورغم قوة بأسه وشجاعته شغلته قضايا مهمة (دينية) في وادي الرافدين، جراء الاتصالات وتأثير معتنقي التوحيد، ومنهم المندائيون، وصراعهم مع المعتقدات الأخرى (الشرك/ تعدد الآلهة/ المجوسية.. الخ)، فعزم (**نابو نيدس**) الملك القوي على إحداث **تغيير في المعتقدات الدينية لصالح التوحيد**، وللحد من تأثير الشرك، فاهتم بمدينة حرّان– منشأ آبائه وأجداده– ولأهميتها الاستراتيجية– تجاريا– كونها ملتقى الطرق، وأهم مفاتيح التجارة العالمية إلى موانيء البحر الأبيض المتوسط (بحر الأموريين)، وكانت حرّان حتى سنة ٦١٠ ق. م تحت النفوذ **الماذي/ أو المادي**، فتحالف مع «**كورش الثاني**» ضدهم لقاء حرّان فسقطت **دولة الماذيين**، لكن هذا التحالف لم يدم طويلاً إذ تحالف الفرس مع مصر وضموا بلاد آشو، فدّب في بابل الضعف، وبخاصة إنّ (**نابونيدس**) انصرف لحران على حساب سكان **بابل وبور سبأ ونفر والوركاء ولارسا**، حيث تدهور الوضع الاقتصادي، وانتشر القحط وارتفعت الأسعار لأكثر من الضعف. وجرد حملات عسكرية فاستولى على بعض الموارد في موانيء الشام، والبحر الأبيض المتوسط، وشق عباب بادية الشام، وأخذ واحة «**تيماء**» و «**دومو**» (**دومة الجندل**) وواحة «**بتريبو**» (**يثرب – المدينة المنورة حالياً**)، وشكل فيها حاميات عسكرية للإفادة من الطرق التجارية، فاغتنم اليهود غيابه عن المركز، وشحذوا ذاكرة سبيهم الأول والثاني على يد نبوخذ نصر طيلة عشر سنوات في «تيماء»، فاتهموه بالجنون بعد أن **تحالفوا مع الفرس**.. وعند رجوعه سنة ٥٤٦ ق. م زحف «**كورش الثاني**» على ملكِه، مستثمراً خيانة قائد الجيش البابلي وتواطئه مع كورش، فدخل بابل دون مقاومة سنة **٥٣٩** ق. م، واقتاد «**نبو نيدس**» أسيراً.

هل انتهى بذلك دين الصابئة المندائيين، بين ضغطي المجوسية الفارسية واليهودية؟

أبداً، فقبل هذا التاريخ، كان نبوخذ نصر الثاني نفسه قد اعتنق المندائية، بعد أن اعتنقتها ابنته «مريم» من زوجته «أوميت» ابنة أمير ميديا، والتي شاد الجنائن المعلقة تلبية لرغبتها، في عصر ازدهار بابل، التي سميت آنذاك «باب الآلهة» و«عروس الشرق» وليس عجباً، ذلك، ولا مجرد خلاف مع اليهود، فلم يكن هو أول من أدخل الديانة المندائية إلى بابل، بل منذ مولد إبراهيم الخليل في أور الكلدانيين، كان الناس على دين الصابئة المندائيين.

وفي زمن نبوخذ نصر الثاني (ملك الكلدان وحاكم القدر) كانت الأديان الشائعة هي الصابئية واليهودية إلى جانب الوثنية.

«أوميت» زوجة نبوخذ نصر كانت موحدة كأبيها أمير ميديا، أما «مريم» فقد توجهت مرة شطر القدس وكان لها فيها قصر يطل على نهر الأردن، مجاوراً «لمندي» (دار عبادة الصابئة المندائيين والناصورائيين والترميذي- علماء الدين-) هناك، يمارسون فيه طقوسهم ويتلون صلواتهم الخاصة فمالت لما سمعته ظاهراً من تلك التراتيل والصلوات، وأدركت مضمونها، لأن من يفهم اللغة السريانية - الكلدانية - الآرامية، يستطيع فهم اللغة المندائية الآرامية، حتى يومنا هذا.

وذات يوم اطلعت على التراتيل السرية عندما تلاها أحدهم منفرداً بصوت مسموع، (وهي أسماء اللّه الحسنى وملائكته الصالحين والذين لا يبوحون باسمائه).

وشيئاً فشيئاً تعلمت ما كانوا يتلون من كتابهم «الكنزا ربا» (صحف آدم القديمة) بخاصة أن الناصورائيين يقومون في كل يوم أحد وخميس من كل إسبوع بالتلاوة السرية.

وحين اتقنت ذلك، وفي أول يوم من أيام «البنجة» ذهبت إلى «المندي» وطلبت تعميدها لجعلها «مندائية»، ولما استجابوا لذلك سمع اليهود فذهب كهانهم وعلماؤهم إلى الأميرة (مريم) وناقشوها حول اعتناقها الدين المندائي، فلم تستجب لهم أو تغير ما آمنت به، فتجمعوا بسلاحهم، وفتكوا بالمندائيين أجمعين والناصورائيين بخاصة. ولما جاؤا بابل، بعد أن طاردوا المندائيين الأحياء إلى جبل المندائيين وكانت مريم معهم، فقابلوا الملك، وشكوه ابنته، وأنهم إنما قتلوا المندائيين من أجلها، فشجب نبوخذ نصر الثاني فعلهم الدموي هذا، وأيد ابنته وزوجته وتبنى دينهما فصار صابئياً، مندائياً،

والتحق به حكماء قومه، كما اعتنقه ملوك بابليون آخرون مثل «أيلوم-ايلوم» و «ايلي نيبي»... الخ. ويستنتج «ليدز بارسكي» من هذا أن من طرد من القدس هاجر إلى بابل السفلى أو بابل الجنوبية من أولئك المندائيين.

وفي كتبهم الدينية (حران كوثيا) أن ستين ألف ناصورائي هاجروا- بالتعاقب- في أزمنة مختلفة، من القدس إلى حرّان وبابل السفلى والطيب وميسان، بسبب الاضطهاد اليهودي لهم (٣٥).

فإذا كان خروج إبراهيم الخليل من أور حين «كانت الأرض كلها لساناً واحداً ولغة واحدة» بحسب التوراة، فلا يعني ذلك أن الأرض هي ملك «بني إسرائيل» حيث «قال الرب هوذا شعب واحد ولسان واحد» بحسب التوراة، أيضاً (تك: ١١:٦)، والغاء ذلك النسيج الديني والاجتماعي الذي كان قبل إسحق (وإسرائيل) وقبل خروج أبي الأنبياء إبراهيم الخليل (ع) من أور إلى حرّان.

لقد صاحبت المزامير- مثلاً- (شعب إسرائيل)- كما يقول ماتيو كولان- في صلاته عبر تاريخه، فهي قرئت بلا انقطاع واعتراها توسع وتأويل، لذا فلا عمر لها وما وصلنا منها ليس سوى صدى طقوس الهيكل الثاني، ولا نلقى ذكر إبراهيم فيها سوى مرتين:

(مزمور ١٠: ٤٦-٤٧): «اجتمع أشراف الشعوب: هم شعب إله إبراهيم، لأن اللّه تروس الأرض وهو المتعالي جداً».

(إنّ تعبير- شعب إله إبراهيم - هو الوحيد في الكتاب كله، ويبدو القصد منه كونياً، لأن رؤساء الشعوب يجتمعون ليكونوا شعب إله إبراهيم، اللّه العلي (الآية: ٣)، المحتفى به في أورشليم (تك ١٨ :١٤). وينبغي ملاحظة الفعل (جمع- اجتمع) فهو عينه في تثنية ٣٣:٥، يستخدم لجمع أسباط يعقوب في شعب واحد تحت ملك واحد وشريعة واحدة) (٣٦).

إن هذه النظرة، هي ذات انفتاح مسيحاني في ضوء (تك ٣ :١٢) إذ طبيعي أن (يحقق اللّه تحت إمرة إبراهيم وحدة كل الأمم في شعب واحد، مكملاً هكذا، في نهاية الأزمنة: الموعد الموضوع للأب الأول)؛ فإذا كانت الديانة المندائية الصابئية، هي ديانة توحيد، وهي قبل إبراهيم الخليل، (الحنيف المسلم) هو و (ملته)- بحسب القرآن- فلم لا تكون البشرية، جمعاً، (حنفاء، مسلمين) في (الجوهر)!؟ (مندائيين)- في (التسمية)؟

أو لم لا يكون المندائيون واليهود والنصارى على دين واحد، هو (الاسلام) الأساس؟ أم أن (الطبيعة) البشرية، تقود كل رعيل إلى زعامة، فتجعل الناس، مللاً وفرقاً وطوائف بحسب مصالح اقتصادية، أوقناعات، أو «بعضكم لبعض عدواً»؟

(اليهود)، أعادوا صياغة (التوراة)، بل شكلوا حواراً - غير مسجل - على (لسان اللّه)، ليسموا (إسحق) حبيباً لإبراهيم ووحيده، بدلاً من اسماعيل!!

كأن تلك؛ (الشجرة) ستتوزع، أدياناً وطوائف، وليس «شعباً واحداً ولساناً واحداً» بالرغم من (رغبة) اليهود و (رجاء) اللّه إلى (إبراهيم)، واقتطاعه إياه، تلك (الأرض الصغيرة) لتكون (مركز العالم/ الكون)، فاللّه وعد إبراهيم بأن سيكون نسله كثيراً «كغبار الأرض» (تك ١٣-١٦).

وفي سياق (العهد الأول) سيكون عدده كنجوم السماء (١٥:٥).

و«ستتبارك قبائل الأرض» (تك: ٣ :١٢).

لنرى إلى (السويدي) كيف وضع «تلك القبائل» في كتابه «سبائك الذهب»:

(١) آدم (أبو البشرية العاقلة).

(٢) **شيت** (أو: هبة الله، ويعرف بالمندائي: شيتل بر آدم، وهو نبيهم بعد آدم (ع).

(٣) **آنوش** (ويعرف بالمندائي: إنش أثرا- على إسم أحد ملائكتهم الصالحين ومعنى إنش= رجل، وأثرا- صالح: (الرجل الصالح)، وهو أول رجالهم المؤمنين الصالحين، وهو أول من زرع النخلة، كما ذكرته الليدي دراوور ص ٣٥ و ٦١ من كتابها (الصابئة المندائيون).

(٤) **قينان**

(٥) **مهلائيل**

(٦) **اليارد**

(٧) إدريس (ويعرف بالمندائي: هوارا- مازادا، وقد اختصرت إلى (هرمز) وعند المصريين (هرمس)، وعند غيرهم (إخنوخ)، وقد اتبع المندائيون تعاليمه المنقولة عن جده (شيت) و(آدم)، وهو نبي المندائيين، ساروا على وصاياه (داراوور ص ٢٦).

(٨) **متوشالح** أو متشولخ بن إدريس

(٩) **لملك** — (١٠) **صابئي** (الذي نسب إليه اسم الصابئة)

(١١) **نوح** (ومعناه: هدوء العاصفة، ويعرف بالمندائي باسم: نوا ودنا نوخ، واسم زوجته (نهوريثا) ومعناها: (**تامة الجمال**).

(١٢) سام (ويعرف بالمندائي سام زيوه، أي سام ذو النور الساطع، وهو أصل عرقهم وجدهم الأعلى، وإليه ينتسبون، وسمي بهذا الاسم تبركاً باسم أحد الملائكة النورانيين في المندائية).

(١٣) آشور (١٤) عيلام (١٥) لاود (١٦) أرفخشد (١٧) رام أو: آرام (١٨) **ياسور**
نبيط (ومنه الأنباط)

(ويعرف بالمندائي: رام، ومن عرقه كثر عدد من اعتنق المندائية أكثر من عروق اخوته الساميين وأسلافهم، حتى عرفوا باسمه: الآراميين، وسمي بهذا الاسم تبركاً بملك (رام ربه) ملك النور العظيم.

(١٩) **قينان**

(٢٠) **شالخ** أو شالح بن ارفخشد

(٢١) من أحفاده: **عابر أو هود أو عامر**
(انظر: مفصّل العرب واليهود لأحمد سوسه ص ٢٨٠).

(٢٢) **قحطان** «يقظان»

(٢٣) **فالع**

(٢٤) **يعرب**

(٢٥) **جرهم**

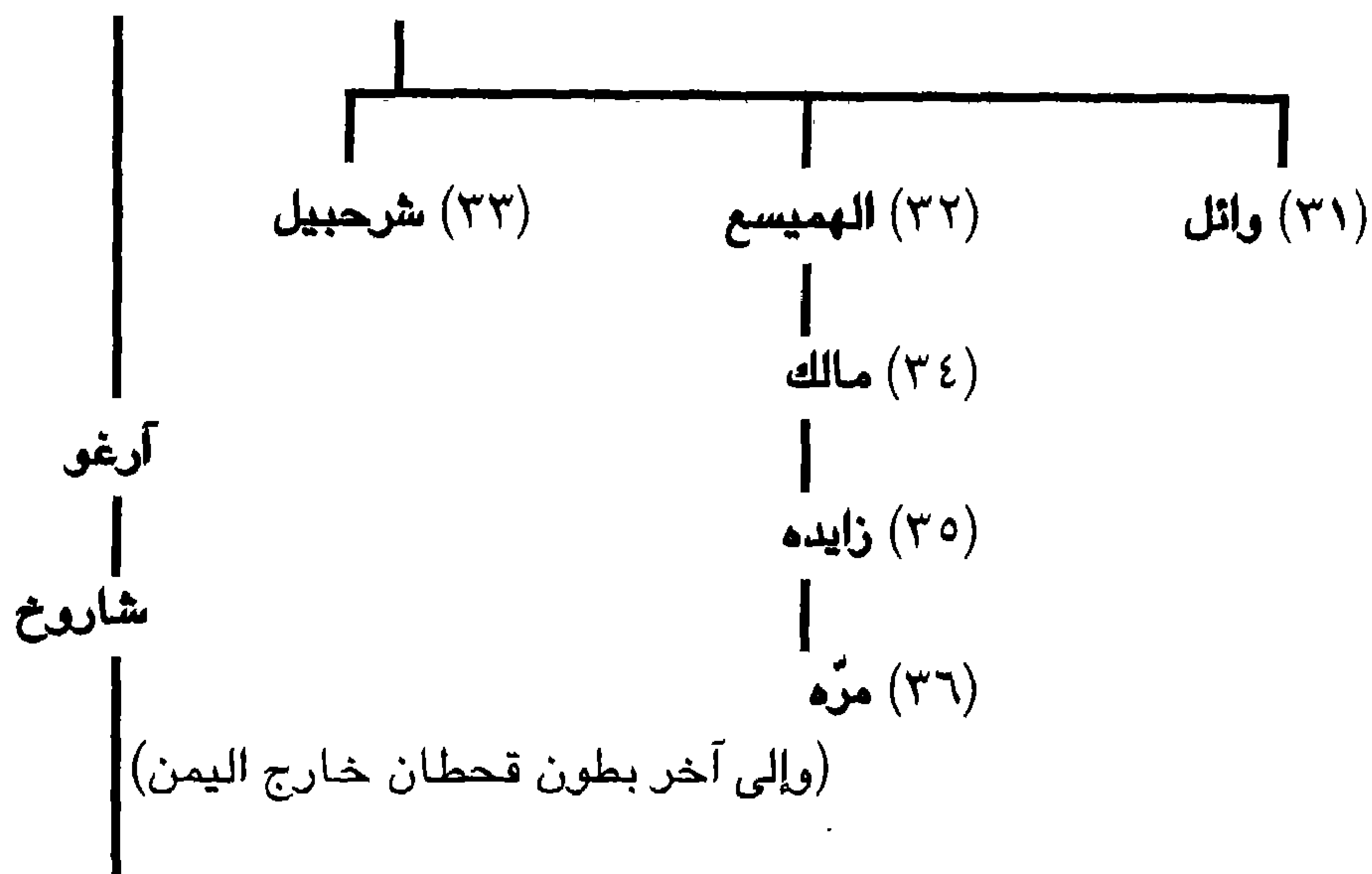
(٢٦) **حضرموت**

(٢٧) **يشجب**

(٢٨) **عبد شمس أو شبأ**

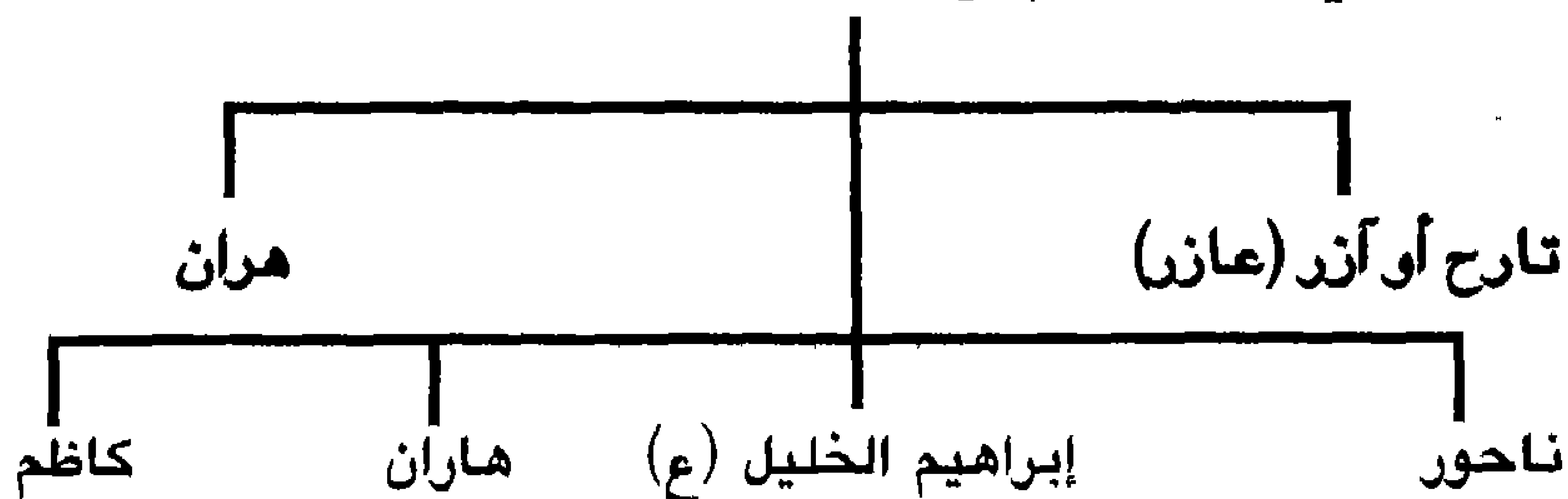
(٢٩) **عاملة**

(٣٠) **حِميَر**



باحور
أو ناحور
(المسعودي/ التنبيه والاشراف ص ٨٠)

ومن سلالة (باحور) أو ناحور (كما أشار إليها المسعودي: التنبيه والاشراف ص: ٨٠)يأتي والد إبراهيم (ع)



اسماعيل (ومن ذريته النبي محمد (ص)/ كما أشار إليه عقيف طبارة/ مع الأنبياء ص ١٠٥ و ٣٣٧)

قيدار

حمل

بنت

سلامان

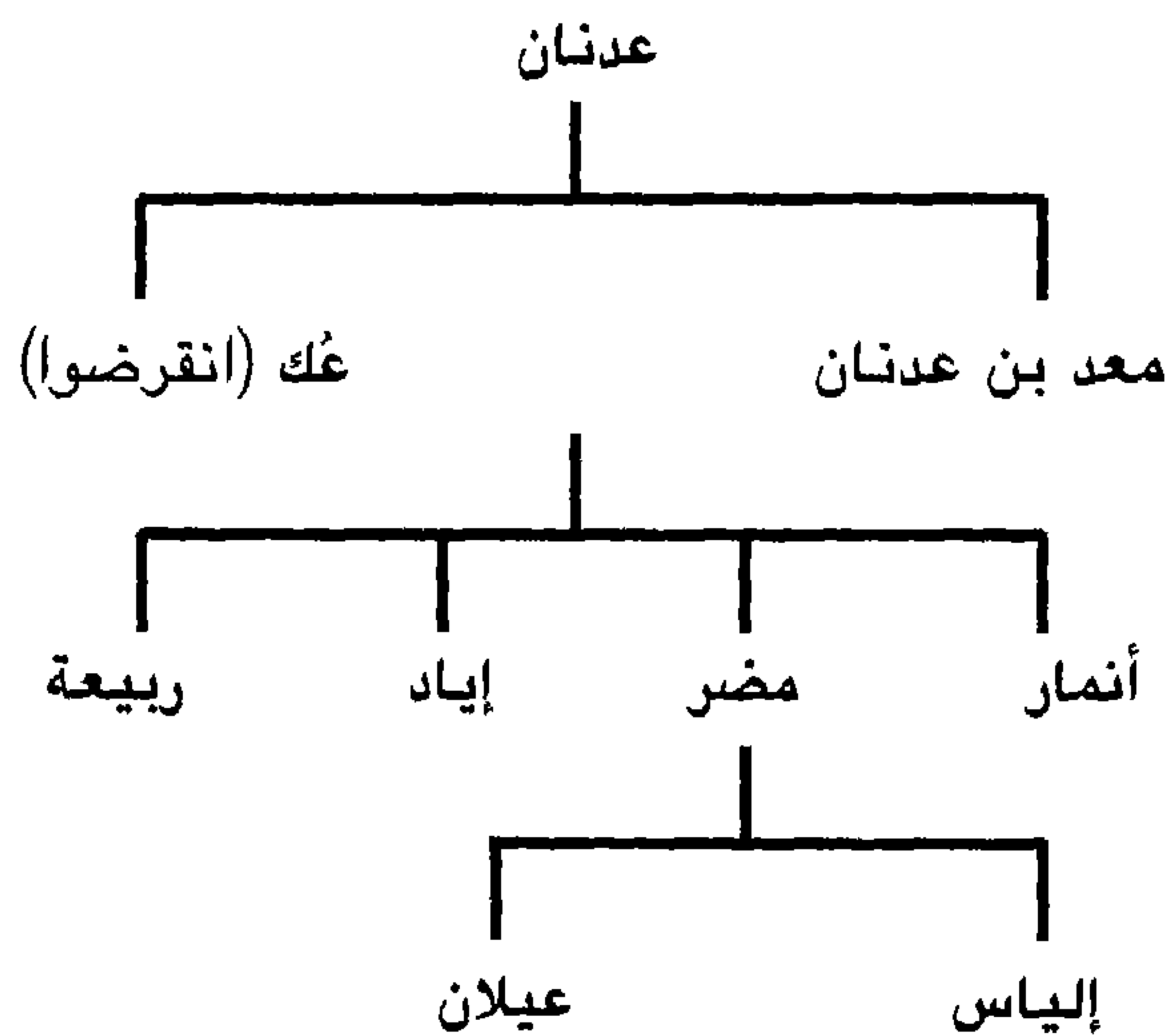
الهميسع

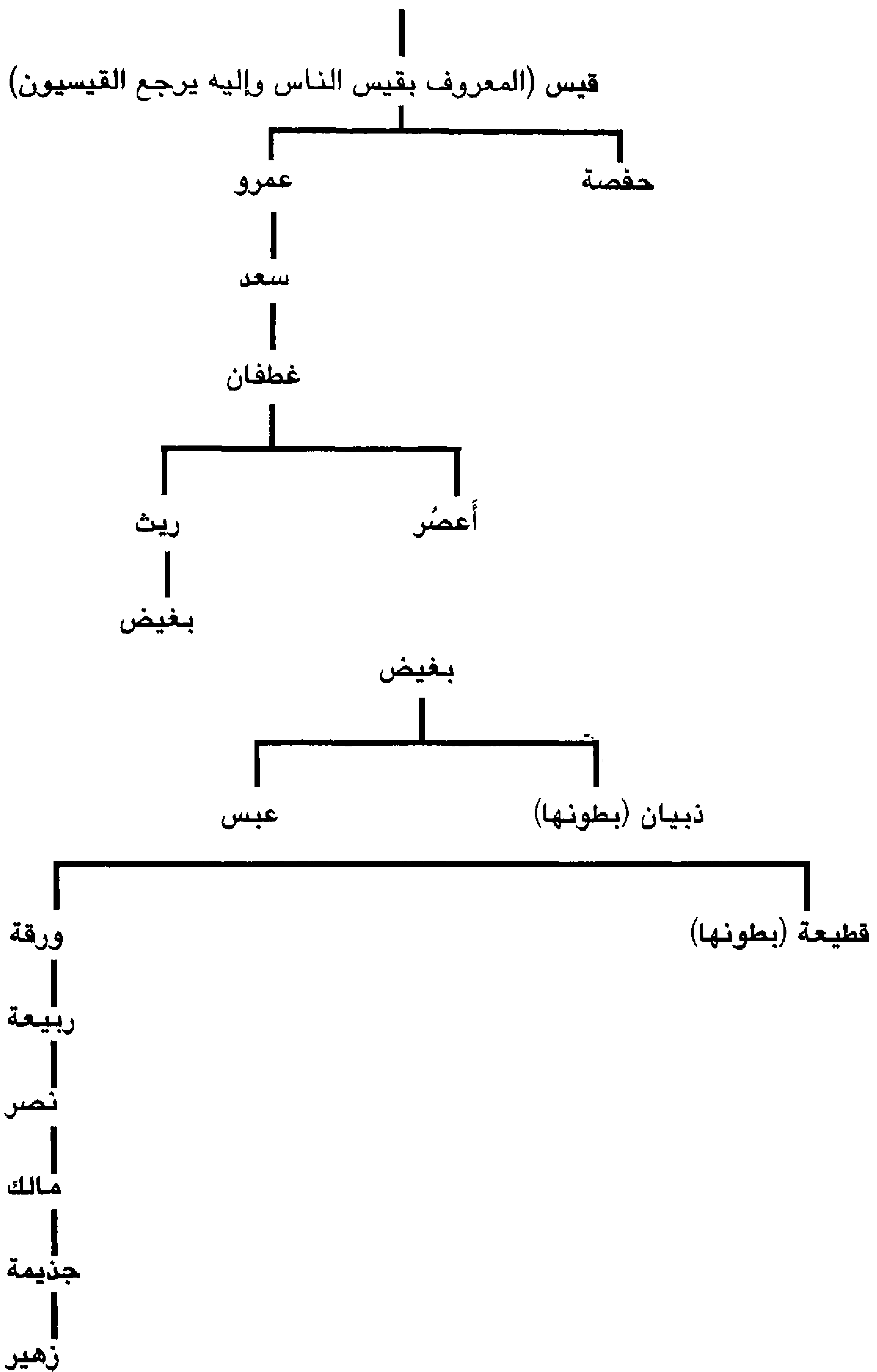
أدد

أد

اسحق (ومن ذريته كل من النبي يحيى (والنبي عيسى (ع)/طـبـارة ص ١٥٦)

يقشان: من زوجته قطورة، جد السبأيين (مفصل العرب واليهود/سوسه ص ٢٨٠)





قيس (المعروف بقيس الناس وإليه يرجع القيسيون)
حفصة
عمرو
سعد
غطفان
أَعصُر
ريث
بغيض
بغيض
ذبيان (بطونها)
عبس
قطيعة (بطونها)
ورقة
ربيعة
نصر
مالك
جذيمة
زهير

زهين: وإليه ينتسب الزهيرون باختلاف أديانهم، ومن بطونهم الإسلامية: **بنو الصولاغ، المغيلات، البدور، الشريفات، الجقاقجة، السودان، الحسينات، العوينات، النويدرة، الصنابرة، الستية، الدحول، وبنو زهرون- بصابئتهم ومسلميهم.**

وثمة بطون مسيحية منتشرة في العالم كله، وهذه البطون (**بنو زهرون من جذيمة**) أشهر أبناء الصابئة حالياً.(٤٠)

والصابئة المندائيون- عدا مدلول الكلمة (صبا) الآرامية و(صبأ) العربية، التي سنأتي على ذكرها تالياً، ينتسبون- بحسب آراء بعض المؤرخين- إلى: «**صابئي بن متوشالح، حفيد النبي إدريس**». **ومنهم من اعتبر الصابئة** تنتسب إلى «**صابئي بن ماري**»- من أيام إبراهيم الخليل (ع).

ولأن المندائية قديمة وعريقة، فإن الهجرات التي قامت بها القبائل العربية من قلب الجزيرة، والتي لم تقتصر على العراق وسورية ولبنان وفلسطين، إنما وصلت مصر، وهكذا انتقلت مع (القبائل السامية- **الآرامية**- القديمة) تقاليد حضارية عريقة، واستطاع الآراميون تعميم لغتهم السامية في مصر حين نزحوا إليها في حدود الألف الرابعة ق. م عن طريق برزخ السويس ومضيق باب المندب، واستقرارهم في شبه جزيرة سيناء لزمن، اختلطوا فيه بالسكان الأصليين (**الحاميين**) حيث أظهرت نقوش قدامى المصريين وآثارهم، ذلك التمازج والتنافذ الحضاري، إذ قال المؤرخ: (ماسبرو): «**إن لعروق المصريين الأقدمين والعرب الفينيقيين والكنعانيين روابط سامية قديمة. وأما المصريون فهم «ساميون» انفصلوا عن مهدهم قبل غيرهم**».

أما «الهكسوس» - كما أطلق عليهم اليونانيون، التسمية - فقد نزحوا من جزيرة العرب إلى سيناء واستقروا فيها منذ عصور سحيقة، وكان معظمهم من **العموريين والكنعانيين** تشبعوا حضارة وادي الرافدين، ومن مراكزهم الرئيسة سوريا وفلسطين، وكانت عاصمتهم «قنطا»، فنشروا ثقافتهم فيها وفي المدن المصرية الأخرى خلال القرن الثامن عشر ق. م بعد أن غزوها واستقروا فيها، واشتهرت مدنهم بحصونها المحاطة بخنادق المياه. ولقد فرضوا نظامهم الاقطاعي، وثبتوا سلطانهم على دلتا مصر وبنو عاصمتهم هناك. وقد أطلق عليهم المصريون «شاسو» (أي البدو) أو «**مينو ساتي**» أي رعاة آسيا، وعرفت

دولتهم باسم «دولة البدو» واستمر حكمهم زهاء قرنين (١٧٨٥-١٥٨٠ ق. م). وقد شاعت عندهم بعض الأسماء السامية كاسم إله المصريين: «فتاح»، ومن أشهر ملوكهم: «يعقوب إيل أو يعقوب بعل»؛ وإيل هو الإله الآرامي للموحدين، يلحق باسم الملك للتبرك (باسم الله)، وقد أخذ (اخناتون) -فرعون مصر- من هؤلاء الآراميين العرب، وعن أمه، دين التوحيد، الذي كانوا عليه في وادي الرافدين، وتحديداً في أور الكلدانيين، حيث خرج إبراهيم الخليل، وهو من الحنفاء الموحدين.

وإخناتون (منفوس الرابع بن منفوس الثالث) -القرن الثالث عشر ق. م- أخذ عن أمه الملكة «تي شورثانا الكشية» بذور مذهب التوحيد، الذي جاءت به من أهلها في بابل، وأخبرته عن عبادة الشمس في «هليو بوليس»، وقارنت بين عبادتها، وعبادة الإله آمون، الذي كانت كهنته هي العصبة الأقوى في مصر، والتي أحرقت تعاليم هرمس (إدريس) ونواميسه،[٣٧] وحين تولى الحكم (اخناتون) أو الفرعون اخناتون (منحوتب) (منفوس الرابع)[٣٨] هاجم الآلهة القديمة وكهنتها، وعبادتها، وبشر بديانة التوحيد. وقد عاش (١٣٧٥-١٣٥٨ ق.م) أي بعد إبراهيم (ع) بحوالي ٦٠٠ سنة، وكان إلى جانب تأثره بدين أمه، تأثر أيضاً، بعقيدة الأقوام الآرامية، الموحدة، الذين جاؤا مصر قبله بحوالي قرنين، وبينهم المندائيون الموحدون، الذين سكنوا في سيناء، قبل المسيح بثلاثةِ عشر قرناً، وكان يبشر بقوله:

«إنَّ اللّه لا تراهُ العيون... الإلهُ غير منظور».

ولأنه لا يُحب أَن يسجد الإنسان للأصنام أو للإله (راع أمون) فقد عاداه (كهنة طيبة) الذين استمروا بأداء الطقوس والتراتيل «للإله أمون»، وقدموا القرابين، وأوقدوا البخور أمام الأصنام، ليل نهار، وظلوا يؤلبون الأقوام والقبائل ضده، وإزاء ذلك نقل (اخناتون) العاصمة إلى «**تل العمارنة**» وسماها «**شعاع الشمس**»، وراح يروج لهذه الديانة، ويتلو الأناشيد، ويغنيها مع زوجته «**نفرتيتي**» وبناته بتجوالهم في النيل، أو في خلوته، وتعبده.

لكن (كهنة طيبة) حرضوا ولاته على التمرد وعدم دفع الجزية، فتمردت القبائل الشمالية، ولم يشأ سفك الدماء، فمات ولم يبلغ الثلاثين من عمره، وخلفه «**توت عنخ آمون**» الذي كان حاجباً في البلاط الملكي، ومتزوجاً من إحدى بنات اخناتون، فخلف صهره على العرش وعبد ما كان عليه سلفه،

(الإله غير المنظور-اللّه جل شأنه). لكن سنة لم تمض على حكمه حتى انتصرت كلمة كهنة طيبة، فنقل عرشه إلى (طيبة) مدينة (آمون رع)، وحاول هدم كل ما أسسه اخناتون، وأعاد أسماء (الآلهة) القديمة، وأصلح المعابد المهجورة، طيلة ثماني سنوات، فارتد عن دين الموحدين، وعاد للشرك.

بذلك، عاشت مصر، تلك التعددية، بين الدين الموحد، والشرك وعبادة (الإله آمون رع)، وقد وجدت مخطوطات قديمة بالكتابة الهيروغليفية تؤكد معتقد المصريين، آنذاك، بوجود (إله واحد يَرى ولا يُرى..)، وهي ذاتها (تعاليم آدم) وحفيده أدريس.

يعتقد لارنست دودال، بأن العبادة عند المصريين تم تحريفها عبر كتابة الفرعون (توت عنخ آمون) إذْ أخذ الكهنة يرمزون لصفات اللّه برمون، اختلفت من إقليم إلى الآخر، ثم رمزوا إلى قوى الطبيعة برموز أخرى، وأشاعوا تلك الاختلافات في القراءات، حتى جعلوا الناس ينسون التوحيد بعد تقادم الزمن، فأصبح قاصراً على الكهنة، المتمسكين، أصلاً، بالشرك، ثم جعلوا المصريين يعتقدون بتجسيد الآلهة وحلولهم في الحيوانات فاتخذوها طوطماً لهم، كما انتشرت عند غيرهم من البشر فعبدوها لذاتها.(٣٩)

ومع ذلك فـ «إنَّ سام لهو جدُّ الفراعنة» -كما قال إبن الأثير، وسيظل كذلك أبداً.

الإحالات:

١) يوسف رزق اللّه غنيمة: نزهة المشتاق في تاريخ يهود العراق- دار الوراق للنشر، لندن ط١/١٩٩٧ ص ٤٩-٥٠.
Encyclopaedia Biblica Cheyne and Black p.720 -1
Z. A. Ragozin -Chaldea 199-201 (٢
٣) إبن هشام (عبد الملك): السيرة النبوية، تحقيق مصطفى السقا وآخرون / القاهرة ١٩٩٥ ق١ص ٢٢٣.
انظر: د. هاشم يحيى الملاح: إبراهيم الخليل في المصادر الإسلامية/مجلة بين النهرين/ص ٢٣٦.
ومحمد فؤاد عبد الباقي /المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم/ مصر ١٣٧٨هـ، ص ١٢.
٤) القرطبي (محمد بن أحمد الأنصاري): الجامع في أحكام القرآن، القاهرة ١٩٦٠، ج٧، ص ٢٢.
٥) عبد الملك بن هشام: السيرة النبوية، ق١ ص ٢٢٣.
أنظر د. جواد علي: المفصّل تاريخ العرب قبل الإسلام /بغداد ١٩٥٦، ج٦، ص ٢٦٩-٢٧٠.
٦)محمد بن عبد اللّه الأزرقي، أخبار مكة، بيروت ١٩٧٩ ، ج١، ص ١٦٨-١٦٩.
٧) محمد عزة دروزة: عصر النبي وبيئته قبل البعثة، بيروت ١٩٦٤ ص٧٢٠-٧٢١.
أنظر: د. جواد علي/ المصدر نفسه، ج٦ ص٨٢-٨٣.
٨) ماتيوكولان: إبراهيم، مجلة [Chiers Evangile]، حزيران ١٩٨٦.
أنظر: ترجمة الأب يوسف حبي- مجلة (بين النهرين)/ العدد ١٠٣-١٠٤ السنة ٢٦، بغداد ١٩٩٨ ص ١٤٥-١٤٦.
٩) جوناثان ماكَونيت: إبراهيم واللّه- مجلة (Judaism)، العدد ٣٣، ١٩٨٤ ص ١٦٠-١٧٠.
١٠) السابق نفسه ص ١٧٣-١٧٤.
١١) الأب د. يوسف حبي: العراق أرض أبينا إبراهيم المقدسة، بين النهرين، نفسه، ص١٩٠.
١٢) قاموس الكتاب المقدس، ط ١٠، دار الثقافة، القاهرة ١٩٩٥، ص ص ١٢٨-٢٨١ - ١٨٩-١٩٠.
١٣) أنظر: د. حبي، نفسه ص٢٠٠.
Mohammad Hamidullah, Abraham, selon Le Coranet La tradition (١٤ Islamique, dans; Abraham.

E.Moatti, P.Roclave, M.Hamidullah Centurion 1992, P.127-167.

١٥) **الطبري** (محمد جرير): تاريخ الرسل والملوك، تحقيق محمد أبو الفضل **إبراهيم**، القاهرة ط ٢، ١٩٦٧ ج١، ص ٢٣٣.

١٦) **حبي**: نفسه. ص ٢٠٠.

١٧) **كمال الصليبي**: التوراة جاءت من جزيرة العرب، ترجمة عفيف الرزاز- المؤسسة العربية للدراسات والأبحاث، بيروت ط٣، ١٩٨٦ ص١٨، وص ٢٣٥-٢٤٤.

١٨) **حمزة بن الحسن الأصفهاني**، تاريخ سني ملوك الأرض والأنبياء، بيروت، بلا تاريخ، ص ٦٧-٦٨.

أنظر: د. هاشم الملاح، نفسه، ص ٢٣٩.

١٩) **القرطبي**: الجامع لأحكام القرآن، نفسه، ج٢٠، ص٢٤-٢٥.

٢٠) **دروزة**: عصر النبي، مصدر سابق، ص ٧٠٦-٧١٠، و ٧٣٢.

أنظر: الملاح: نفسه، ص ٢٤٣

٢١) **ابن قتيبة** (عبد الله بن مسلم)، المعارف، بيروت، ١٩٨٧، ص١٩-٢٠.

٢٢) **السابق**، نفسه، ص٢٠-٢١.

٢٣) **السابق** نفسه ص٢٢-٢٣.

٢٤) **محمد سيد طنطاوي**: بنو اسرائيل في القرآن والسنة، بغداد ١٩٨٨، ج١، ص٦.

٢٥) **القرطبي**، نفسه، ج٢ ص ١٤١.

٢٦) **الطبري**، تاريخ..، مصدر سابق، ج١، ص٣١٧.

٢٧) **الطبري**: نفسه، ج١، ص٣١٤، وابن قتيبة، المعارف، ص ٢١.

٢٨) **محمد حسين هيكل**: حياة محمد، مصر ١٩٥٦ ص ٨٧.

وعباس محمود العقاد: إبراهيم أبو الأنبياء، بيروت ١٩٦٧، ص ١٣٦-١٣٧.

وعبد الوهاب النجار، معتمداً المصدرين..

أنظر: الملاح، نفسه ص ٢٤٨.

٢٩) **الأزرقي**: أخبار مكة، ج١ ص: ٦٦-٦٧، والملاح: ص ٢٤٩.

٣٠) **الأزرقي**: ج١ ص ٦٩-٧١، وأنظر: الطبري، تاريخ... ج١ ص٢٥١-٢٦٢.

٣١) **طه باقر**: مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة، ج١، ص ٧٠٧- ٤٠٩.

٣٢) **المسعودي**: التنبيه والإشراف، ص: ١٣٣، و١٦٨.

٣٣) يتكون اسم حمورابي من مقطعين: (**حمو**) = **الحرارة، أو الحماوة، اللهب**، و«**رابي**» من **الرابية = الارتفاع** فيعني الاسم: اللهب العالي، أو الوهج العالي؛ بمعنى: **المشع**. من هنا كانت علاقته بإله الشمس، حيث تسلم منه شريعة مسلته المشهورة يكون «**شمش**» هنا، نظيره، وحاميه، والمتحد به.

ولأن اتجاه الشمس هو اتجاه القبلة عند (الموحدين)، في الصلاة، حيث التوجه إلى

اللّه، كون الشمس من رموز خلقه ونوره، سنرى أن المندائيين يعتنون في نصوصهم بالنور، مفردة ومعنى، حيث للنور قدسيته، وحيث «**حمورابي**» بات موحداً، واعتنق «**المندائية**» كما سنرى.

٣٤) **باقر**: مصدر سابق، ج١، ص ٤٨٦–٤٨٧.

٣٥) **أحمد سوسة**: مفصل العرب واليهود في التاريخ، وزارة الثقافة والإعلام، بغداد ١٩٨١، ص ١٧٤.

حول (لغة) التلمود البابلي الذي وضعه اليهود في بابل أثناء سبيهم، كما جاءت الإشارة سلفاً، تعمد اليهود إقصاء الكنعانيين (الفلسطينيين) والفينيقيين من الساميين، وكانت لغته، أقرب إلى (المندائية) كون سكان جنوب بابل هم من المندائيين، لذا كثرت أسماء المدن الصابئية هناك.

أنظر: الصابئة المندائيون، الليدي دراوور– الترجمة العربية حول ما قاله «نولدكه».

– ومن الملوك الذين اعتنقوا المندائية «**ايلوم–ايلوم = الإله الواحد**» و(**ايلي–ينبي = أي اللّه هو حسبي**) و«**باثغ–ايل**» **أي الإله الأوحد**.

وإن الثلاثة الملوك ساميون، حكموا بابل الجنوبية، وكانوا موحدين، وكان ملكهم الثالث «**الملك ابراهام**» هو من تألب ضده الوثنيون فأسقطوه فهاجر إلى فلسطين. أما «**حمورابي**» فكانت ديانته توحيدية، كما أثبتت مخلفاته الآثارية.

(العرب واليهود: ص ٥١٩، وص٢٦١).

أما ابن النديم فقد أطلق على الصابئة اسم «الكلدانيين» (أنظر: ناجيه مراني، مفاهيم.. ص ٦٠).

٣٦) **ماتيوكولان**: مصدر سابق ص ٦٧.

٣٧) **باقر**: مصدر سابق، ج١، ص ٤٥٨–٤٥٩، وانظر ما جاء بقلم (ن.ي) مكتبة المتحف ط١، مصر، ص ٥٢.

٣٨) **لارنست دودال**: توت عنخ آمون فرعون مصر، ت.م فوزي هناتو/ ط١، ص ٦٨–٧٣.

٣٩) السابق، ص٢٣٠.

وسلامة موسى: نظرية التطور، ص ٢٢٣.

سوسه، المفصل ص ٢٧٣ [خروج موسى].

وابن الأثير: (الكامل) ص ٣٤، وقوله: «ان سام جد الفراعنة».

٤٠) منقول أنسابهم شفاهاً عن السادة: **إسماعيل مهدي صالح الزهيري، وحكمت عبد العزيز، وحمزة اسماعيل الزهيري، وصلال الشلال الزهيري..**

أما (**عمود البشرية العاقلة**) فجاءت مؤسسة على وفق (**قبائل العرب**) **للمسعودي** في كتابه (**سبائك الذهب**) فصل: أنساب العرب، ص ٧ وكذلك:

– **ناجية المراني**: حول النبي شيت، مجلة التراث الشعبي، بغداد، العدد ٩، السنة ١٩٧٤، ص ١٥.

- وفيات الأعيان لابن خلكان، ج١، ص ٥٤ (بتحقيق د. احسان عباس- بيروت).
- الملل والنحل للشهرستاني، طبعة القاهرة ١٩٤٨، ص ١٠٩.
- الصابئة المندائيون لليدي دراوور، ترجمة نعيم بدوي، حول نهر ريثا ص ١٥٥.
- العرب واليهود في التاريخ، د. أحمد سوسة، ص ٥٣.
- الصابئون حرانيين ومندائيين، د. رشدي عليان- حول القينانين، ص ٤٤.
- الكامل في التاريخ لابن الأثير- بتحقيق الشيباني، ج١، ص ٣٤.
- معجم البلدان للحموي، طبعة مصر سنة ١٠٣هـ، حول حران ص ٢٤٢.
- وفيات الأعيان، أيضاً- حول حران، ص ٣١٥.
- مفصل العرب واليهود، أيضاً - حول حران، ص ٢٨٠.
- مروج الذهب للمسعودي- حول حران- الباب الرابع ص ٤٩.
- الصابئون حرانيين..، حول (كاظم) ، ص ٤٤، معتبراً الكاظميين الحنفاء نسبة إلى (كاظم).

٥

الجذور

«الصابئة» و«المندائيون» تسميتان لمسمى واحد، يقصد به الفئة الدينية التي يقدر عددها بثمانية عشر ألف نسمة، والتي كان يعيش معظم أفرادها في مناطق العراق الجنوبية: كميسان (العمارة) والبصرة، وذي قار (الناصرية).. كما يعيش قسم منهم في المناطق العربية من ايران: المحمرة وعبادان والأحواز..

وقد تحول عدد كبير منهم إلى بغداد في السنوات الأخيرة، وهاجر بعضهم خارج البلاد.

إن أقدم وأوثق مصدر عربي وردت فيه تسمية الصابئة بمدلولها الديني، هو القرآن الكريم، إذ ورد ذلك في ثلاث سور: البقرة: ٦٢/ المائدة: ٦٩/ الحج: ٣.

﴿إنّ الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس والذين أشركوا إن الله يفصل بينهم يوم القيامة إن الله على كل شيء شهيد﴾ [الحج: ٣](١).

يقول عباس محمود العقاد: «إن الصابئة على ملة إبراهيم الخليل (ع)، وقال المحقق من أمرهم، إنهم يرجعون إلى أصل قديم، لأن استقلالهم باللغة الدينية والكتابة الأبجدية لم ينشأ في عصر حديث، وقال لا يعرف دين من الأديان تخلو عقيدة الصابئة من مشابهة له في إحدى الشعائر»(٢).

وقال عبد الحميد السحار:

«لقد بعث الله إدريس (ع) إلى الناس يدعوهم إلى عبادة الله ويحثهم على البعث والحساب والميزان والجحيم، والخيرات التي أعدّت للمتقين، فآمن

المصريون بالله منذ فجر التاريخ، وقبل أن يوجد «مينا» الوجه القبلي بآلاف السنين، وعرف أتباع ادريس بالصابئة «الهرامسة»، وعرف الكتاب الذي جاءهم به: (صحف آدم)، (والذي يعرف بالمندائي: كنزا ربا- الكنز العظيم- هذا ولم تقم دعوة إدريس داخل حدود مصر فقط، بل ذهب إلى بلاد العرب بين أهله وقبائله يدعو إلى عبادة الله وحده. وكان يعرف (أدريس) قبل أن يدون البشر تاريخهم أن الأرض التي بين الفرات والنيل أمة واحدة، فذهب إلى بلاد العرب يدعو أهلها إلى عبادة الله الواحد القهار فانتشر الصابئون في أرض الجزيرة العربية بين دجلة والفرات وأرض الشام ووادي النيل، وما زال الصابئة حتى يومنا هذا يقيمون وجبة طقوسية على أرواح شهدائهم في مصر الذين غرقوا في بحر القلزم (الأحمر) وذلك عندما خرج موسى وقومه من مصر وساروا حتى وصلوا بحر القلزم، ورأى موسى فرعون وجنوده في إثره يريد إرجاعهم إلى طاعته وإذلالهم - لأن موسى أحد قواده - فعبر موسى وقومه البحر وغرق قوم فرعون فيه وكان معهم عدد كبير من الصابئة.[٣]

■ التسمية:

أفق مائي فسيح، يرتفع قرص الشمس في نهاية خط الأفق شيئاً فشيئاً، حتى يكتمل، وعلى صفحة الماء الذهبية يضع المندائي **ختمه الطلسمي** المدور للطائفة المندائية (**السكين دوله**) وعليه النقوش تمثل: **الأسد والعقرب والنحلة والأفعى**..

كاهن مندائي بردائه الأبيض المقدس، يرفع الختم الطلسمي من حافة المياه، وهو يرتل، ومعه مثل جوقة، يترجع صدى الكلمات:

«باسم الحي

باسم معرفة الحي..»

وبيدين حانيتين يرتفع جسد وليدٍ عارٍ، ووسط الترتيل، تمتد أصابع الكاهن بالختم الطلسمي ليختم سرة الطفل الوليد:

«ذلك الذي نطق

فكانت الكلمات»

سرة الوليد، مختومة بالختم الطلسمي (**السكين دوله**) تظهر نقوش الأسد والعقرب والنحلة والأفعى على البطن اللدن للوليد، وبترجيع صدى، تترد كلمات الترتيلة:

«والكلمات كانت كروماً..

وكانت..

الحياة الأولى»

حشد من المندائيين، من أسرة الطفل ومن الكهنة، يرددون، ضمن طقس التعميد هذا:

«وكانت

الحياة الأولى..

....

الحياة، الأولى!»

مع قرص الشمس، وأفق المياه، ورداء الكاهن الأبيض وسرة الطفل، تَصّاعُد موسيقى على ناي منفرد بمديات عالية البوح، توحي بعمق الارتباط والهوية، وبميلودي عراقي، وبروحية جنوبية، كأن التقاسيم هي خلفية تلك التراتيل..

دجلة يتلألأ تحت الأضواء، يبدو مبنى أبيض، متوهجاً تحت أضواء المساء، مهيباً يبدو، كمكان للعبادة، وعلى لافتة بينة، مكتوب بوضوح أيضاً كلمة: (مندي).

صوت تلاطم موجات النهر، وترجيعات كلمة «**المندي**» كأن موسيقاها تخرج من الماء، بخشوع، في تناغم هارموني مع حركة الماء:

«**بيتمندا**

بيت مندا»

هذا هو إسمه؛ (**بيت العلم**) (**بيت الدين**)، هو.. إنه مكان العبادة وإجراء المراسيم الدينية يسمونه شعبياً: «مندي» ، لأنه (بيت المعرفة) والتعبد للصابئة المندائيين، حيث كلمة (**مندائي**) تطلق على كل فردٍ من أفراد هذه الطائفة، إنها تعني: (**العالِمُ**) أو (**العارِفُ بالدين**)!

في حي (**القادسية**) **ببغداد، وعلى ضفة نهر دجلة، يقع** «**المندي**»

وبلطف وهدوء يقف شيخ الطائفة (الكاهن) بردائه الأبيض في صدر المكان..

منذ القدم عرف أصل الكلمة «**صَبَأَ**» وتعني (**التعميد**) أو (**التطهير بالماء**)، **والتطهير** شعيرة من الشعائر الأساس للصابئة المندائيين..

والصابئة، في عهد الرسول محمد (ص)، **فئة على دين خاص، كاليهود والنصارى**، أجمع اللغويون على اشتقاق الكلمة من الجذر المهموز: «**صَبَأَ**» و كتبوا: «إن الصبوء يعني الخروج من دين إلى دين آخر».

وذكروا: إن العرب كانت تسمي النبي (ص): (**الصابيء**)، لأنه خرج من (دين) قريش إلى الاسلام، ويسمون من يدخل في دين الإسلام مَصبواً، لأنهم كانوا لا يهمزون فأبدلوا الهمزة واواً، ويسمون المسلمين: (**الصُباة**)، (**كما ورد في** تاج اللغة وصحاح العربية للجوهري/ لسان العرب لابن منظور/ القاموس المحيط للفيروز آبادي/ في مادة: «صَبَأَ»)

إما في المصادر الصابئية، فكلمة «صَبَأَ، ومشتقاتها من المفردات المندائية

الآرامية إحدى لهجات المجموعة العربية (السامية) التي كتبت بها المخطوطات الصابئية، حيث هي لغة الصابئة الدينية.

وكلمة: «**صبا**» غير مهموزة، ومشتقاتها، تعني **التعميد/ أو التطهير بالماء**.

والمندائيون يطلقون على هذه الشعيرة– في استعمالاتهم اليومية– اسم: «**صباغة**» فيكون تفسيرها في اللغة كما يلي:

– صبأ: صبغ: والكلمة بهذا المعنى واردة في اللغة الأكدية: «**صيبو**» و «**صيبو توم**».

– صبا: صبغ: غمس في الماء من أجل أن يتطهر ويدخل في دين الصابئة المندائيين، تَعَمَّدَ،

– صَبيت: صَبغت: أي تعمدت (تقرأ مفتوحة الصاد وبالضمة، أيضاً).

ويقول الصابئي عندما يتطهر بالماء: «صبيت بمصبوتا بهرام ربا» بمعنى: «**إصطبغت بصبغة إبراهيم الرباني**».

– مَصبوتا: صبغة، صباغة، تعميد.

– مَصطبا: مصطبغ، مصبوغ متعمد على الطريقة الصابئية.

إن الكلمة العربية التي تناظر «صَبا» الآرامية المندائية لفظاً، ومعنىً، كما هو واضح أعلاه، هي كلمة: «صَبَغ»، إذ إن هذه الكلمة تحمل المعنى المادي، وهو: **الارتماس/ أو الغمس بالماء**. كما أنها تحمل في الوقت ذاته معنى دينياً هو: **التحول**، أو الدخول في دين جديد.

نقلب الصفحة ٢٥٦ من كتاب «الصابئية المندائيون» لليدي دراوور، حيث وجوه الكهنة منذ العهد القديم، (فوتغراف) يؤدون الطقوس الدينية، يُعَمِدون، وبملابسهم البيض، كأنهم خلقوا لهذا النقاء...

وعلى لوح من الطين، وباللغة الأكدية القديمة، تخط يد، كلمة: «**صيبو**»..

وعلى رقاقة من جلد قديم، خطت بالعربية، الآية (٦٢) من سورة البقرة:

﴿**إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين مَنْ آمنَ بالله واليوم الآخر وعَمِلَ صالحاً فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون**﴾.

المندائيون ليسوا مارقين، قالت السيدة دراوور: «لقد بذلت جهداً لمحاولة سرد ما شاهدته وما سمعته وما لاحظته عن الصابئين في العراق وإيران، وقد استمرت هذه الملاحظات بضعة أعوام. وأنجزت خلالها قدراً معتبراً من بيِّنات

جديدة تتناول العقائد والعادات والطقوس وعمل الرقى التعاويذ».

وإن هذه المعلومات ذات فائدة لطلاب (علم الأجناس)، وطلاب (الأدب الشعبي)، وطلاب (علم السلالات)، وطلاب (تاريخ الأديان)، لأن الصابئة تشبثوا بطقوسهم التي يعتبرونها مهمة لديانتهم فاعتنوا بحفظ تراتيلهم، وهم بانفرادهم هذا عن سائر الأقوام، منذ ظهور الإسلام، بطقوسهم الخاصة وعاداتهم ولغتهم ودينهم، قد تجنبوا الامتزاج وصانوا التراث الذي ورثوه عن أسلافهم.

إنَّ «ثلاثة أشهر في الأهوار جنوب العراق» لمؤلفه «بترمان» تمثل المحاولة العلمية الوحيدة في حقل المشاهدة، بينما لم ير «سيوفي» طقساً واحداً بأم عينه بالرغم من أن مساهمته تعتبر أعظم ما عُرِفَ عن هذه الطائفة خارج محيط كتبهم. لقد كان معتمداً بصورة تامة على بينات «النابذين» من الصابئة، ولذا ظل هذان الكاتبان في القشر، ولم ينفذا عميقاً في روح هذه الطائفة، أو يصلا إلى جوهر تعاليمها.

أما بالنسبة للمؤلفين العرب، فقد كانوا منذ أقدم الأزمان، يعتمدون على الرواية. ولذا لا يمكن أن يقال الشيء نفسه حول ما لدينا من معلومات عن الصابئة دوّنها الكاتب السرياني «برخوني»، فقد كان يدون معلوماته كمجادل يريد (الحط) من شأن (فئة مارقة) – على حد قوله – ولكن كتابه يعطينا أدلة على نقض ما قرره عن الصابئة.

اتخذت السيدة دراوور (آل زهرون) مثلاً لها، إذ قالت: «إن وجود إسم زهرون من بين أسماء فلاسفتهم في (البلاط العباسي)، يمكن أن يقوم دليلاً على صلة الحرانيين الحقيقيين المندائيين.. فزهرون هو أحد «ملائكة» النور لدى المندائيين، كما ينتسبون إلى (هرمس)، إدريس..، ويقولون إنه أحد انبيائهم»(٤).

ما هو «المندائي»، من هو «المندائي»؟

إنَّ كلمة (مندائي) منسوبة إلى كلمة: «مَندا» الآرامية، وهي بمعنى: **المعرفة** أو العلم، وجذرها: «دا، ادا» بمعنى: عَرَفَ أو عَلِمَ.

وقد جاءت منها مفردات أخرى أهمها: (مندا): **مَعرفةٌ، عِلمٌ، إدراكٌ، تلقي، كشف.**

يطلق اسم مندائي/ أو منداىي، كما قلنا، على كل فرد من أفراد الطائفة (الصابئة) ويعني العالم، أو العارف بالدين الحق.

كما أنّ (اللغة الدينية) للصابئة هي (المندائية)، وهي (لهجة من الآرامية)، إنها : **لغة العلم**. إن كلمة «**مندائي**» وردت في «**وفيات الأعيان**» في معرض الحديث عن القاضي **أبي فتح الواسطي** المعروف باسم (المندائي)، ولكن لم يرد تفسير لهذه (التسمية).(٥)

إن كُتّاب التراث الشعبي الذين تحدثوا عن الصابئة، كابن **النديم والشهر ستاني** وغيرهما قد ذكروا ذلك مقروناً **بالحرانية** أو **الحرنانية**، نسبة إلى (**حران**) في شمالي وادي الرافدين، وقد ورد اسمها في الكتابات المندائية، وقد تركها المندائيون، بعد أن استقروا فيها زمناً طويلاً، إلى مناطق أخرى وسط العراق وجنوبه.

واسم المدينة في «اللغة المندائية»: **هوران أو هورنان**، مأخوذ من (هُور) التي تناظر كلمة «حُور» باللغة العربية ومعناها: «**البياض**»، فيكون معناها المندائي «**المدينة البيضاء**». وقيل إن«حران» تقع في شمال العراق (في وادي البليخ)– أحد روافد الفرات الأعلى– وقيل إن عائلة إبراهيم الخليل استقرت فيها، بعد هجرتها من أور الكلدانيين. وسُميّت «حرّان» بهران، على اسم «هاران» أخي إبراهيم (ع) لأنه أول من بناها فعربت إلى «حران»، وقيل إنها أول مدينة تبنى بعد الطوفان، ولبياضها سميت أيضاً: (المدينة البيضاء). وقد ورد ذكرها في الكتاب المقدس.

وكان لهذه المدينة صيتها في عهد الآشوريين لأنها مركز المواصلات التي تربط نينوى بسورية بالأناضول.

وكتب عن الصابئة المندائيين، **الجغرافيون والمؤرخون وكتاب السيرة** والمهتمون بأخبار الملل والنحل وغيرهم، فعيّنوا أماكن مختلفة شرقي الجزيرة العربية وغربها وأشاروا إلى أزمنة لوجودهم سحيقة في القدم، كزمن **شيت بن آدم** وزمن **إبراهيم الخليل**، وعهود تسبق اليهودية.

ومن أشهر الكتب التراثية التي تناولت موضوع الصابئة كتاب «**الفهرست**» لإبن النديم، (٣٧٧ هـ)، حيث خصص (**الفن الأول من المقالة التاسعة**) من كتابه للحديث عن معتقدهم، وقال إن هذه المقامة تحتوي على وصف مذاهب الحرانيين، الكلدانيين المعروفين بالصابئة.

وأورد (ابن النديم) تراجم لأعلامهم من أطباء ومهندسين وفلكيين وأدباء ممن

عاصروا الخلافة العباسية وعاشوا ضمن المجتمع الاسلامي في بغداد آنذاك ومنهم:

أبو اسحق الصابي، ثابت بن قرة، سنان بن ثابت، إبراهيم بن سنان، أبو الحسن الحراني، والبتاني صاحب الزيج المعروف بزيج الصابي.

وأورد (ابن النديم) أيضاً وجود الصابئة، أو: (**المغتسلة**) كما يسميهم، في منطقة البطائح وهي مغايض ماء دجلة والفرات ما بين واسط والبصرة والأحواز (أي: الأهوار) كما أشار إلى وجود صابئة في ميسان متثبتاً أنهم كانوا هناك أثناء كتابة (الفهرست) في معرض حديثه عن (**فاتك**) والد (**ماني**) **مؤسسّ المانوية**، الذي التجأ إلى صابئة ميسان بعد أن هتف به هاتف يدعوه إلى عبادة الله ونبذ الأصنام، كما سنأتي على ذلك تفصيلاً، إن **ابن النديم** يطلق على الصابئة اسم (**الكلدانيين**) مما يشير إلى علاقتهم بسكان وادي الرافدين القدامى، بل إنهم، كما ذكرنا سابقاً، من «**أور الكلدانيين**»، إي من ذات المنشأ **الإبراهيمي**، **أما ياقوت الحموي** (ت ٦٢٦هـ) فيعتقد بأن «الصابئة كانوا يسكنون في بلدة الطيب الواقعة بمنطقة بين واسط وخوزستان: وقد حدثني **داود بن أحمد سعيد الطيبي** التاجر: **المتعارف عندنا** أنّ الطيب **من عمارة شيت بن آدم** (ع) **وما زال أهلها على ملة شيت وهو مذهب الصابئة إلى أن جاء الاسلام فأسلموا**».(٦)

وقال المفسرون- بحسب ابن النديم - في قوله تعالى على لسان إبراهيم (ع): ﴿**إني مهاجر إلى ربي**﴾[**العنكبوت**: ٢٦]، إنه أراد «**حران**». وقالوا في قوله تعالى: ﴿**ونجيناه ولوطاً إلى الأرض التي باركنا فيها للعالمين**﴾[الأنبياء: ٧١]، **وهي** (حران).

قال **الاصطخري** (وهو من الجغرافيين القدامى ت ٣٤٠هـ) **عن قدم وجود الصابئة في منطقة سوريا**، فقدكتب في معرض حديثه عن (دمشق) ما يلي (وأظنه يقصد: القدس):

«وبها مسجد ليس في الإسلام مسجد أحسن ولا أكثر نفعاً منه، وأما الجدار والقبة التي فوق المحراب عند المقصورة فمن بناء الصابئيين وكان مصلاهم، ثم صار في أيدي اليونانيين فكانوا يعظمون فيه دينهم، ثم صار لليهود وملوك من عبدة الأوثان، فقتل في ذلك المكان **يحيى بن زكريا**، ونصب رأسه على باب هذا المسجد بباب يسمى جيرون، ثم تغلب عليه النصارى فصار في

أيديهم كنيسة يعظمون فيها دينهم، حتى جاء الإسلام فصار للمسلمين واتخذوه مسجداً».

ويذكر ابن خلدون: أن المسجد الأقصى، أول أمره، كان مكاناً مقدساً للصابئة المندائيين، يقربون إليه الزيت ويصبونه على صخرته.. وإنّ نزوح الصابئة عن القدس شرقاً إلى حرّان كان سنة ٧٠ للميلاد بعد اضطهادٍ لهم، وهي الهجرة الثانية، فالكتابات المندائية تؤيد أن ستين ألف مندائي ناصوري (٧) هاجروا من القدس إلى حرّان مع الملك الفرثي أرديان الذي امتد حكمه في العراق من السنة الثانية عشرة قبل الميلاد حتى الثامنة والثلاثين بعده وهناك التحقوا بإخوان لهم في الدين وبنوا لهم معبداً (بيت مندي)، ثم انحدرت منهم جماعات جنوباً، فسكنت على شواطيء الفرات ودجلة وكارون.

ننظر إلى أعالي الفرات، فتظهر مدينة أطلال، هي خرائب حرّان، وعلى خارطة قديمة نتابع تلك المسيرة الأولى لأبي الأنبياء إبراهيم الخليل، ثم لابن أخيه حرّان، وهو يشيد وقومه تلك المدينة البيضاء، في أعالي الفرات... بعد أن غادروا «أور الكلدانيين» إذاً، لا زالت الأرض ندية إثر الطوفان.

والذين خرجوا في المسجد الأقصى، بأزيائهم البيض المنسوجة من القطن، ملتحون، يسكبون الزيت فوق الصخرة، قرباناً، حيث القدس القديمة، الملاذ للمندائيين، كانت، قبل هجرتهم الأولى أيام الملك الفرثي أرديان، وبعد هجرتهم الثانية في العام السبعين للميلاد، حيث اضطهدهم اليهود، وحيث كان الكهنة المندائيون يتلون في صلواتهم ويذكرون، أولئك الآباء الصالحين: آدم وسام وشيت ويوحنا.. ونجد في تراتيل التعميد، أو الصباغة المندائية أن الأب (شيت) يعلم طالبي التعميد ألا يتخذوا من الشمس أو القمر أو النار شهوداً لتعميدهم، لأنها زائلة، باطلة، وينصحهم بالايمان بالحق، تماماً، كما فعل إبراهيم الخليل (ع) لاحقاً، حين آمن بفاطر السموات والأرض، وحده.. وعبر القرون ولا زال، المندائيون في مناطق متعددة من العراق، لاسيما في الجنوب والجنوب الشرقي، وفي المناطق العربية من إيران، يعمدون أولادهم مرددين الترتيلة إياها.

ذكر ابن خلدون قدم الصابئة في أرض كنعان، كما ذكر بأن المسجد الأقصى كان في أول أمره مقدساً من قبلهم، ثم دثر الهيكل واتخذه بنو إسرائيل، حين ملكوه، قبلة لصلاتهم،

وكتب ابن الوردي في تاريخه عن الصابئة مشيراً إلى قدم ملتهم، وأنهم أخذوا دينهم عن شيت وادريس وصابئي بن ادريس الذي إليه ينتسبون، وذكر عنهم قولهم «بأن أهرامات مصر إنما هي قبور لهؤلاء الأشخاص الثلاثة» (٨).

وأهم الذين تحدثوا عن الصابئة هو الشهرستاني (ت: ٥٤٨هـ)، الذي ذكر بأن الفرق في زمان إبراهيم الخليل (ع) راجعة إلى صنفين اثنين أحدهما: الصابئة، والثاني: الحنفاء. ثم تحدث عن معتقداتهم وكتب ملخصاً للأشياء التي يحللونها والأشياء التي يحرمونها (٩).

وقد أكد ناسخو المخطوطات المندائية أنهم نقلوها عن نسخة مخطوطة ببلدة الطيب.

وعثر على قطع نقود تحمل كتابة مندائية، وذلك في ميسان والمناطق المجاورة لها تعود إلى سنة خمسين ومائة للميلاد.

كما عثر خلال التحريات التي أجريت في نُفّر (ضمن حدود محافظة القادسية) بالعراق على صحون تحمل نقوشاً لأدعية مندائية تعود إلى القرن الخامس أو السادس للميلاد.

ويقول المختصون بأن (المانوية) Manichaeism متأثرة بالمندائية، وإن بعض تراتيلها المعروفة بمزامير توماس مترجمة حرفياً عنها.

أما شيت بن آدم فهو شخص مقدس عند المندائيين يعدونه (شيتل طابا) أي: (الغرس الطيب)، وهم يعتقدون بأنه رمز الكمال البشري، وأن نفوس البشر تقارن بنفسه يوم الدينونة، فمن شابهت نفسه نفس شيت طهراً وصلاحاً عُد من الصالحين وكتب له الخلود معه.

ونجد في تراتيل التعميد أو الصباغة المندائية أنَّ (الأب شيت) يعلم طالبي التعميد ألا يتخذوا من الشمس أو القمر أو النار شهوداً لتعميدهم لأنها زائلة، باطلة، وينصحهم بالإيمان بالحق.

الصابئة يطلقون على الماء اسم «يردنا» إشارة إلى التعميد الأصيل، البكر، بماء الأردن، وذلك يشير إلى أن الماء الذي استعملوه عند أول تعميدهم وممارستهم تلك الشعائر هو ماء الأردن، كما أن شعيرة التعميد أو الصباغة أو الرسم بالماء الحي، ماء الحياة (مياهيا) تتم مع ذكر اسم الله الحي، وما زالوا يمارسونها حتى اليوم، وهي شبيهة بشعيرة التعميد أو الصباغة التي ورد

ذكرها في الكتابات المسيحية حيث كان يوحنا يعمد بماء الأردن، يرددون في الوقت نفسه ذكر الفرات، ويسمونه (الفرات النوراني) أو (فرات النور) (فراش زيوا).

وثمة ترتيلة يرددها العريس أثناء مراسيم الزواج إذ يعلن بعد أن يشرب الماء المقدس دينياً، بأن نفسه قد عظمت لأنه استقى من ماء الفرات:

«صغيراً أنا بين الملائكة– الأثيريين

طفل أنا بين النورانيين

ومع ذلك

فقد أصبحت عظيماً

ونفسي كبرت

لأني شربت الماء من ثغر الفرات».

وإذا كانت المصادر المندائية تؤكد بأن الله عاقب اليهود لاضطهادهم المندائيين حين اضطروهم للهجرة سنة سبعين للميلاد، فكان عقاب الله (خراب القدس)، فإن الصابئة المندائيين ما زالوا يذكرون، حتى اليوم، الآباء القدامى الصالحين كآدم وهابيل وسام وشيت ويوحنا ثم جماعة الناصوريين الذين قدموا من القدس اللّه حران. يذكرونهم في الصلوات التي تقام على نفوس موتاهم، وحين تناولهم طعام الغفران المشترك(ذخرانا) أي في موسم الذكرى.

وإذ تطورت شعيرة التعميد، منذ كان يوحنا (المعمدان) يُعَمِّدْ بماء الأردن ويذكر اسم الله فقط،حتى ظهور المسيح وبعده، بينما بقيت على حالها عند الصابئة المندائيين، علماً بأن مغزى الشعيرة الدينية هو التطهير الجسدي والنفسي.

إضافة إلى ذلك تتحدث الكتابات المندائية عن ولادة يحيى بن زكريا / أو: يحيى يوحنا (يهيا يهانا) فتقول إن ذلك قد حدث بمدينة (ثمارا)– وهي مدينة صغيرة تقع إلى الجنوب الشرقي من البحر الميت– (حيث تكونت بذرة زكريا الشيخ الصالح في رحم زوجه اليصابث، ومنها جاء إلى الدنيا طفل نبي ينبيء بأمر الرب تعالى، وحين ولد الطفل جاء الملاك آنوش بأمر الرب العلي إلى إبراهيم ابن القدرة، وأخذوا الطفل وعمدوه في الأردن، وصار عمره سبع سنوات

جاء ملاك الرب وعلموه الحروف الأبجدية آ، با، جا، دا. وحين صار عمره عشرين عاماً علمه الدين الحق، وحينها وقف يحيى **يوحنا** على الأردن يصبغ الناس (أيِ يعمدهم)، وبماء الحياة المقدس بدأ يشفي المرضى، ويفتح عيون العمي، ويُقَوِّم المقعدين، بقوة ملك الأنوار الأعظم تبارك اسمه.

وقد وردت تراتيل عديدة بذلك:

«**باسم الحي ربي النور الأسنى**

ولد يوحنا في القدس

اليصابت ولدت ولداً من الأب الشيخ زكريا

يوحنا ولد ولمس الأردن وكان نبياً

نَورَ قلبه الإيمانُ

ونحن نصطبغ بصبغته

ونرسم بالرسم الزكي

ونأكل من زاده ونشرب من مائه

فتتفتح قلوبنا إلى النور...»

كاهن مندائي يتلو الأدعية والصلوات، حيث تتبدى أمام ناظريه، أو في مخيلته صور وجوه الآباء الصالحين، ثم يظهر **يوحنا المعمدان**، يعمد أطفال القدس في ماء الأردن.

الكهنة في العراق، يقفون عند نهر دجلة، يعمدون الأطفال في الماء، ويدعون بالرحمة لآدم وهابيل وشيت وإدريس، وصابئ بن إدريس، الذي على اسمه اتخذوا المسمى، فصار لقبهم (**الصُبَّة**) نسبة إلى (صابئ)، ويتمنون في أدعيتم أن يظل شيت (الغرس الطيب) كأنه شجرة طيبة على ضفة النهر، مقدسة، ونبيلة، ومعطاء. تنفتح المخطوطات على ذلك الغنى، وتؤكد كتب الأقدمين على ذلك التراث، ولا تكتفي، فثمة نقود، وأدعية منقوشة، وحكايات وأسفار، وآثار، إذ كثيراً ما يردد العديد من المؤلفين الشرقيين والغربيين، أوجه الشبه بين الدين الصابئي المندائي وبعض الأديان التي ظهرت في الشرق، ومنها على وجه الخصوص **المانوية والنصرانية**.

روى **المسعودي** في (التنبيه والاشراف) بأن دين الصابئية كان موحداً، وحصل اعتناق المجوسية بعد التوحيد، ولما وجدت المجوسية أن المندائيين

على أصالة عقيدتهم، اضطر رؤساء المجوسية- كي يمرروا عقيدتهم- من إدخال بعض النصوص المندائية القديمة الموحدة إلى شعائرهم، كي يؤثروا على المندائيين، ويحاولوا جرهم إلى (تعدد الآلهة أو الشرك).

أما **البابليون** وأوجه التشابه بين بعض طقوسهم وطقوس الصابئة المندائيين، فمرد ذلك أن أرض بابل هي مهد ديانة المندائيين، إذ إن مولد إدريس ونوح وحتى إبراهيم الخليل (ع)، وهم جميعاً موحدون، كان هنا. وبابل لا تعني (المدينة= الحلة) بل الدولة من أقصى الجنوب إلى أقصى شمال سوريا وفلسطين. وبالرغم من الفارق الديني بين البابليين والمندائيين من حيث توحيد الإله، فالصابئة المندائيون موحدون والبابليون متعددو الآلهة إلا أنهم لم يتمكنوا من التخلص من طقوسهم الدينية المشتركة بينهم وبين المندائيين كونهم مروا بأزمنة موحدة غير قليلة لدينهم (دين التوحيد) أيام حمورابي ونبوخذ نصر الثاني وثلاثة ملوك آخرين موحدين من الساميين.

إن حفريات بابل، تؤكد ما ذكرته **الليدي دراوور** من أن ثمة آثار بيوت قد بنيت على شاطئ الفرات للعبادة، وأن بعض طقوسهم تجري في بركة ماء داخل المعبد، ذات قناتين من وإلى النهر، الأولى تملؤها والثانية تفرغها. وتلك بعض طقوس الصابئة المندائيين ما زالوا يستعملونها حتى اليوم.

وإنْ اختلف المؤرخون في موطن الساميين الأصلي، فإنهم لم يختلفوا في وجود الهجرات، يقول الاستاذ **طه باقر** في (مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة)، كما اشرنا سابقاً، إن مهد الساميين هو الجزيرة العربية وأطرافها كالهلال الخصيب وبوادي الشام والعراق. ويعد انحسار «بحر تيش» التي كانت هي ظاهرة فيه واكتسبت خصبها منه، فانتشرت على هيئة هجرات في عصر الجفاف، وسكنوا اودية الرافدين والنيل، وسيطروا بالسدود على الفيضانات.

يعدد باقر أشهر هذه الهجرات كما يأتي:

١- هجرة الساميين الشرقيين في حدود الألف الخامسة- الرابعة قبل الميلاد إلى وادي الرافدين، حيث تعايشوا مع من قبلهم من السومريين والفراتيين- قبلهم- في تلك الربوع.

٢- هجرة الساميين الغربيين، وهم الآموريون- الكنعانيون الشرقيون، إلى وادي الرافدين والشام، والقسم الثاني هم الفينيقيون- الكنعانيون

الغربيون، في حدود الألف الثالثة- الثانية ق. م.

٣- **هجرة الآراميين بفرعيها (الشرقية والغربية) في القرن الرابع عشر- الثاني عشر ق. م** في الشام وأعالى الفرات (أعالي الرافدين)- ومن هذه اللهجة الشرقية برزت اللغة المندائية للصابئة .

٤- **هجرة القبائل العربية، ومنهم الأنباط** وقبائل أخرى في القرن الثاني ق.م إلى القرن السادس بعد الميلاد وحتى الفتوحات العربية الإسلامية.

ويرد على ألسنة الصابئة المندائيين أن الكلداني والمندائي أشقاء من آرام بن سام إذ تعتبر أشهر الهجرات وأكبرها للآراميين تلك التي وقعت في ق ١٢-١٤ ق. م، ومن أشهر قبائلهم «**الأخلامو أو الأخليمو**» (أي: **القبائل البدوية**) وقبائل (**سوحو وسوتو**) التي ذكرها الملك الآشوري (**تجلا ثبليزرا إول**) (١١١٥-١٠٧٧ ق. م) والذي أوقف اندفاعهم نحو بلاد آشور، لكن الملك (أدد- نيراري الأول) ذكرهم في حدود (١٣٠٠ ق. م)، ومن أشهر تلك القبائل «**كلدو أو كشدو كاسديم**» التي حلت في بابل منذ القرن ١١ ق. م وأقامت عدة دويلات في الأجزاء الجنوبية من العراق، ومن أشهر ملوكهم في ق ٧ ق. م هو الملك «**نبوبلاصر**» مؤسس الدولة البابلية (السلالة ٢) تحت نفوذ الملك الآشوري (آشور بانيبال)، ثم خلفه ابنه (**نبوخذ نصر الثاني**) الشهير (١٠).

ماذا عن «المانوية»؟

هل هي امتداد للمندائيين، بما أنَّ (ماني) اعتنقها حين كان في ميسان؟ بم تلتقي، وبم تختلف مع الديانات السامية في وادي الرافدين؟

■ المانوية:

تعتبر (المانوية) واحدة من أبرز الأمثلة المعتقدية التي تعرضت للتغريب والتشويه، إذ اعتبرها المؤرخون (العرب والأجانب) ديناً «**آرياً فارسياً**»، **والصحيح** أن هذا (الدين) **عراقي الموطن**. مؤسسه **رجل بابلي**، واللغة التي نطق بها وكتب هي: السريانية. والتراث الديني الذي نهل منه، **هو التراث البابلي (العرفاني المسيحي)** و**(الصابئي المندائي)**، حيث نشأ (ماني) على الدين الصابئي في ولاية ميسان- جنوبي العراق- مذ كان عمره أربع سنوات حيث رحل به أبوه.

ولد ماني في ١٤ نيسان عام ٢١٦ ميلادية في قرية (المدائن) إحدى قرى ولاية بابل، والعاصمة الثانية للإمبراطورية الإيرانية وفيها طاق كسرى المعروف (حالياً)، **وكان دين والده بابلياً وثنياً، لكنه رأى هاتفاً في منامه، ثلاثاً، يدعوه إلى الرحيل إلى ميسان وعبادة الله الواحد.**

وفي سن الشباب أخذ (ماني) يتنقل في أنحاء الرافدين، واستقر في بابل وأعلن (نبوته) (وتكوينه) **للدين المانوي**، الذي انتشر خلال أقل من قرن من الصين حتى إسبانيا وبلاد الغال. (١١)

يطلق عليه (**ماني البابلي**)، ويدعوه المؤرخون العرب والمسلمون «**نبي الله الذي أتى من بابل**» (ابن النديم/ الفهرست).

تذكر بعض المصادر أن أمه اسمها (**مريم**)، أما أبوه فاسمه «**فاتك**»- وهو إسم سامي عراقي من فعل: فتك- واسم (**ماني**) لفظه عربي (**أماني**) وهو من (**التمني**) (١٢). واللقب الذي كان يعرف به هو: «**ماني حيا**» أي: (**ماني الحي**)- نلاحظ التقارب مع «**الماء الحي**» المندائي و«**ربي الحي**». ومن (**ماني الحي**) أتى المصطلح اللاتيني لهذا الدين: (Manicheisme) أي (ماني- حيا- سيم).

إن «**الزرادشتية**» كانت الدين (**القومي**) لجميع الايرانيين، وقد تأثرت هي **بالمانوية**، وليس العكس، وبينما كانت عائلة (**ماني**)- مثل باقي العراقيين

أيامئذٍ – على الديانة البابلية، أولاً عندما كانت تقطن (بابل)، ثم بعد الاستقرار في (ميسان) اعتنقت هذه العائلة (**الديانة الصابئية المندائية**).

يعترف جميع الباحثين بأن(**علاقة**) المانوية بالزرادشتية ضئيلة جداً، ولم تدخل بعض التسميات الايرانية إلى المانوية إلا بعد انتشارها في ايران وترجمة كتب (**ماني**) السريانية إلى اللغة البهلوية، فغدا واضحاً أن (**المانوية**) إلى جانب تأثرها بالدين المندائي، تأثرت بالأفكار (**الثنوية**) للقديس السرياني (**بن ديصان**) الذي دعا إلى نوع من (**المسيحية- الثنوية**) بالاضافة إلى تأثر (المانوية) بالمعتقدات البابلية والسامية السائدة.

لقد استخدم (ماني) أسماء ملائكة اقتبسها من البيئة السريانية مثل (**جبرائيل**) و(**رفائيل**) و(**ميخائيل**) و(**اسرائيل**)، بالإضافة إلى (**يعقوب نبي العهد القديم**)، فاعتبر (ماني) نفسه «**خاتم الأنبياء**» و«**الروح القدس**» التي تحدث عنها السيد المسيح.

إن «**الثنوية**» التي اعتقدت بها «**المانوية**» أيضاً، لم تكن ايرانية، كما تصور خطأً كثير من المؤرخين الإسلاميين، بل هي أساس المعتقدات البابلية والسامية، إذ يكفي معاينة ديانات السومريين والساميين لإدراك أن ثمة آلهة للخير والنور بأسماء متنوعة: (**تموز، بعل، شمش، ايل، مردوخ، وآشور**) تقابل الآلهة الخيرة: آلهة الخير، آلهة للشر مثل (**نركال، إريشكيكال، إيرا، وموت**).

وثنائية الخير والشر وجدت تعبيرها في الأديان السامية السماوية من خلال مفهوم الله رمز الخلق والخير والنور. والشيطان رمز الشر والخطيئة والظلام. (١٣)

يتفق المؤرخون على أن (**ماني**) ولد وعاش في بابل وميسان، وكانت لغته الأم ولغة كتبه (**وإنجيله**) المعروف، هي **اللغة السريانية**، وقد ترجمت كتبه جميعاً فيما بعد إلى اللغات الفارسية، **والتركية (الإيغورية) واليونانية واللاتينية والقبطية**، وبدأ بنشر معتقده أساساً بين سكان الرافدين، ويمكن الاستشهاد بماني نفسه، وهو يحدد بدقة وبعبارة صريحة، غير قابلة لسوء الفهم والتأويل، انتماءه إلى أرض بابل، وتمايز معتقده عن باقي المعتقدات...

بعد سقوط بابل في ٥٣٩ ق. م على يد الفرس الإخمينيين، بسط الايرانيون نفوذهم على بلاد الرافدين حتى القرن السابع، أي ما يقرب من ١١ قرناً، تخلل

هذه الحقبة ثورات وتمردات فاشلة قام بها العراقيون، بالإضافة إلى حروب طاحنة بين الايرانيين والإغريق والرومان من جهة ثانية للسيطرة على العراق.

وقد تمكن الإغريق والرومان من انتزاع العراق من الفرس عدة مرات، وفرض سيطرتهم عليه مدة عقود وقرون متقطعة، لينتزعه الفرس منهم من جديد. وهذه الحقبة تشبه إلى حد بعيد الحقبة التي أعقبت سقوط الدولة العباسبة ونشوب الصراع بين الأتراك والفرس للسيطرة على العراق.

خلال هذه القرون الطويلة تمكن أهل الرافدين من الحفاظ على هويتهم السكانية والثقافية والدينية المتميزة عن ايران، وظل الانتماء السامي هو السائد، وظلت اللغة الآرامية أولاً، ثم فرعها السرياني، منتشرين في العراق بين العراقيين، بل إن العراقيين فرضوا لغتهم السريانية لتكون لغة الثقافة الأولى في الامبراطورية الايرانية نفسها، بحيث فضلت اللغة الفارسية (البهلوية) استعمال الأبجدية السريانية، والتخلي عن نظام الكتابة المسمارية الذي سبق أن اقتبسوه أيضاً من أهل الرافدين، ثم أن العراقيين ظلوا بعيدين عن الدين الزرادشتي ولم يؤمنوا به، فحافظوا على ديانتهم السامية البابلية الموروثة والقائمة على عبادة الآلهة الممثلة بالكواكب وقوى الطبيعة والمنقسمة إلى ثنائية قوى الخير والنور، الشر والظلام، علماً أن الثنائية البابلية هذه أثرت، بالضرورة، في الايرانيين وديانتهم الزرادشتية، وليس العكس، كما اعتقد أغلبُ المؤرخين.

كان ثمة وجود لطوائف يهودية نشطة في أنحاء الرافدين، منذ جلبهم من فلسطين على يد الكلدانيين، ومع انبثاق المسيحية في بلاد الشام في القرن الأول الميلادي، بدأت تتسرب، بالتدريج، إلى العراق من القسم الشمالي (الرها ونصيبين) ثم نينوى وكرخا سلوخ (الاسم السرياني لكركوك الحالية) حتى ولاية بابل ومنها إلى ولاية ميسان في الجنوب (وكانت تشمل البصرة والأهوار)، وكانت هذه المسيحية مصحوبة بتيارات عرفانية غنوصية وهرمزية صوفية مع بعض التأثيرات الاغريقية، وبدأت تتشكل طوائف مسيحية في شمال البلاد ووسطها بالاضافة إلى الصابئة في الجنوب. (١٤)

وهكذا جاء (ماني البابلي) برؤاه، محدداً إياها بوضوح، قائلاً:

«إنَّ الحكمة والمناقب لم يزل يأتي بها رسل الله بين زمن وآخر،
فكان مجيئها في زمن على يد الرسول (بوذا) إلى بلاد الهند،
وفي زمن على يد (زرادشت) إلى أرض فارس،
وفي زمن على يد (عيسى) إلى أرض المغرب والشام،
ثم نزل هذا الوحي وجاءت النبوة في هذا الزمن الأخير على يدي
أنا (ماني) رسول إله الحق إلى أرض بابل..» (١٥)

«لقد أصر (ماني) على جعل بابل (مقر) الكنيسة الأم ومركز المرجعية الدينية والحوزة العلمية لجميع الطوائف المانوية في العالم، وبقي هذا التقديس الخاص لبابل لدى المانويين حتى نهايتهم بعد ألف عام». (١٦)

كيف نشأت المانوية في بابل وميسان جوار المندائية؟ أو بتأثرٍ منها؟

تتأسس (المانوية) على الزهد والتنسك وتقديس الموت واحتقار ماديات الحياة، وتعد نشأتها في العراق بمثابة رد فعل سلبية ومتشائمة إزاء الظروف القاسية التي عاشها العراقيون في ظل الاحتلال الفارسي، وفشل ثوراتهم، ودمار الرافدين بعد تحول البلاد إلى ساحة حروب دائمة بين الامبراطوريتين الفارسية والرومانية، ثم نتيجة الشعور بالخيبة والحسرة على ضياع أمجاد بابل القدية، وفقدان الأمل بأية قدرة على الخلاص، إلاّ بالزهد وتجنب ملذات الحياة، إنه نوع من الهروب القدري نحو الله، في التصوف، وجد صدى في المندائية فاعتنقها (ماني)، فالفكرة الأساس للمانوية تتلخص بأن: **الله هو الخير والنور، والشيطان هو الخطيئة والظلام، فجميع (الأشياء الروحية)** من حلم وعقل وخيال هي جزء من قوى الخير والنور، و**(الاشياء المادية)** من أرض ونبات وحيوان وأجساد هي جزء من قوى الخطيئة والظلام، فعلى الإنسان ، وفقاً لذلك، وتحديداً: الإنسان التواق إلى الخير والخلود في **(حدائق النور) (الجنة)** أن يحتقر الجسد وجميع ماديات الوجود بالامتناع عن: الجنس، الخمر، اللحم، وتجنب جميع الخطايا، وقد يصل الأمر إلى حد **(احتقار الحياة)** و**(نبذ الجسد)** و**(تفضيل الموت)** كنوع من التطهر، وتخليص الروح والنور من **(سجن الجسد والظلام)**.

من هنا، اعتبر (ماني) أن روح الإنسان المنير تتعذب على الجسد **(صليب**

الظلام) مثلما تعذب (عيشو زاهي= عيسى الزاهي) على صليبه!

وبحسب (ماني) أن الخطيئة ترتكب بثلاث وسائل:

القلب (النية)

الفم (الكلمة)

اليد (الفعل)

لهذا فإن وصاياه كانت:

«لا ترتكب الخطيئة،

لا تنجب،

لا تملك،

لا تزرع ولا تحصد،

لا تأكل لحماً،

ولا تشرب خمراً»

هذه (الوصايا) إنما يستوجب تطبيقها فقط من قبل (النخبة الدينية) التي تنقسم، بحسب المانوية إلى أربعة مراتب: ١٢ حواريون، و ٧٢ شماسون ، ٣٦٠ عقلاء (حكماء)، ثم الصديقون غير محدودي العدد، أما (باقي) المجتمع فيطلق عليهم (السماعون)، الذين يلتزمون، فقط، بالصلاة أربع مرات يومياً، والسجود ١٢ مرة في كل صلاة، والصوم شهراً كاملاً في كل عام (في: نيسان)، ودفع العُشر والزكاة وتقديم الغذاء للصديقين.

تعتمد (المانوية) على كتب (ماني) المليئة بالشروحات والحكايات والأساطير المعقدة والمفصلة جداً، فالأسطورة (المانوية) عن تكوين الخليقة تشبه إلى حد بعيد الأسطورة السومرية- البابلية، المسماة (قصة الخلق البابلية): اينوما ايليش «حينوما عاليش» حينما عالياً، أوحينما في الأعالي، أو العلى...)، لكن أسماء الآلهة السامية القديمة تستبدل بها أسماء سريانية ومسيحية محدثة، ومذهب (التثليث) في المسيحية: (الآب والابن والروح القدس) تستبدل في (المانوية) بـ «العظيم الأول»، و«أم الحياة»، علماً بأن هذا الثالوث موجود في الأديان البابلية والسامية بأسماء مختلفة، ففي قصة الخلق البابلية يوجد آبسو (الأب) وحمو (الإبن) وتيامات (الأم)، والطريف أن فكرة (تناسخ الأرواح) التي اقتبسها (ماني) من (البوذية) حورها تماماً بما

يتلاءم مع عقيدته الخاصة، فليس أي إنسان يموت تنتقل روحه تلقائياً إلى إنسان آخر، إنما يعتمد ذلك على كونه خاطئاً أم لا.. لأن (تكرار الحياة) يعتبر نوعاً من (العقاب)، فالإنسان (المؤمن) تذهب روحه مباشرة إلى (حدائق النور= جنان اللّه) أما الإنسان (الخاطئ) فيعاقبه اللّه بانتقال روحه إلى إنسان آخر ليعيش حياة أخرى وأخرى حتى يصبح نقياً ومؤمناً، كأن التكرار هذا، هو متوالية تطهير، حتى يصل الإنسان إلى حالة النقاء الإيماني، إذ ذاك يتوقف الاستنساخ، أو التناسخ، إذ تذهب (الروح) إلى (جنة الخلود).

في سن الرابعة رحل (فاتك) بولده (ماني) إلى ميسان، بعد أن تلقى الأب، برغم وثنيته، (ثلاث مرات نداءات إلهية حين كان يتعبد في إحدى المعابد البابلية، تدعوه إلى الرحيل إلى ميسان، وكذلك تجنب الخمرة واللحم والجنس. وفي ميسان اعتنق (فاتك) دين الصابئة الذين يتكلمون لهجة آرامية قريبة إلى السريانية، وكان الدين المندائي سائداً في جنوب العراق قبل هيمنة المسيحية..).

والمندائية دين مزج بين روحانيات الهرمزية (الإدريسية - المصرية) والمسيحية (الحرانية) (الشامية) إلى جانب رموز عبادة الكواكب البابلية، وتحديداً إله القمر (سن). وقبل أن يتحول إلى دين توحيدي، بقي (ماني) صابئياً حتى سن الواحدة والعشرين، بعدها مال مباشرة إلى المسيحية متأثراً، خصوصاً بالتجربة الحياتية للسيد المسيح وعذابات صلبه، وتذكر (التقاليد المانوية) أنه في سن الرابعة والعشرين (في ٢٣ نيسان ٢٤٠م) تلقى (ماني) رسالة (النبوة) من اللّه، بواسطة الملاك (توأم= توما) على أنه (الروح القدس) الذي بشر به النبي عيسى، حينها بدأ (ماني) يعلن أنه (نبي النور) و(المنير العظيم المبعوث من اللّه)، ونتيجة لهذا جرى (طرده) من الطائفة المندائية، فرحل مع أبيه واثنين من أصحابه إلى بابل، ومنها قام بأول رحلة عبر بلاد فارس ثم إلى الهند وبعدها إلى بلوشستان، حيث عاين الأديان السائدةهناك (زرادشتية، بوذية، هندوسية) ودرسها. وبعد عامين (سنة ٢٤٢م) عاد (ماني) إلى (ميسان) بحراً، عن طريق الخليج، إبان وجود قبائل عربية قادمة من عمان كانت متنفذة هناك، تحت سيطرة الحكم الفارسي. (١٧)

وهناك (في ميسان المندائيين) خاض (ماني) تجربة مشهودة مكنته من

فرض تأثيره على حاكم ولاية ميسان (الفارسي مهر شام) فكسبه إلى معتقده، وكان (مهر شام) شقيقاً للامبراطور الفارسي (شاهبور) فتوسط لدى أخيه للسماح لماني بنشر (دينه) دون مضايقة.

وكان (ماني) بالإضافة إلى شخصيته الرسولية، طبيباً ونقاشاً ورساماً وكاتباً ومترجماً، فهو (النبي) الوحيد الذي كتب إنجيله وباقي كتبه (تزيد على سبعة) بنفسه، بينها كتاب مزين برسوم توضيحية ملونة، يعتقد بأنها شكلت الأساس الأول لانبثاق (فن المنمنمات) العراقي، ثم الفارسي والتركستاني (١٨).

بدأ (ماني) بتكوين كنيسته في (بابل) وأطلق عليها (كنيسة النور)، ثم انتشرت (كنائسه) في بلاد الرافدين، أولاً في ميسان والأهواز وبابل ونينوى وكركوك، لكن (ماني)، وتحت الحماية الفارسية، انتشر، ولم يكتف بحدود الرافدين، إذ اعتبر نفسه (عيسى المخلص للإنسانية جمعاء)، وأنه (خاتم الأنبياء):

«ندائي يتجه نحو الغرب، وكذلك نحو الشرق،
وهو يسمع بجميع اللغات، وفي جميع المدن،
كنيستي تفوق الكنائس السابقة،
لأن تلك الكنائس قد اختيرت لبلدان ومدن محددة،
بينما كنيستي أتت لجميع المدن
وإنجيلي يبتغي جميع الأوطان..»

(الموسوعة الكونية)

لهذا، بدأ (ماني) يبعث بتلامذته (الحواريين) الاثني عشر، فإلى مصر بعث بثلاثة هم (توما وهرمس وعدي)، ثم إلى بقاع الامبراطوريتين الفارسية والرومانية، لنشر دعوته الجديدة.. وخلال أقل من قرن انتشرت المانوية في مختلف بقاع الأرض، من شواطئ المحيط الهادي والهند والصين والتبت وسيبيريا وتركستان وإيران، ثم جميع الضفاف الشرقية للمتوسط، حتى ايبيريا وإيطاليا وبلاد الغال.

لقد وجدت آثار معابد وكتابات ورسوم هذا (الدين) في جميع هذه البقاع، وأهم الوثائق وجدت في جنوب مصر (الفيوم) مكتوبة باللغة القبطية (السريانية)، لذا وجدت (المانوية) سهولة في انتشارها، بين الطوائف

النصرانية، بسبب علاقتها المباشرة بالمسيح،، وتمثلها لحالة الصلب والآلام، والعذابات، التي استمدتها من المندائية (**يحيى المعمدان**) ومن المسيحية (**عيسى بن مريم**) لذا فإن من أهم الذين تحدثوا عنها هو (القديس: **أوغسطين القرطاجي**) الذي اعتنقها لعدة سنوات قبل أن يصبح فيلسوف المسيحية الأول.(١٩)

في تاريخ ملتبس بين ٢٧٤-٢٧٧م، جرى صلب (**ماني**) على أحد أبواب مدينة بيت العابات (جند شابو) في الأحواز بقرار من الامبراطور الفارسي (برهام الأول) لأسباب سياسية، بطبيعة الحال، بعد أن تحولت (بابل) إلى مركز لدين (عالمي)، ومخافة استعادتها من جديد لأمجادها السابقة وما يشكله هذا الحال من خطر على نفوذ فارس، كذلك بفعل تحريض رجال الكهانة (الزرادشتيين) الذين نقموا على (ماني) ذي التأثير المتزايد حتى على أنصارهم، ولعدائهم التقليدي لبلاد وادي الرافدين وعقائدها وتقاليدها وحضاريتها.. لقد عذب (ماني) وصلب، وقطعت أطرافه، ثم أحرقت جثته ونثر رماده، لكن (**المانويين**) **ظلوا يعتقدون بصعوده إلى السماء كالمسيح**، ويعتبرون هذا اليوم (**مقدساً**) يصومون في ذكراه ثلاثين يوماً (في شهر نيسان).

تلقت (**المانوية**) بعد ذلك عدة ضربات: على يد الرومان (عام ٤٤٥م) إذ أعلن البابا (**ليون العظيم**) قراره بتحريم نشاطها، وفي العام ٥٢٧م قرر الامبراطور (**جوستان**) الحكم بالإعدام على جميع اتباعها، لكن (المانوية) ظلت بأشكال خفية بين الطوائف المسيحية السرية في أوروبا، والمؤمنة بالتصوف والروحانيات والطقوس السحرية، والتي تعتمد في إيمانها على الأفكار الثنوية.

وفي القرن الخامس حدث أول انشقاق في (الكنيسة المانوية) حيث جرى انفصال الطوائف المانوية في آسيا الوسطى (**تركستان ومنغوليا**) ورفضوا تبعيتهم لكنيسة (**بابل**)، وكونوا (**كنيستهم القومية**)، ثم أعقب ذلك انشقاق الكنيسة المانوية في بلاد فارس، حمل اسم (**المزدكية**) نسبة إلى مؤسسها (**مزدك**) الفارسي، حيث ابتعدت عن (المانوية) صوب (الزرادشتية) مع ميول (**ثورية واشتراكية**) متطرفة، وإن كانت، بفعل نفوذها في الدولة الفارسية، قامت بالمجازر وحملات الاضطهاد ضد المسيحية والمانوية على حد سواء في

بلاد الرافدين، مما أدى إلى هجرة العديد من المسيحيين والمانويين العراقيين إلى بلاد (تركستان) وتكوين جاليات مانوية مسيحية نسطورية، هناك، نشطت بنشر الثقافة السريانية البابلية.

في العام ٧٤٥م كان الأتراك قد كونوا دولتهم (الأورغورية) على حدود الصين في منغوليا الشمالية، فاعتنق ملكهم (بوقي خان) المانوية وجعلها الدين الرسمي للدولة، ومن خلالها، وصلت (المانوية) إلى الصين، فشيدت المعابد المانوية هناك إلى جانب المعابد البوذية، حتى وصلت إلى روسيا وسيبيريا، لكن نهاية تلك الدولة (التركية- الأورغورية) عام ٨١٧م على يد (القرغيز) أدت إلى نهاية (المانوية) في آسيا، ويعتقد أنها استمرت في (تركستان) الصينية حتى القرن ١٣م، ومع اجتياح المغول بقيادة جنكيز خان جرى القضاء على (المانوية) تماماً.

والأثر الكبير الذي تركه هذا (الدين) في شعوب آسيا، تمثل في تبنيهم للأبجدية المانوية (السريانية) في كتابتهم الأوغورية التركية، إضافة إلى تأثيرات ثقافية ومعتقدية.

كانت القبائل السامية (العربية) النازحة قبل الإسلام، تندمج تلقائياً بأهل الرافدين وتتبنى دياناتهم السائدة، كاليهودية والمندائية الصابئية والمسيحية والمانوية، ويذكر أن (عدي بن عمر) ملك الحيرة (العربي) كان من أنصار المانوية وحماتها المعروفين، ويتحدث المؤرخ الإسلامي (ابن قتيبة) عن وجود المانوية في مكة قبل الإسلام:

«وكانت الزندقة في قريش قد أخذوها من الحيرة»، وشاعت، في الفترة الإسلامية تسمية «زنديق» كمرادف للمانوي، وقد جرى اقتباسها من الفرس الذين أطلقوها على (المانوية) بمعنى: (المنحرفين عن الدين)، وثمة من يعتقد بأنها مشتقة من كلمة (صديق) السريانية التي تعني (الكاهن/ أو رجل الدين/ المانوي).(٢٠)

وفي العصر الأموي تمتع أتباع المانوية بهامش من الحرية، خصوصاً في زمن الخليفة الوليد الثاني (٧٤٣-٧٤٤)، وأنه ما بين ٧٥٤-٧٧٥م كان (إمام الكنيسة المانوية) في إفريقيا هو (أبو هلال الديهوري)، ومما ساعد على نشاط المانويين في العصر الاموي، استخدام الكثير من كُتّابهم – أتباعهم- في

الدواوين في العراق بدل (الزرادشتيين)، وذلك بعد قرار تعريب الدواوين في ولاية **الحجاج بن يوسف الثقفي**، بعد أن كانت باللغة الفارسية، لكون المانويين من العراقيين الذين يتقنون العربية والسريانية، ولهذا استخدموا في عملية التعريب، مع أن د. **عبد العزيز الدوري** يطمس هذه الحقيقة، أو يستغربها![٢١]

تزايد اضطهاد المانويين، أيام العباسيين، باسم مكافحة (الزندقة والمثنوية والإلحاد والدهرية والمجون) إلا أن أتباعها كانوا نشيطين في المجال الفكري، فشكلوا «**الحلقات الثقافية**» التي أطلقوا عليها: «**إخوان الصدق**»، وهم ليسوا «إخوان الصفا» بالرغم من التقارب اللفظي، يصف **الجاحظ** (نوعية) كتبهم بأنها: «**أجود ما تكون ورقاً يكتب عليه بالحبر الأسود البراق ويستجاد له الخط**». ويذكر المؤرخون الإسلاميون أسماء عدة من المثقفين الذين اتهموا بالزندقة (المانوية) في تلك الآونة، (**وكانت الزندقة والمانوية تهمة تشبه ما جرت عليها السلطات والحكومات في اتهام المفكرين المناوئين لهم بالشيوعية/ الماركسية/ وبالهدامين**)، لقد شملت التهمة كتاباً وشعراء مثل: **صالح بن عبد القدوس، بشار بن برد، أبو نواس، أبو العتاهية، حمّاد الراوية، عبد اللّه بن المقفع**...، وغيرهم، وقد حكم بالموت على الكثير من هؤلاء المثقفين بسبب هذه التهمة، كابن المقفع الذي عذب وقطعت أطرافه ثم قتل.

وقد دفع النشاط المانوي العديد من المثقفين المسلمين للرد على معتقداتهم، وكرسوا لذلك رسائل عدة وكتباً، أمثال **واصل بن عطاء، الجاحظ، أبومحمد بن الحكم، الجبائي، النوبختي، المسعودي، الرازي، الرقي**... الخ[٢٢]. ويعتبر الخليفة العباسي (**المهدي**) (٧٧٥-٧٨٥م) أول من أعلن الحرب ضد (المانوية) وجميع التيارات المعارضة، باسم (**مكافحة الزندقة!**) حتى سمي (قصاب الزنادقة)، وقد أنشأ من أجل ذلك (**ديوان الزنادقة**) بقيادة (**عريف الزنادقة**)!! وكان أتباع المانوية يجبرون على المثول أمام القاضي، ثم يبصق المتهم على صورة (ماني) ويذبح طائراً، وذلك لأن المانوية تحرم ذبح الحيوان، وفي حالة رفضه التوبة يحكم عليه بالموت. وقد أوصى المهدي ولده الهادي طالباً منه الاستمرار في محاربة (المانوية) قائلاً: «**إني رأيت جدك العباس في المنام قلدني سيفين وأمرني بقتل أصحاب الإثنين**». وفي أواخر العهد العباسي

توسعت تهمة (الزندقة) حتى وصلت على يد الإمام الغزالي إلى كل محاولة اجتهادية تخالف المذاهب السلفية الأربعة وتنحرف عنها في التفسير. (٢٣) واستمرت (المكافحة) والاضطهاد، وتعاظم القمع مع الخليفة (المقتدر) (٩٠٨ – ٩٣٢)، ويحسب (ابن النديم/ الفهرست) فإنه في أواخر القرن العاشر الميلادي قد هبط عدد رموز المانوية في بغداد من (٣٠٠)شخص إلى (٥) أشخاص فقط، وحين اشتد اضطهاد العباسيين لهم وزاد، اضطر اتباع المانوية إلى الهرب من العراق إلى خراسان وكردستان وتركستان. ويعتقد بأن **اليزيديين في شمال العراق (شيخان/ الموصل)** هم من بقايا المانوية، الذين هربوا من جحيم العباسيين آنذاك.

إنه خروج آخر، كأن الخروج يقترن، دائماً بالمنفى والاضطهاد، منذ خروج إبراهيم الخليل (ع)، حتى هجرة محمد (ص) من مكة، وحتى يومنا هذا..

نجد تشابهاً بين **المانوية والمندائية** (التي هي في بعض معانيها **الخروج من دين إلى آخر**)، بل والإسلام أيضاً.. (الخارج عن الوثنية إلى التوحيد)..، هذا التشابه، هو تطابق في مسألة عبادة الله الواحد (**التوحيد**)، وهم يلتقون مع النصرانية واليهودية في ذلك، أيضاً.

جاء (ماني) بمفهوم (النبي المخلص) الذي بشر به المسيح، وجاء في كتبهم المقدسة بعلاماته، حيث الرهبان القدامى أدركوها، وطابقوها على (محمد). وقد اعتبر (ماني) نفسه (خاتم الانبياء). وبالإضافة إلى أن (المانوية) تلتقي بالمندائية والإسلام في : **تحريم الخمر. في الصيام، والوضوء بلا ماء (أو التراب إن عزّ الماء)، والركوع اثناء الصلاة، وبتفاصيل وصف الجنة والنار ويوم القيامة والحساب، وعبور الصراط المستقيم، ووجوب دفع جزء من أموالهم (كالعشر) (الخمس في الإسلام) و(الزكاة)**، لرجال الدين والمحتاجين..

«ويمكن الافتراض أن المانوية قد لعبت دوراً في تكوين العديد من الطوائف الصوفية والباطنية– بسبب تأثرها بالمندائية الصابئية– مثل: **الإسماعيلية والعلوية والدرزية**.. أما بالنسبة إلى تشابه المانوية مع المذهب الشيعي الجعفري– **الاثني عشري** – فإنه يبدو قوياً بحكم انبثاق التشيع في أرض الرافدين حيث كانت المانوية والمندائية نشيطة. إن الكثير من أتباع المانوية (وكذلك النسطوريين) دخلوا المذهب الشيعي بحكم اشتراكهم مع باقي العراقيين في معارضة الحكمين الأموي والعباسي، ويمكن ملاحظة التشابه

في الأئمة الإثني عشر (عند المسلمين الشيعة)، وحواريي (ماني) الذين كانوا (١٢) ايضاً مثل حواريي المسيح ومثل اسباط اسماعيل وشعب (قبائل) موسى الذين توزعوا على اثني عشر عين ماء، وعند المندائيين: (إثنتا عشرة جفنة كانت بانتظاري) في ترتيلة حنين النفس الطاهرة إلى الصعود والخلود مع الأبرار حيث (جفنة) العنب تستعمل رمزاً لدى المندائيين.

بالإضافة إلى (التنجيم) حيث الكواكب الاثني عشر، والأبراج الإثني عشر، وتقسيم الوقت إلى نهار وليل (٢٤ ساعة، نصفها ١٢ ساعة) و ١٢ شهراً في السنة،.. الخ، وهو تقويم يتفق عليه الجميع. بالإضافة إلى الميول العرفانية والإشراقية في المذهب الشيعي القريبة جداً من إشراقيات المانوية.

ثم أن مفهوم الاستشهاد وتضحية (ماني) بحياته من أجل خلاص ملته، له تشابه كبير مع تبجيل الشيعة لذكرى الحسين (ع) وتضحيته بحياته من أجل تقويم الأمة، وثبات مبادئ الإسلام والعدل.

وواقعة الاستشهاد تشكل مقاربة طقوسية في الاحتفال بذكرى كربلاء وأيام عاشوراء مع طقوس احتفال المانوية بذكرى استشهاد ماني وصلبه، وهي لا تبتعد كثيراً عن طقوس الاحتفال بصلب المسيح، وقتل يوحنا المعمدان (عند المندائيين نبياً شهيداً) وقبلها لدى الساميين في العراق والشام بذكرى موت (تموز) وعودته إلى حياة الخلود، ثم التشابه في اختيار (الحلة) ثم (النجف)– التي هي جزء من أرض بابل التاريخية، لتكون مركز الشيعة في العالم والمنطقة المقدسة ومقر الحوزة العلمية العليا، كما اختار (المانويون) وقبلهم أهل الرافدين (بابل) لتكون المركز المقدس لديانة أسلافهم» (٢٤)

وهكذا تتنافذ العقائد والأديان، فحين تختط المانوية نهجاً لها، تكون ملامحها الأساس متعالقة مع المندائية والنصرانية، مما جعل (فاتك) ثم (ماني) يعتنقان المندائية حال حلولهما في (ميسان) المدينة، الولاية، التي أخصبت هذا المعتقد العريق وحافظت على طقوسه التوحيدية على ضفاف الشطآن وحافات المياه.

وسنلاحظ، تالياً، العلاقة اللغوية المتنافذة بين المندائية والسريانية، والعربية في آن، كامتداد لمجمل التنافذ والتعالق والتخصيب، اجتماعياً وسياسياً وفكرياً.

الإحالات:

١) **ناجية المراني**: مفاهيم صابئية ومندائية، (تاريخ، دين ، لغة)، مطبعة شركة التايمس للطبع والنشر، ط٢، بغداد، ١٩٨١.

٢) **عباس محمود العقاد**: أبو الأنبياء، ص ١٠٨-١٠٩ - ١١٥.

٣) **عبد الحميد السحار**: مجلة روز اليوسف/ العدد ٢٠٣٧:

ومنذ ذلك التاريخ أقام الصابئة (وجبة طقوسية) على أرواح الغرقى من الصابئة وهي (هريسة) تتكون من مجموعة حبوب مختلفة تعرف بالمندائي بـ «العاشورية»، لأنها تجمع من (عشرة أنواع من الحبوب، تقرأ عليها تراتيل خاصة بالثواب جادت بها كتبهم، ثم توزع على البيوت غنيها وفقيرها).

قال البيروني: إن اليهود يعتبرون هذا اليوم الذي تقام فيه (الوجبة الطقسية) على أرواح (شهدائهم) هو يوم يحتفلون فيه لاندحار فرعون وجنوده (ص: ٣٢٨). ويقول **د. سامي سعيد الأحمد** في كتابه (تاريخ فلسطين القديم، ص :٢٣)- واصفاً كيفية عبور موسى (ع) البحر، بأن: «هناك ظروفاً جوية ساعدتهم على ذلك، إذ من المعروف عندما تهب في مصر رياح جنوبية- شرقية، تكون عاتية تنساق معها المياه نحو الشمال الغربي، محدثة بذلك (مخاضاً) معبراً، وهذا ما حدث عند التقاء البحيرتين المرتين من هبوب الرياح في ذلك الوقت، حيث سهل عملية المرور إلى مكان شرق السويس الحالي، أما عبور الجيش الفرعوني فكان وقت هدوء الرياح فرجعت المياه، كما كانت قبل الهبوب، فكان غرقهم.

٤) **الليدي دراوور**: الصابئة المندائيون، ت: نعيم بدوي وغضبان رومي، ص ٣٤.

٥) **وفيات الأعيان لابن خلكان**، م ٤، ص ٦٧-٦٨.

٦) **ياقوت الحموي**: معجم البلدان م ٤ :٥٣ ، وانظر: آثار البلاد للقزويني ص ٤١٧.

٧) **ناصريي أو الناصريون** في المندائية هم المؤمنون الذين يقومون على العبادة وأمور الدين، والكلمة واردة بمعناها الديني في كل من اليهودية والمسيحية أيضاً، لكن استعمالها في المندائية سابق لاستعمالها في السريانية أو العبرية، حيث جاءت منه كلمة (نصارى). أنظر: القاموس المندائي، مادة: Nasurain.

٨) **تاريخ ابن الوردي**، جـ ١، ص ٧٠-٧١ (الهامش: ١) المرجع نفسه.

٩) **الشهرستاني**: الملل والنحل، جـ ١؛ و جـ ٥ :٥ : وما بعدها.

١٠) **طه باقر**: مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة، ص ٤٩١-٤٩٢.

وأنظر: أحمد سوسه: مفصل العرب واليهود في التاريخ، ص ٥٥-٥٦.

١١) لمزيد من التفاصيل أنظر: الموسوعة الكونية الفرنسية جـ ١١، ص ٦٤٦.

١٢) أنظر: معظم الأسماء العربية- موسوعة السلطان قابوس.

١٣) فراس السواح: مغامرة العقل الأولى، ص ١٩٧.

١٤) سليم مطر: الذات الجريحة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ط١، ١٩٩٧، ص ٣٠٨.

١٥) إيران في عهد الساسانيين، ص ١٧٢.

١٦) الذات الجريحة، نفسه، ص ٣١١.

١٧) إيران في عهد الساسانيين، ص ٧٥.

١٨) الموسوعة الكونية، نفسه..

١٩) الذات الجريحة، نفسه، ص ٣١٤.

٢٠) فاروق عمر: المانوية والإسلام (التاريخ الإسلامي) ص ١٩٣-٢١٣.

٢١) د. عبد العزيز الدوري: الجذور التاريخية للشعوبية، ص ٢٢.

٢٢) فاروق عمر: نفسه، (أنظر: الذات الجريحة ص ٣١٧).

٢٣) فاروق عمر، نفسه ص ٣١٧.

٢٤) الذات الجريحة، ص ٣١٨.

٦

المعرفة

«أنا الكرمة وأنتم الأغصان»
السيد المسيح

الكرمة، أو جفنة العنب (جفنا) تستعمل رمزاً للجماعة المندائية، ورمزاً للمؤمن الصالح، جاء قول السيد المسيح: «**أنا الكرمة**،... **وأنتم الأغصان**» لأنه في «البدء كان الكلمة»، وقوله «**أنا الكرمة الحقيقية**».

المندائيون في طقوسهم وتراتيلهم عند التعميد، يمزجون بين هذين المعنيين، حيث (الكلمات) و(الكروم) معاً:

«**الذي نطق فكانت كلمات**
والكلمات كانت كروماً
وكانت الحياة الأولى»

وقولهم: **أبناء النور وأبناء الظلام، الماء الحي، الحياة الأبدية، خبز الحياة، الراعي والرعية، يوم الدين**،...

وكذلك قولهم: (فَتِشْ تجدْ، وأُطلُبْ تلقَ)

وأول ترتيلة من التعميد والصباغة تتحدث عن «الأمر»، أو «الكلمة» التي كانت بها الحياة:

«**باسم الحي**
وباسم معرفة الحي

وباسم الوجود الأزلي
الذي سبق الماء
وكان قبل الضوء والنور
ذلك الذي نطق فكانت كلمات
والكلمات كانت كروماً
وكانت الحياة الأولى...»

وتلك ترتيلة أخرى تصف حنين النفس الطاهرة إلى الصعود والخلود مع الأبرار، وقد ورد فيها اسم «جبل الكرمل» (طورا إد كرملا) رمزاً للدار العلية، ووردت الكروم (جفنا) رمزاً للمؤمنين:

«باسم الحي
صعدتك يا جبل الكرمل
إرتقيتك يا جبل الكرم
إثنتا عشرة جفنة كانت بانتظاري
رأتني الكروم
وعندما رأتني الكروم إزدهرت
ونشرت عناقيدها...»

وثمة ترتيلة ثالثة حول التماس النفس سلماً من الأعمال الحسنة ترقى بواسطته إلى مستوى الكمال حيث يخلد الصالحون:

«هناك جفنة لشيت
وأخرى لآنوش
لشيت كرمة هناك في أرض الحق
مثقلة بالإيمان
تحمل صلوات وتراتيل قدسية
وعندما ارتفعت من مكاني
التمست التماساً عظيماً
التمست سلماً
لكي أسنده بجانب الجفنة وأصعد
لأسنده على الجفنة وأرقى

لأصل إلى جفنتي
لعلها تزدهر وأتمتع بإيراقها
لعل أكليلاً محاكاً من براعمها فيوضع على رأسي»

الكلمات، الكروم، المعرفة، الحياة الأولى، كأن الكرمة تتدلى منها عناقيد المعرفة، أو أوراقها تسبح في الشمس، أو أن الشمس تخترق الكرمة، تكشف الكرمة عن نسيجها، وتصل ذاتها بالأرض ليرتقيها المؤمن سلماً إلى العلا، كي يدرك المعرفة وسر الحياة الأولى.

تلك عقيدة المندائي، ولا عجب، فكلمة (مندا) الآرامية المندائية، تناظرها كلمة (Chosis) الإغريقية بمفهومها الديني، الروحي، وتعني: **المعرفة، المعرفة العليا، أو العلم الرباني.**

وهكذا فهم يعتقدون بالخالق الأزلي العظيم الذي انبعث من نفسه، وانبعثت من لدنه وبأمره المخلوقات كلها.

يؤمنون بالله الواحد، وعقيدتهم هي «**عقيدة معرفية**»، لأنهم يؤمنون بأن للعالم «**علة**».

تحدث (ابن النديم) في الفن الأول من المقالة التاسعة من كتابه (الفهرست) عن مذاهب الحرانيين الكلدانيين، المعروفين بالصابئة، فأورد في أمرهم حكايتين مطولتين، الأولى هي الحكاية المكتوبة بخط أحمد بن الطيب تلميذ الكندي والتي حكاها عن شيخه، وتقول الحكاية:

«اجتماع القوم على أن للعالم علة لم يزل، واحدٌ لا يتكثر، لا يلحقه صفة شيء من المعلولات، كلف أهل التمييز من خلقه الإقرار بربوبيته، وأوضح لهم السبيل، وبعث رسلاً للدلالة وتثبيتاً للحجة، أمرهم أن يدعوا إلى رضائه ويحذروا من غضبه، ووعدوا من أطاع نعيماً لا يزول وأوعدوا من عصى عذاباً واقتصاصاً بقدر استحقاقه.»

ومما ورد في تلك الحكاية قوله بأن **دعوة هؤلاء القوم كلهم واحدة، وسنتهم وشرائعهم غير مختلفة، إن قبلتهم واحدة، فقد صيروها لقطب الشمال، وفي سفرة العقلاء، وقصدوا بذلك البحث عن الحكمة، وإن المفترض عليهم من الصلاة في كل يوم ثلاث، ولا صلاة عندهم إلا على طهور، والمفترض عليهم من الصيام ثلاثون يوماً، وعليهم الغسل من الجنابة، وتغيير الثياب،**

ومن مس الطامث وتعتزل الطامث القبة، ويجتنبون كل من به مرض الوضح والجذام وسائر الأمراض التي تعدي، ويتركون الاختتان، ولا يحدثون عن مثل الطبيعة حدثاً، ويتزوجون بشهود لا من القريب القرابة، وفريضة الذكر والأنثى سواء، ولا طلاق إلا بحجة بيّنة عن فاحشة ظاهرة ولا يراجع المطلقة ولا يجمع بين امرأتين، ولا يطأهن إلا لطلب ولد».

وتستطرد الحكاية فتذكر بأن: «الثواب والعقاب عندهم إنما يلحق الأرواح، ويقولون إن النبي هو البريء من المذمومات في النفس والآفات في الجسم، والكامل في كل محمود، ويكون مذهبه كل ما يصلح به العالم ويكثر به عامره».

وقولهم في النفس إنها دراكة لا تبيد، وإنها جوهر ليست بجسم ولا يلحقها لواحق الجسم.

وقال الكندي، «إنه نظر في كتاب يقرأ به هؤلاء القوم، وهو مقالات في التوجيه، على غاية من التقانة في التوحيد، لا يجد الفيلسوف إذا أتعب نفسه مندوحة عنها والقول بها».

والخلاصة: إن الصابئة المندائيين فئة موحدة تؤمن بالله واليوم الآخر، وإن لهم شرائع وأحكام معينة، مميزة.

تؤكد السيدة دراوور، المستشرقة الانكليزية المتخصصة بالدراسات المندائية، والتي عاشت بين ظهرانيهم أكثر من خمسة عشر عاماً في قلعة صالح، بأن المفكرين الحرانيين كثابت بن قرة ومدرسته، كانوا من عباقرة الصابئة الناصوريين المندائيين الذين يمارسون التعميد، وكانوا أوفياء لدينهم الذي عليه ولدوا.

إن ثابت بن قرة كتب رسالة في مذهب الصابئية وديانتهم، وسنان بن ثابت بن قرة قد نقل إلى اللغة العربية جانباً من السور والصلوات التي يصلي بها الصابئون.

وكان أبو إسحق إبراهيم بن هلال بن زهرون الصابي متشدداً في دينه، وقد جهد عليه عز الدولة أن يُسلِمْ فلم يفعل، وبقي أبو إسحق الصابي كاتباً للإنشاء في بغداد وصديقاً ملازماً للشريف الرضي، مما يؤيد أن رجال الدين والدولة لم يكونوا ليأبهوا بالأقوال التي يراد بها الإساءة إلى عقيدة هذا الرجل وعائلته.

وكانت الصابئة تقول: إنا نحتاج في معرفة الله تعالى، ومعرفة طاعته

وأوامره وأحكامه إلى (متوسط)، ولكن ذلك المتوسط يجب أن يكون روحانياً لا جسمانياً، وذلك لزكاء الروحانيات وطهارتها وقربها من رب الأرباب.

والجسماني بشر مثلنا، يأكل مما نأكل، ويشرب مما نشرب، يماثلنا في المادة والصورة، قالوا: «ولئن أطعتم بشراً مثلكم، إنكم إذاً لخاسرون».

ويذكر الشهرستاني: إن الصابئة اختلفت في مسألة الاقتصار على الروحانيات الحقة. ثم يتلوهم ويقرب منهم قوم يقولون بحدود وأحكام عقلية، وربما أخذوا أصولها وقوانينها من مؤيد بالوحي، إلا أنهم اقتصروا على الأول منهم وما نفذوا إلى الآخر، وهؤلاء هم الصابئة الأول الذين قالوا بعاذيموس وهرمس، وهما: شيت وإدريس(١) عليهما السلام، ولم يقولوا بغيرهما من الأنبياء عليهم السلام.

– إن الصابئة تدعي أن مذهبها هو الاكتساب، وأن من واجب البشر تطهير النفوس وتهذيب الأخلاق، وذلك هو: الاكتساب والرياضة.

ومذهب هؤلاء: إن للعالم صانعاً فاطراً وحكيماً مقدساً عن سمات الحدثان، والواجب علينا معرفة العجز عن الوصول إلى جلاله، وإنما يتقرب إليه بالمتوسطات المقربين لديه، وهم الروحانيون المطهرون المقدسون جوهراً وفعلاً وحالة.

ومعنى المقدسين جوهراً، بأنهم المقدسون عن المواد الجسمانية ومبرؤن عن القوى الجسدانية، ومنزهون عن الحركات المكانية والتغيرات الزمانية.

وينقل الشهرستاني مقالة الصابئة عن الاكتساب والرياضة وذلك: بتطهير النفوس وتهذيب الأخلاق والابتهال والصلوات والزكوات والصيام، فيحصل للنفوس استعداد واستمداد من غير واسطة، بل ويكون حكمهم وحكم من يدعي الوحي على وتيرة واحدة.

والخلاصة، إن الصابئة يؤمنون بالله واليوم الآخر، وإيمانهم بتلقي المعرفة والعلم الإلهي تلقياً روحياً، ووجود نصوص وأحكام وفرائض يتبعها الصابئة في سبيل إصلاح أمر دينهم ودنياهم، كالصلاة والصيام والزكاة وتحريم المسكرات ولحم الخنزير وتحريم الاختتان واتباع أحكام خاصة في الزواج والطلاق وغيرها.

من وسط الماء، تظهر كلمة «مندا» ، ومن كبد السماء، تخترق أشعة الشمس،

مثل خيوط نور، تلك الحجب، ومن الطين، نفخ اللّه نسمة الحياة في (آدم وحواء) فدبت فيهما، وصارا كائنين جميلين مطهرين، هكذا يؤمن الصابئة المندائيون، إنهم لا يعبدون الأصنام أو الصور، أو النصب من خشب أو طين، ولا الخيال.

بالتوحيد، والخلود يؤمنون، الإيمان بخلود النفس وما يتعلق بها بوسائل.

يؤمنون بالنبوة والكتاب، الإعلام الديني، أو كيفية وصول المعرفة العليا إلى الإنسان. ويعتقدون:

«بخالق عظيم هو الحي الأزلي
الذي انبعث من نفسه
وانبعثت من لدنه وبأمره المخلوقات كلها
هو الحياة التي لا يداخلها موت
وهو الطيب الذي لا يداخله سوء
وهو الغبطة التي لا يأتيها غم وألم
وهو اللطف الذي لا يأتيه غيظ أو حقد
هو الخالق الأعظم الذي بكلمته وأمره خلقت المخلوقات
وخلق أثيرين عن يمينه وشماله
وخلق آدم وحواء من طين
وخلقت زوجه من الطين نفسها
ونفخ نسمة الحياة في جسد آدم وحواء
وجعل ملائكة النور تقف في خدمة آدم
وليسبحوا ويباركوا ويعظموا اللّه الرب العلي القيوم»

إن الصابئي المندائي يتوجه خاشعاً متواضعاً طالباً الرحمة والمغفرة من اللّه الذي لا يخيب سائليه ولا يخذل مريديه.

إنه يبحث عن (المعرفة العليا)، كما تعني «مندا»، أنها ضمير الإنسان، حيث قال:

«ضميري استنار علماً».

وتضاف هذه الكلمة إلى «إسم اللّه» فتخصص دلالتها بالعلم الإلهي: (مندا إدهي).

أما رسالة يحيى بن زكريا أو (يحيى يوحنا: يهيا يهُانا)، فإنها في نظر الصابئة المندائيين أعظم رسالة جاءت بعد آدم وأولاده:

«فقد أشرق الإيمان بضميره
فقام على الأردن يصبغ الناس بمائه الزكي
ويذكر عليهم اسم اللّه تعالى
ويرسمهم برسمه الطاهر...»

وكما ألمحنا في الهامش (١) فإن المصريين اعتنقوا الديانة الصابئية على يد النبي إدريس، الذي يطلق عليه المصريون (هرمس/ أو إخنوخ)- بحسب هوميروس في الأوديسة- والذي هاجر من طور ميديا بعد أن كان المندائيون في (الطيب)، وفي مصر دعا إدريس إلى التوحيد، وعبادة الخالق، وشدد على تخليص النفس من عذاب الآخرة بالعمل الصالح والعدل والزهد في الدنيا، وأمر بصلوات ذكرها ووصفها لهم، كما أمرهم بصيام خمسة أيام معروفة من كل شهر، وحثهم على الجهاد، وأمرهم بزكاة الأموال معونة للضعفاء، وأكد عليهم الطهارة من الجنابة والحمار والكلب!.

ومن تعاليمه أنه حرم السكر، وجعل للصابئة أعياداً كثيرة في أوقات معروفة ذات طقوس، وكلها مشروحة ومجموعة في «كنزا ربا» (صحف آدم) «أو الكنز العظيم» أو (الجينزا)... والأعياد الشمسية مشروحة في (تعاليم إدريس) الذي يعرف عند الصابئة باسم (هوارا - مازادا) والذي اختصر إلى «هرمس/ أو هرمز».(٢)، كان المصريون يعتقدون بوجود إله واحد، (يرى ولا يرى، معبود صمدي، قديم أزلي، لا أول له ولا آخر) وإنهم كانوا يقدسونه ويقدمون له القرابين والصدقات، ويجلونه ويخشونه فيبتعدون عن السيئات ويرددون، كما أظهرته المخطوطات القديمة بالكتابة الهيروغليفية، ذات التعاليم والصلوات التي أطلقها إدريس (تعاليم آدم)، في مصر، وسار عليها أتباعه ومنهم (الهكسوس- العمالقة الآراميين وهم العرب البائدة):

«كل شيء خلقه اللّه العظيم بنفسه
وخلق الكائنات والأشياء
والخالق لكل مخلوق
وهو فاطر السماء والأرض
والوجود لكل ما يكون
أما مالم يكن فهو مكنون علمه

اللّه معبود باسمه الأزلي
خالق الأرواح في الأشباح
يمضي الدهور وهو باق دائماً
ذو الأزلية ووجوده أزلي
لا حد له ولا يمسك بالذراع
ولا يقبض باليد
ولا تدركه الأبصار
سميع لمن يتضرع إليه
والذي يكون
والذي لا يكون،
يختص به..
الواحد الذي لا شريك له»

ولأن الصابئة أحناف، تمسكوا بتعاليم سيدنا آدم أبي البشرية العاقلة، والتي نشرها حفيده إدريس (ع)، فإن منهم من انتحل هذا الدين تخلصاً من العقاب، كما حصل في عهد المأمون، ومن أشهر فرقهم التي شذت عن تعاليم إدريس (ع) ثلاثة:

١- أصحاب الهياكل
٢- اصحاب الأشخاص
٣- اصحاب الحلول

أما الطوائف الموحدة فأشهرها:

١- الكاظمية: نسبة إلى كاظم بن تارح الذي يقر بشريعة إدريس، وشريعة نوح، وشريعة إبراهيم الخليل (ع).

٢- البيدانية: وهم أصحاب بيدان الصغير ومن قوله اعتقاده بنبوة من يفهم عالم الروح، وأن النبوة من الأسرار الإلهية.

٣- القينانية: وهم أصحاب قينان بن أرفخشد، ويقرون نبوة نوح، وأنهم أقرب هذه الفرق الروحانية إلى المندائيين الحاليين أتباع النبي يحيى، وهم على ملة الأحناف. (٣)

ولأن المعتقد الصابئي معتقد رسالة، فهو يضع العديد من المحرمات كي

تجنب المندائي عقاب الله الخالق، فالمحرمات عند الصابئة المندائيين تلتقي كثيراً مع المحرمات التي جاء بها الإسلام.

فعند الصابئة المندائيين يحرم الزواج من الأخت (مما كانت من الأبوين أو من الأب أو من الأم) وذريتها، وذرية الأخ، وابنة زوجة الأب وابنة زوج الأم وابنة زوج الأخت وإبنتها وزوجة الخال والعم والأخ، كما يحرم الجمع بين الأختين على قيد الحياة وغير مطلقة إحداهما، كا يجري التحريم على الخالة والعمة.

يحرم الخِتان والسجود للنار أو الشمس أو القمر أو الكواكب أو الأصنام والأوثان والشيطان.

يحرم النظر إلى المحصنة بريب، كما يحرم الزنا واللواط- وهما من الكبائر إذ لا شفاعة للزاني و الزانية والقوادة.

يحرم القتل والقتال إلاّ في حالة الدفاع عن النفس والشرف والمال، أو الجهاد عن الوطن والدفاع عنه بالنفس، لذا حلل عندهم الانخراط في سلك الجيش ما عدا العلماء (علماء الدين) الذين يتعذر عليهم تناول الطعام والماء وطهيه إلا بأيديهم أو بدرجتهم.

كما تحرم المندائية شهادة الزور، وخيانة الأمانة، وحلف اليمين (لأي سبب كان).

ويحرم قطع الطريق والسلب والنهب، والفتنة والغيبة والنميمة والتشدق والسحر والشعوذة.

ويحرم الظلم بمختلف ألوانه، والربا وربح الربا واحتساء الخمر.

يحرم أكل (أو شرب) دم الحيوان، ولحم ما افترسته الضواري من الحيوانات، أو المريضة منها، أو لحم الميتة، ولحم النعاج منها دون الذكور

كما يحرم أكل من له ذنب من الحيوانات المكسو جلدها بالشعر، ولحم من ذبح على غير الطريقة المندائية.

كما يحرم حلق الذقن والشارب والشعر والأخذ منهما.

ويحرم الاقتراب من الزوجة قبل فوات ثلاثين يوماً على الأقل – ويفضل خمسة وأربعين يوماً – على ولادتها، ويستحسن بعد تعميدها من النفاس.

كما يحرم القيام بأي عمل قبل الاغتسال من الجنابة، ويحرم الاشتغال في

أيام الآحاد من كل أسبوع والأعياد، لراحة النفس والجسم: «**نفسك مطيتك فارفق بها**»، **كما يحرم التغوط والتبول في الماء لقدسيته.**

ومعلوم أن الأجيال الحاضرة لا تتقيد ببعض «المحرمات» وأهم ما لا يتقيدون به: **الأكل والشرب والخمر والحلاقة.**

يعتبر المندائيون «**الروح**» سجينة الجسم في عالم الظلام، وحين تتخلص من هذا السجن ستعود إلى عالم الأنوار، أي بعد انتقالها من العالم المادي إلى العالم الروحي:

«**الجسد فان**

والروح باقية»

وثمة (**الطقوس**) التي تقدم للروح، التي تعرض للحساب من أعمال الدنيا، من قبل الملاك «أو اثر مزينا» (**منكر ونكير عند المسلمين**)، لذا تقام لها «**وجبات طقسية**» لاعتقاد المندائيين بخلود الروح وذلك بعد الانتهاء من مراسيم الدفن.

إن المندائيين **يؤمنون بالعوالم الكونية الأخرى**، وانعتاق الروح من (**سجن عالم الظلام**) (**اري تيبل**)، وفي (المعرفة) المندائية، هناك «**الملاك الاثري**» «كائنات شبه إلهية» موكلة بحمل إرادة الحياة العظمى وتنفيذها بأمر الخالق، وأما «**الملكي**» فتعني كلمة (ملكا) أي (ملك) وليست (ملاكاً..) (كما يقول ليدز **باريسكي**) أما ملاكياً أو ملاخي.. أما (الأثري) ومفردها (إثرا) فتدل على (**الأرواح الخيرة**) التي تهب الحياة وتديمها بالخصب والغنى على شكل مطر وينابيع، لذا عدت أسماء زوجتيهما «**أنانيا**» أي (سحباً) (لاحظ الشبه مع إنانا– عشتار) و«**نطفتا**» أي (**قطرات**)، كلاهما واهبا الماء وهو رمز الحياة وإدامة الثروة والخير لحد الطفح من هذا الماء الحي.. (لاحظ نطفتا ومقاربها العربي: نطفة.. إنهما تكادان تعطيان المعنى نفسه: **النماء والحياة**. كما أن (الأثري) تطلق، أيضاً، على الأرواح النورانية المضيئة، وما مجموعة النجوم التي تكون«الثريا» – وهي تصغير ثروة– **إلا واهبة الضياء والنور لتبديد الظلمة والكرب**..

قال البيروني: «**إن هذه المجموعة كان ينظر إليها العرب بأنها واهبة المطر**»، وهذا ما ورد في كتاب الصابئة المندائيين المقدس كنزا ربا – بترجمة الليدي دراوور (ص ١٥٦).

و«هيبل زيوا، أو أباثر راما»، فيعرف عند المندائيين بـ «واهب النور» أو «جبرائيل»، وهو ليس «هيبل بن آدم» أو انشي (آنوش) بن شيتل (شيت) الذين يشكلون عائلة آدم البشرية (منشأ الجنس البشري)، بل إن (أباثر راما)، (ملكه منداد دهي) (دراوور: ١٥٩).

أما «أباثر موزانيا»: فهو مسؤول الموازين التي توزن بها الأرواح بحسب أعمالها لتنال عقابها الذي تستحق قبل ذهابها إلى «الجنة» (آلم إد نهوره)، وإعتاقها إلى عالم النور مباشرة إذا كانت غير مرتبطة بجرم.

و«ابثاهيل»: هو الذي يحكى عن (الشفياهي): الجن، إضافة إلى أنه (يتسلم) أرواح الموتى الجدد ويطلقها عند (اباثر موزانيا).

«ميه هي»: هو ماء الحياة، أي باعث الحياة الطيبة، المياه العذبة، ومنها مياه دجلة والفرات، إحدى أنهار الجنة الأربع، كما ورد في «كنزا ربا» (ص ١٦٨).

«الروهة»: هي الروح في الحياة المادية. و«مشوني كشطة» هو العالم الأوسط بين عالم الأنوار والعالم الدنيوي، ويسمى، أيضاً، (العالم المثالي للحياة غير المنظورة).

والمندائيون ضد «كنز الأموال» ومع تقديم الصدقات والمساعدات للمحتاجين وتسمى الصدقة (زدقا) وهي «العطاء مما يملكه الفرد».

وفي الارث، لم يتطرق الدين المندائي إلى الملكية، بل ذكر «كنزا ربا»:

«إن الذين يجنون ويتركون لأبنائهم

إنهم ينحدرون إلى نار مستعرة»

لذا أعطى الدين الصابئي الذكور والإناث حقوقاً متساوية، والتجأ المندائيون، أخيراً، إلى «الشريعة الإسلامية» ليتبعوا قوانينها في الإرث والنفقة.

ويعتقد المندائيون بأن من يعيش بلا زوجة طيلة حياته فهو رجل ناقص «لا يدخل الجنة» فالزوجة متمم لحياة الرجل، والإنجاب جزء متمم للدين، والرهبنة محرمة في الدين الصابئي، لأنها ضد الحياة، حتى أن الروحاني (ترميذه) غير المتزوج لا يرتقي مرتبة أعلى ولا يصل درجة «كنز فره» مهما بلغ كماله الديني أو عِلمه اللاهوتي.

لذا يهتم الدين المندائي بالزواج والمهر، كما سنرى في فصل الطقوس، لأن المندائي لا يجوز له الزواج بأكثر من زوجة، شريطة أن يكون السبب شرعياً، كعدم إنجاب امرأته الأولى، أو مرضها بغير أمل للشفاء، ولذا يوصي الدين المندائي بالعدل بين الزوجات، كما يمنع الزواج من غير الصابئة، إلى جانب ما ذكرنا في «المحرمات».

ان الدين المندائي يعطي للمرأة الحقوق كاملة كحق التعليم وحرية العمل واختيار الزوج، ويمنع معاملتها بقسوة.

ويجوز للمرأة العمل الكهنوتي، وقد ارتفعت بعضهن إلى رتبة (رئيسة أمة) وهي أعلى درجة كهنوتية، كما أجاز الدين المندائي للمرأة حق طلب الطلاق إذا كان الزوج مريضاً مرضاً معدياً لا شفاء منه، أو كان سيء الأخلاق، أو عاجزاً عن إعالة الزوجة والأطفال، أو عاجزاً جنسياً، أو إذا ترك دينه وتزوج من غير صابئية، أو إذا طلب من زوجته ممارسة الفحش.

ومثل ذلك من حقوق يمنحها الدين المندائي للرجل في طلب الطلاق، فالطلاق في الدين المندائي، «فرقة بين زوجين لا يجوز لأحدهما العودة إلى الآخر إلاّ بعقد جديد».

وكما هو معلوم بأن لب الدين الصابئي المندائي وجوهره هو تكريس قوانين الخلق والحياة والخصب وأن رمز ذلك لديهم هو «الماء الحي»، فإن «النور» هو القوة الثانية الجوهرية في دينهم، يتجسد في مجموعة الملائكة النورانيين أو الأثيريين (الأرواح النورانية)، الذين يمنحون الكون نعمة النور والصحة والقوة والفضيلة والعدل.

وكما أشرنا إلى «النظافة» و«صحة الجسم» و«الطاعة الطقسية»، التي لابد أن يلازمها بحسب الدستور الأخلاقي للمندائيين، سلامة العقل والضمير، فإن الاعتقاد بكينونة عليا سامية لا هيأة لها، يكون التعبير عنها، عادة، في خلق العوالم الروحية والأثيرية والمادية، هو السائد لديهم، وحيث أنيط بمخلوقات نجمت عن الخالق وبإرادة منه، فهم يعتقدون أيضاً بثنائية الكون وازدواج الشيء وضده وتلازمهما: كالنور والظلام والخير والشر، ووجود كون منظور وآخر غير منظور شبيه به، واعتبار الروح منفية وأسيرة في الجسم، وأن موطن تكوينها وأصله، هو «الكينونة العليا» التي تعود إليها بعد تحررها من الجسم.

كما يعتقدون بتأثير النجوم والكواكب على مصائر مظاهر الحياة والبشر كافة، لذا فثمة لغة طقسية مليئة بالرموز والاستعارات تمثل أفكاراً وصفات قابلة للتجسيد تتخلل طقوسهم، كما أن هناك أسراراً دينية لمساعدة الروح، أو ضمان بعثها من جديد في جسم أثيري، ثم صعودها من عالم المادة إلى عالم الأنوار.

لذا يؤمنون بضرورة الالتزام بسرية عظمى، إذ يعتقدون بأن هناك أسراراً دينية لا تباح معرفتها إلا للقلة من المكرسين دينياً. وعلى هذا فالصابئة المندائيون ينقسمون إلى قسمين مميزين: فئة الناصوريين وهم المسؤولون عن حفظ الدين وإقامة الشعائر، ومنهم (الملك الناصوري أردوكان ملكا) الذي قاد هجرة المندائيين الأولى ليستقروا في حران، ثم في ميسان، والطيب. والفئة الثانية هي الفئة الغالبية المسماة (المندائيون- العامة).

ولأن المندائيين يؤمنون بضرورة وجود (مخلوق متوسط) بين الروحانية والمادية، يهدي الناس إلى الحق، وأن «كلام اللّه» لا يصل إلى الناس إلا بواسطة (مخلوق بين النور والتراب)، جاء في كتاب «دراشة اد يهيا» (تعاليم يحيى) أو «دروس يحيى» قوله:

«أنا ملاك الرب الحارس
نزلت لأنظر بيوت العالم
الذي أرساه اللّه سبحانه وتعالى
بكلمة»

إنه:

«الماشي على أجنحة الريح
الصانع ملائكته رياحاً
وخدامه ناراً»

لذا تقوم أخلاقية الدين الصابئي المندائي على اعتبار «العمل الصالح فريضة» فمن تعاليم يحيى بن زكريا قوله:

«صوموا صوماً عظيماً
لا عن أكل أو مشرب هذه الدنيا
إمسكوا أعينكم عن الغمز واللمز

ولا تنظروا بسوء، أو تعملوه
إمسكوا آذانكم عن التنصت لأبواب الآخرين
إمسكوا أفواهكم عن قول الكذب والزيف والتأويل
ولا تحبوا الأباطيل
إمسكوا ضمائركم عن ظنون السوء والبغض والفِرقة
ولا تدعوها تحتل قلوبكم
إن الذي يحتل البغض قلبه لا يعتبر مسلماً مؤمناً
إمسكوا أيديكم عن ارتكاب القتل وعن السرقة
امسكوا أجسادكم عن معاشرة أزواج الآخرين
إمسكوا ركبكم عن السجود للشيطان
إمسكوا أرجلكم عن السعاية في السوء
أمرناكم كلكم أن اسمعوا صوت اللّه»

وتؤكد تعاليم يحيى على عمل الخير وحب العلم واحترام المعلم:

«من علمك حرفاً صار لك سيداً»

«اطلب تجد
وسل تلقَ»

«طوبى لمن عمل صالحاً
وويل لمن عمل خبيثاً»

«كونوا عمالاً يعمّرون الأرض
ويرفعون بأجوائها النبات»

كما تؤكد تعاليمه على التراحم والبر والمحبة ومراقبة النفس:

«طوبى لمن عرف نفسه وقوم لبه»

وفي التعفف والزهد قال:

«لا تحبوا الذهب والفضة ومقتنيات هذه الدنيا الباطلة
لا تحسدوا أو تكونوا عبيداً أرقاء للمال
ما دام ربكم هو الواهب»

«لا يوسركم الجسد
لأنه من يستعبده الجسد، يذل»

ومن تعاليمه:

«رأس دينك ألا تدنس كلماتك بالكذب والأباطيل

رأس زكاتك أن تزكي نفسك من الحقد

رأس صلاتك وتسبيحاتك أن تحب مخلوقات اللّه»

وفي العلم:

«رأس علمك أن تعلم الآخرين بكلمات طيبة زكية

ويل لعالم لا يعطي من علمه

وويل لجاهل مغلق على جهله

كل من يَعْلَمْ ولا يُعَلِّم يطرد وينفى

كل من لا يقود ابنه إلى العلم

يكون مذنباً في يوم الدين»

«إن رأيتم طيباً فخذوا من حكمته

وإن رأيتم سيئاً فاحذروه

وحيدوا عن دربه

ولا تقتفوا أثره»

«كونوا لطفاء متواضعين تجاه معلميكم

من ذوي الحكمة والثقة

ولا تتكبروا عليهم»

«أطلبوا من على الأرض، وأنا آتيكم من ثمراتي العالية

إبغوا بيمين الجسد وأنا آتيكم بيمين الحق

لقد طلب الأقدمون وأعطوا، ويطلب اللاحقون ويعطون

أطلبوا تجدوا لأنفسكم ولأرحامكم وأرحام أرحامكم ولرب سر الحياة الأكبر»

ومن تعاليمه:

«يوهب كل إنسان بقدر ما عَمِلَت يداه

كل من تعب ونصب يأتي ويصيب بكلتا يديه

ومن لم يتعب وينصب يبقى محروماً من العطايا

سيبتغي ولا ينال

ويسأل ولا يجاب

طالما كان قادراً ولم يعط
سيبقى باحثاً حواليه من غير جدوى»
«رأس إنسانيتك أن تحترم الناس
رأس شفقتك أن تشفق على الأنفس العانية المضطهدة»
وفي التراحم والبر والمحبة قال، أيضاً:
«وتراحموا وبروا ببعضكم البعض إلى اليوم الآخر العظيم
إذ تبطل إخوة الجد وتقوم إخوتكم ومحبتكم بالحق
فترفعكم أعلى عليين»
«أيها المختارون المسلمون كونوا لطفاء وليرحم أحدكم الآخر بالحق
وستصعد رحمتكم إلى باريكم»
«يا أيها الرجال إن اتخذتم لأنفسكم أزواجاً فاحبوهن
وليحفظ كل منكما الآخر»
«أوقر أباك وأمك وأخاك الأكبر»
وفي النفس:
«داعي اللّه يدعو كل إنسان يرقب نفسه
طوبى لمن عرف نفسه وقوَّم لبه»
«كل إنسان يرقب نفسه
ومن يرقب نفسه يخلص من النار المتلفة
ومن يمدح نفسه يكذب عليها»

ولم تتوقف (المعرفة) المندائية عند هذه التعاليم، حسب، بل هناك كتبهم الأخرى: (كتاب حران كوثيا - حران السفلى)، و(كتاب النياني: التراتيل والصلوات)، و(سيدره اد نشماتا - المصبتا: كتاب التعميد)، و(ترسر الف سياله: اثنا عشر ألف سؤال)، و(القلستا: كتاب عقد الزواج)، و(مصبته إد هيبل زيوا: عماد جبريل)، و(اقماهي وزرسته: كتاب الاحراز)، و(ديوان اباثر: ديوان محاسبة الأرواح ووزنها)، إلى جانب (دراشة اد يهيا: دروس يحيى)، وكتابهم الرئيس:

(كنزا ربا: الكنز العظيم، أو: تعاليم آدم) الذي يقع وحده في حوالي ١٢٠ ألف كلمة بحسب ترجمة البروفيسور ليدز باريسكي إلى الألمانية، بعد أن ترجمته الليدي دراوور إلى الانكليزية.

في هذه الكتب وفي سواها تكمن (المعرفة) المندائية.

وفي الفصل التالي سنتعرف إلى مفهوم المندائيين للعالم (**عالم النور (الماد نهورا)** وصفات الخالق، **وعالم الظلام**.

في محاورة مع النبي شيت (ع) – قامت بترجمتها الباحثة ناجية المراني [٤]، جاء ما يلي:

«باسم الحي نهضت ولقيت جمعاً من الناس يحيطون بأبينا شيت، قالوا: تعال معنا إلى الأردن لكي نتعمد».

فقال سيدنا شيت: إن ذهبت معكم لتعميدكم في الأردن فمن سيكون شاهدكم؟

فقالوا: الشمس المشرقة علينا ستكون شاهدنا.

فقال: ليست الشمس مطلبي، ولا هواها نفسي، فالشمس التي عنها تتحدثون، تشرق من الصباح وتغرب في المساء، الشمس التي عنها تقولون، ما هي إلا باطل زائل سيأتي إلى نهايته، الشمس ستنتهي إلى لا شيء، وعابدو الشمس سينتهون إلى لا شيء.

باسم الحي نهضت، نهضت ولقيت جمعاً من الناس يحيطون بأبينا شيت ويقولون له:

قالوا باسم الحي يا أبينا شيت، تعال معنا إلى الأردن كي نتعمد.

فقال: إن ذهبت لتعميدكم في الأردن فمن سيكون شاهدكم؟

فقالوا: القمر الذي يشرق علينا سيكون شاهدنا

فقال: ليس القمر عنه تتحدثون، يرتفع في الليل ويهبط في النهار. القمر الذي عنه تقولون ما هو إلا باطل زائل سيأتي إلى نهايته. القمر سينتهي إلى لا شيء، وعابدو القمر سينتهون إلى لا شيء.

وهكذا يتكرر السؤال والجواب عن النار ويرفضها أبونا شيت، وأخيراً يكون جواب طالبي التعميد وجواب الأب شيت كما يلي:

«الله هو الشاهد، وماء الأردن وشاطئه سيكونا شاهدين عند التعميد، ولقمة الغذاء وجرعة الماء والايمان الحق ستكون شهودنا..

هذا البيت الذي يجمعنا للعبادة والصدقات نجمعها.. ستكون شهودنا

فقال أبونا شيت:

هذا هو مطلبي وهذا ما تصبو إليه نفسي، فحينما تصعد أرواحنا إلى دار البقاء، فيسألني الحي، ستأتي تلك الشهود وستكون شهود حق، واللّه هو المزكي».

وفي الحث على العمل، هذه ترتيلة:

«لكل حسبما قدمت يداه،

حيث إن من تعب وقاسى طويلاً سينال بكلتا يديه،

أما ذلك الذي لم يشق ولم يعمل فسوف يقف خالي اليدين

لسوف يطلب ولا يجد

ويسأل ولا يلقى،

فقد كان قادراً على العطاء وما أعطى

لذلك فسوف لا يجد إن هو طلب

أنت المسبح أيها الرب

لأنك لا تترك محبيك»

وعن (صفات الخالق) ومنزلة الإنسان بين مخلوقاته، هذه الترتيلة (البوثة) وهي مقاربة للأسماء الحسنى في القرآن الكريم، وامتداداً لأسماء مردوخ (الإله) وصفاته الخمسين، كتقليد، وهذه الترتيلة تضم (٧١) فقرة، هذه بعضها:

«مسبح الرب ومزكاة ذاته، رب العوالم كلها، مسبح مبارك ومُسَبّحٌ معظم،ذو الوقار. القيوم الإله الرب العلي، وسبحانك ملك الأنوار العلية، اللّه الحق القوي المتفرد، اللامحدود ذو النور الزكي، النور العظيم الباقي، الغفور التواب ذو الرأي والرحمة، مخلص كل المؤمنين، ومقوم كل الطيبين، العزيز الحكيم العليم البصير، وسلطان الأشياء كلها، إذ لا كفوء له بتاجه، ولا شريك بسلطانه، إذ لا يطوله كيل وحساب أوحد، نور لا يأتيه ظلام حياة هؤلاء لا يأتيها موتٌ، طِيبُ هؤلاء ولا يأتيه سوء، لطف هؤلاء لا يأتيه حسد وحِقد، غبطة هؤلاء لا يأتيها غم وألم، طوبى لمن عرفك وطوبى لمن اعترف بك، طوبى لمن تبصر بك وطوبى لمن دعا إلى التبصر بك، لمن دعا إلى تأملك، طوبى لمن تأمل حكمتك وتخلص من شقاء وأذى هذه الدنيا..» (٥)

إن صفات الخالق هي بعض الأسماء الحسنى التي تصل عند المندائيين إلى (٣٦٠) إسماً، وهي مقاربة لعدد أيام السنة.

وهذه تكملة الترتيلة (البوثة الدينية)، والتي يطلب فيها المندائي (الغفران من اللّه) بحسب ناجية المراني (٦):

«كل يد من أيدينا سارقة، وكل شفة من شفاهنا كاذبة، وأنت ذو الرحمة، حين تبرؤنا لا يخطئنا أحد، إحكمنا بقضائك لا بقضاء الأرض، وإغفر لنا جهالتنا، ولا تحشرنا مع السادرين في غيهم من الناس، لقد قست علينا الحياة الدنيا ولكننا لم نقع لأننا مزودون بالحقيقة، حقيقتك أنت ومنها نستمد الثقة.

أنت الذي اسمعتنا كلمتك، وأمرتنا بأمرك: اطلبوا على الأرض وسأزودكم من ثمرات السماء، فتشوا تجدوا، فتش وسوف تجد لنفسك ولأصحابك ولأصحاب اصحابك، ولهؤلاء الذين يحبون العائلة الإنسانية جمعاء،

أنت يا أبا الملائكة، أنت الملجأ والمنار، والفاهم ما في الأفكار والضمائر، ولا يخفى عنك حتى ما تخفيه أعمق الظلمات، من ينشدك يجد، ومن يسألك يلقى، أنت فاتح الأبواب المغلقة.

حين تطفئ الدنيا، الأنوار، ستغفر خطايانا وذنوبنا، وتقوّمْ عثراتنا. استقبلنا طاهرين لا مذنبين، وفاضلين لارذلاء،

ندعوك أن تدع قبساً من نورك يضيء دربنا، وشيئاً من جلالك يغمرنا،
أنت الشافي فوق كل من يشفي، والرافع فوق كل من يرفع،
أنت يا من فتحت أبواب الحقيقة، وكشفت الغامض،
عظيم اسمك، ومسبح أنت الوجود الأزلي، وأنت العِرق، وأنت الأبُ
وأنت فوق الأرض والسماء، وأنت المهيمن..»

ومن التراتيل الدينية الصابئية التي أوردتها الليدي دراوور في كتابها «الصابئة المندائيون» عن كتاب «كنزا ربا»: (٧)

«موجود الحي، موجود ماري، موجود مندادهي، بشهادة الحي، وبشهادة ملك عالم الأنوار.

الإله الذي انبعث من ذاته، لا باطل باسمك ولا مبطل، يا حي يا ماري يا مندادهي،

سبحانك ربي عهداً احفظه باسماء الحي الرب، قوموا، قوموا بخير متصدقين، قوموا

أتقياء مؤمنين، قوموا،

أسجدوا وسبحوا العظيم، وسبحوا الملك شيشلام العظيم، وسبحوا الأسرار الربانية الخفية، وسبحوا الياور العظيم، لازلات الكبير،

وسبحوا لسيمات هي، الأم التي منها كل العوالم

وسبحوا للعين،

وأكرموا عمتكم النخلة،

الذي منه نشأنا، ونسبح لملك عالم الأنوار

الرؤوف الرحيم..»

و«شيشلام» يعني: «السلام» وهو من أسماء اللّه الحسنى.. كما أور - شليم - أور - السلام - «مدينة السلام»: المعنى العربي للاسم «العبراني».

الإحالات:

١) **قال ابن خلدون في «المقدمة»:**

«سميت مصر نسبة لمصر بن بيصر، أحد أحفاد النبي (نوح). وكان أهلها صابئة، ثم حملهم الروم– لما ملكوها– على اعتناق النصرانية، فاعتنقوها بعد الصابئية. كما حملوا غيرهم من الأمم المجاورة لهم على ذلك أمثال: السلاجقة والصقالبة والروس والقبط والأحباش، فقد اعتنقوا كلهم النصرانية ورجعوا عن دين الصابئية».

أنظر: إبن خلدون، المقدمة، جـ ١، ص: ١١٦– طبعة ١٩٣٦م – ١٣٥٥هـ – بإشراف: شكيب أرسلان، وقام بتصحيح أصوله وضبط أعلامه: علال الفاسي وعبد العزيز ادريس.

٢) **عفيف عبد الفتاح طباره:** مع الأنبياء، ط١، بيروت، ص ٥٧.

٣) إن الفرق بين الملة والدين، إنهما لا يختلفان في جوهرهما، ولكنهما يختلفان معنى، فالدين يستدعي صلة الإنسان بالله، أما الملة فتنتسب إلى النبي مؤسس المجتمع الديني، وهي آراء وأفعال مقدرة بشرائط، كما تطلق على أي دين سماوي كما لاحظ الفارابي.

أنظر: (**الفارابي** والحضارة الانسانية) الكتاب الصادر عن مهرجان الفارابي ببغداد، وزارة الثقافة والأعلام، ص ١٦٥.

وكذلك كلمة المندوب الفرنسي بترجمة الدكتور إبراهيم السامرائي، ص ١٢٨.

ومن الطريف أن المندوب التونسي أشار في كلمته إلى إن فلسفة الفارابي كانت الصابئية.

٤) **ناجية المراني:** أضواء على الصابئة المندائيين: مجلة التراث الشعبي، بغداد، العدد ٩ السنة ٥، ١٩٧٤ ص ١٢–١٣، وعن مصادرهم الدينية (كلاستا) ص ٣٠: نفسه.

٥) **عن كتاب** «كنزا ربا» ص ٢٥، بترجمة عن الألمانية (ليدزباريسكي) قامت بنشرها الباحثة ناجية المراني ضمن موضوع: «هل المندائية لهجة من العربية؟»، مجلة التراث الشعبي، العدد ٢٣ السنة ٧، ١٩٧٦.

كما قرأ النص عن المندائية، مباشرة الشيخ عبد اللّه الشيخ سام، بداره يوم ٢٧ / ١٢/ ١٩٧٧، **والشيخ** غريب الشيخ مصبوب، بداره في ١٧/٤/١٩٧٩، والذي أكد أن الصابئة تسمي اللّه بالأسماء الحسنى وعددها ٣٦٠ اسماً.

٦) ناجية المراني: أضواء على الصابئة المندائيين: مجلة التراث الشعبي العدد ٩ السنة ٥، ١٩٧٤ ص ٢٣.

٧) **دراوور: الصابئة المندائيون**– بالانكليزية– ص ٣٥٠–٣٥١.

٧

العالم

«أنــــا .. مــــلاك الــرب الحـارس
نـــزلت لأرى عـــالم الـــعـــهــد..
الـــذي أرســـاه الـلّــه بـكـلـمـة»
من تعاليم يحيى

في «علوم الكلدان» البحث الذي قدمته (مرغريت روثن) وهي أمينة من أمناء المتاحف الفرنسية الوطنية، اشتغلت ردحاً طويلاً بالآثار(١)، قدمت خدمة جليلة في التركيز على مغامرة العقل الأولى، في حضارة وادي الرافدين، وبخاصة (علوم البابليين) أو «الكلدان».

بتجميع نصوص، من خلال تعاليمهم وأساليبهم ذاتها، يمكن حصر تلك العصارة الفكرية التي قدمها القدامى،عرافين أو منجمين أو سحرة، حيث تمثل الجانب (الوضعي) للعمل، وقبل إطلاق المحرومات عليها.

إنما غدت معروفة، وتطورت، بسبب ارتكازها على مبادئ ثابتة (للمنطق) البابلي، وذلك لدى محاولته (فض) معضلات وضعتها المعتقدات القديمة، وتمثلت فيها بشدة، معاناة البشرية المبتلاة– آنذاك – بالجوع والخوف، واليائسة لعدم مقدرتها على مقارعة المصير المحتوم.

إن تفكيرهم، إنما كان يتم بالمقارنة، أولاً، ثم بالاستدلال، أو بالاستقراء والاستدلال معاً، كما كان الحال في العصر الوسيط لدى احتكاك الغربيين بعلوم الشرق.

مبدأ المقارنة، هو الأساس في تعاليم الكلدان- البابليين- كلها، وسيلقى تطبيقه في العرافة والسحر، وبنوع ثانوي، في الطب، فحين يقوم الساحر بفعل ما، يكون في حالة القيام بفعل سماوي لاستحصال رد فعل يولد انعكاساً لذلك الفعل على الأرض، ولم يتجسد ذلك إلا بعد أن تم إقرار نظرية إنفصال عناصر كون تسيره قوة أولية، وقد أدى ذلك، فيما بعد، إلى تبلور فكرة (مجمع الآلهة)، التي تزايد عددها مع الزمن، فظهرت أولاً ثلاث شخصيات مدبرة للسماء والأرض وقعر المياه، ولكل منها دورة خاصة، ثم ظهرت آلهة أخرى لها خواص معينة، كآلهة النبات، مثلاً، وتلتها آلهة مساعدة. غير أن تفسير العلاقة الوثيقة التي تربط السماء بالأرض يتضح بجلاء حين نعرف بأن إحدى هذه الشخصيات الكبرى الأولى، وهو (إله العلى) أو (السماء)- كما جاء في نصوص سومرية قديمة جداً- كان له، تحت إمرته، كل ما هو مكتوب في السماء والأرض بحيث غدا ابنه، أو (سيد الفضاء) هو مسير الأرض منذ أقدم الأزمنة.

وينعكس هذا الوثاق الذي يجمع ما بين السماء والأرض، على ديانات أخرى، وذلك عن طريق التزاوج، كالديانة المندائية.

وقد كان على البابليين، كما تكتشف مارغريت روثن، أن يحددوا قوائم يستخدمها العرافون في فنهم، بوسعنا اكتشاف شيء من تصانيفهم هذه ما خصوا بها كلاً من النجوم، ومن أصناف الحيوان، ومن أشكال النبات، ومن أنواع الأحجار، كريمة أم لا، وكلاً من خواص المعادن، وكل الألوان والأفعال، والوظائف والمهن، وكل الحِرف والصناعات، وكل شيء تقريباً كالأيام، والساعات، وهي تتكامل في «دورة» أو «فلك» إله من الآلهة، لذا لم تترك الخيار للصدف، بل تم تحديد كل شيء بعناية فائقة.

وثمة قاعدة أخرى في أصل فكر البابليين- الكلدان- هي ما تسمى بعلم الاسم، أكد عليه كثيراً الدكتور ج. كونتنو (٢) وقد كان القدماء جميعهم يشاطرون البابليين في تعليق الأهمية على ذلك، ولا سيما في الصين ومصر، كما لدى قسم من فلاسفة اليونان.

«لا يتخذ الشيء وجوداً حقيقياً له، حسب معتقد البابليين، إلا إذا اتخذ له اسماً» إن الاسم = الوجود فبوسع (الشيء) أن يتخذ له وجوداً مادياً، لكنه يصبح موضوع (معرفة) بعد أن يحمل اسماً، فملحمة الخليقة البابلية التي

نظمها (كهنة بابل) على شرف الإله مردوخ، في مطلع الألف الثاني ق.م واستنسخت في العهد الآشوري، وقام الكاهن الكلداني (بيروس) بشرحها، تفيدنا بعدم وجود أي شيء قبل تسمية الأشياء:

«عندما لم يكن للسماء إسم بعد

عندما لم يكن للأرض تحت السماء اسم بعد..»

وترجمها بعضهم، مباشرة بالمعنى المعرفي للاسم: عندما لم يكن للسماء (وجود) بعد.

العصر الوسيط، أيضاً، عرف هذه الخاصية، فشاع لديه المثل القائل: «الأسماء نتيجة الأشياء» وكان للأسماء صفات تحتويها، ليس للكائنات البشرية، حسب، بل وللأشياء، أيضاً.

إننا لا نعرف (الأسماء) الحقيقية للآلهة، بل يأتي ذكرهم مشفوعاً دائماً بنعوت وصفات، وبقاء أسمائهم خفية. فالشيء موضوع معرفة، حين يسمى، ولدى تسميته، فقط، يسمح بامتلاكه، ويجعله يقهر (شيئاً لا يقهر).

الآله القمر ليس ثمة من يعرف اسمه الحقيقي، ولكن يعرف قيمته، ومعناه..

ومنذ العهد السومري، كانت تعطى أسماء للتماثيل، ثم عم هذا الاستعمال، فأعطيت أسماء للأبواب والجدران في المدن الكبرى: «بوابة عشتار»، واستمرت حتى وقتنا الحاضر، فمن اسماء البصرة القديمة، «بوابة المياه»، أطلقت بعدئذ، على «الفاو» لأنها «فم البحر» كانت النعوت والأسماء، وكلها أسماء خير، التي أطلقت على الأبواب والجدران، للتأكيد على حالة أو «أمنية» ما، لأن الاعتقاد السائد كان في أن (لفظ) ما يعبر عنه الاسم سيحقق في المسمى واقعية وحياة.

فالاسم لدى الملوك السومريين تعبير ذو طابع ديني، وبشكل موجز عادة، ويقوم بتسليم هذا التعبير أحد الآلهة في مكان ما من المعبد، ولو امتحنا الأسماء الأسطورية لملوك سلالات ما بعد الطوفان- كما فعل هرزني، من براغ، لوجدنا أسماء رمزية تعكس نظرية تطور الحضارة في بداياتها، إذ إننا سنلقى «ذاك الذي ينصب المدادات الخشبية» للتدليل على مرحلة التكوين، واسم «من هو للإقطاع» للتدليل على فترة تدجين الحيوان، وحتى العصر الإقطاعي، بينما يضع إسم «بالح Balih» أصل هذه السلالة في شمال بلاد ما بين النهرين، حتى نزوحها من هناك واستيطانها في كيش (الأحيمر).(٣)

الأكديون، والبابليون من بعدهم، أقاموا وزناً للأسماء السومرية، فاحتفظت الآلهة بأسمائها السومرية مع إضافة نهايات «سامية» إليها.. وأن كاتب أو مدون قصة الخليقة البابلية أضاف الأسماء الخمسين للإله مردوخ في نهاية الملحمة، وهي أسماء (سومرية) قد تكونت بفضل أصول صيغت من اسم مردوخ عينه، ولحقت بالتسمية السومرية شروحات أكدية، لها تعابير ذات جذور من أصل سومري(٤) والعاشق- مثل المتدين- يلجأ في خطابه- إلى «التضرع» أحياناً، لأن (التضرع) إلى المحبوب، يسمو بالمحب إلى مرتبة التضرع إلى اللّه، أو الإله- كتضرع آشور إلى عشتار، فالتضرع خطاب ضد قطيعة، خطاب تواصل، أيضاً.. لأنه يتوجه بالنداء إلى المحبوب باسمه، وطبقاً لتقاليد الكتابة عند الأقوام القديمة فقد كانت (الفكرة) تتجسد (حقيقة)، إذا تحولت إلى (لفظ)، فالملفوظ يحضر، إذ لفظ، بغض النظر عن حقيقة وجوده، ومن ثم صار كل شيء لا يكتسب وجوداً محسوساً إلا إذا اضفى عليه الاسم الذي يمنحه القوة والديمومة في الوجود، ولهذا ظهرت قيمة الاسم بوصفها ظاهرة أساس من ظواهر الوعي والممارسة في بلاد وادي الرافدين.

«لقد هبطت الآلهة إلى الأرض، في بلاد وادي الرافدين، واتخذت الهياكل والمعابد مكاناً لها، حسب اعتقاد السومريين والبابليين، لأن المتحدثين قد اجترحوا (أسماءها) وتواضعوا فيما بينهم على (دلالة) تلك الأسماء..»

وطبقاً لهذا التصور، الذي يقوم على نظرية (قيمة الاسم)، انتشرت معابد كثيرة في المدن القديمة وكان عددها يتضاعف فيما يبدو، تبعاً لاشتقاق الأسماء، إلى درجة صارت فيها فاعلية (الاسم) في العراق القديم، لا تقبل المحاججة (٥).

فالاسم صلة اتصال بالآخر، ضد قطيعة، وكما كان ترديده لإله معين هو التضرع، وله أثره في اعتقاد الإنسان بحصوله على ما يريد، فإن التقرب إلى صاحب (الاسم المقدس) يجلب أشياء جيدة. وما زال هذا الاعتقاد راسخاً، منذ رسخته علوم البابليين، فقد كان لمردوخ الإله- كما أشرنا - خمسون إسماً، وأفردت له الأديان السماوية من بعد مكانة خاصة، فالاسم (أو: أسماء اللّه الحسنى) في الإسلام، معروفة، تقارب المائة، فضلاً عن أسمائه المضمرة والمبهمة، ولأن من ضرورات التلفظ الملزمة للاسم أن يتحقق وجود (المسمى)

في كينونته، ويتحقق فيها (الأمر) من (كان) إذ وردت الآيات الكريمة في (القرآن) لتؤكد هذا النهج:

﴿وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة...﴾ [البقرة: ٣١]

﴿... ويوم يقول كن فيكون...﴾ [الأنعام: ٧٣]

﴿إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون﴾ [النحل: ٤٠]

ويذكر القاموس الآشوري أن اسم (عشتار) في الأكدية، تعني: «الآلهة» وتعني، أيضاً، «المعبودة/ الشخصية، أو تمثالها، والتي كان يتخذ منها الفرد قديماً وسيلة بينه وبين الآلهة الأخرى، ومن هذا الاسم اشتقت صفة «المقدسة» التي تدل على (عشتار) أو ممثلاتها (العشتاريات) من الكاهنات.

تقول مارغريت روثن: بأن اسم عشتار متأت من كلمة سومرية مركبة قوامها كيش Gesh وتعني– حسب دوسان–: «عضو الذكر» ومن دار Dar (وتعني شق أو قطع) يذكرنا بقصة ايزيودس Hesiodis التي تلد أفروديت Aphrodite مقطوعة، عند الإله السماوي أورانوس Ouranos، وهووصف غريب مستمد من نظرية شرقية للكون، والتي وردت لاحقاً بأن (حواء) اقتطعت من ضلع آدم.

وعن (اسم) مردوخ، ونعوته، الإله الواحد، حيث تظهر الديانة البابلية ميولاً وتطلعات نحو (وحدانية الله)، إنها لاشك لن تفلح في تجريد هذه الميول تماماً من تعدد المعتقدات، ولكن من المؤكد، أن الكثير من الأعمال الأدبية تظهر سمو المفهوم المجرد لإله عادل ومستقر غالباً فوق تعدد العبادات.. وأن (قصيدة الخلق البابلية) تشكل بوضوح مرحلة في هذه الطريقة، وهناك نصوص أخرى تبرهن على أنهم ذهبوا أبعد من ذلك لصالح «مردوخ»، الأول هو تعداد الأسماء الإلهية الخمسين التي تمثل تشخيصاً لمزية أو أخرى له، أو مهمة إلهية أو أخرى، وهي، أيضاً، الآلهة الآخرون نوعاً ما ليسوا سوى (مظاهر)مختلفة (لشخصيته)، وهذا النص يسمى: (الآلهة: أقانيم مردوخ)، أما النص الثاني فهو: (تعويذة موجهة إلى مردوخ) وهي بنبرة مختلفة عن النص الأول، فالحرارة الدينية تولي قوة أشد للفكرة المهيمنة التي تظل نفسها، فإن ألوهية مردوخ غير المدركة لا يمكن للبشر تخيلها إلا عند تجزئتها، أي عند انبثاقها وانتشارها على ألوهات متعددات، فمجموعة الآلهة (صفاتهم) وجميع الآلهة

(إيكيكي)، ليستا في النهاية إلا خلاصة أبهته.(٦)

إنه: (آن) و (لوكال- آن- كي) و(نينورتا) و (نركال) و(أنليل) و(نابو) و(سين) و(شمش) و(أدد) و(أيا)... الخ.

فمردوخ، هو هؤلاء، وسواهم.

وفيما يخص الصفات (النعوت لإسمه) فهو، أيضاً:

الفِلاحة، الينابيع، إله المعزقة، المعركة، الصراع، السيادة، الإستشارة، الحسابات، القمر، حين ينزل الليل، العدالة، المطر، الفنان، السلة، الطين..

وهو: (الإله الخالق، ابن إله الشمس، الجالس على العرش العالي، المعزم، واهب الأرض الخصب والحياة، الخالق المجدد، الحياة المقدسة، ذو الكلمة السحرية الطاهرة، العارف بالقلوب، المبيد للاعداء، المجهز للتمر، الباني، إله حَيا من الرجولة، ملك العظماء، ابن التل المقدس، الناصح الأميري، ملك وفرة السماء، ملك الموت، الموجه، إله النار، إله المعبر، سيد جميع البلدان، الأخ العظيم، الملك ذو القاعدة المتينة، ... الخ.

إنه: «الخمسون»، أي الرقم «خمسون» يرمز إليه بـ: «الخمسين»!

وهي مقارب (للأسماء الحسنى) التي جاءت في القرآن الكريم، بعدئذٍ، حُباً للّه، وإجلالاً لقدرة الخالق العظيم.

وفي الجزء اللاحق من الصلاة، نجد بجانب (مردوخ) آلهة أخرى، تظهر هي **عشتار** باسم «**ايرنيني**» كنوع من ازدواجية لذاته – ازدواجية القطبين العميقة، ويرى فيها كاتب النص مرجعاً مزدوجاً نوعاً ما، تبدو في أحدهما (أنثى) بطبيعتها هي (عشتار). إن صفة «التوأم» تعطى لهذه الآلهة. إننا نلقي الفكرة نفسها في مفهوم (الألوهية الحامية): إن لكل إنسان إلهه الشخصي، وكان له أيضاً آلهته الحارسة أو ملاكه الساهر عليه (كما في الإسلام)، وكأنهما للحراسة عليه أو لتوجيهه ولمعاقبته– إذا دعا الأمر – (كالملائكة النورانيين في المعتقد الصابئي المندائي) إذاً: كانت الضروة تدعو إلى وجود اهتمام أنثوي، محب وصارم في آن، مثل وجود السحر الحذر لحاميه الإلهي، وذلك ما يتجلى في نص: (**تعويذة لمردوخ - إيرنيني**) **والأسماء الخمسين لمردوخ**، وتعالقاتها اللغوية.

ويبدو أن طابع اللغة السومرية ذات المقطع الواحد يفسح في المجال لهذه التقاطيع والصياغات لقيمة الاسم، وهو يعطي حقيقة ملموسة لهذا الزخم من

الصفات المنحدرة عن أسماء مبتدعة، بشكل مصطنع، لذا فإن (**فاعلية الكلمة**) **لا تقبل المحاججة**، وهي في أصل هذه التصورات جميعها (عن مردوخ وتعدد **نعوته وأسمائه**، صفاته)، إنها قبل كل شيء (**خاصية الآلهة**) الذين يتمتعون (**بكلمة**) – (**كلية القدرة**)، تنتقل إلى الكاهن، أيضاً، كما وإلى المقرىء، فتتخذ لها لحناً خاصاً على شكل «**مزمور**» أو «**نشيد**» أو «**ترتيلة**» فيسمى «**صوتاً**» صحيحاً ويمنح «**اسما**» خاصاً به.

يكتب (سونرون): «يبدو أن ثمة قضية خلاقة شدت اللاهوتيين بالإجماع، مفادها أن الفاعل هو: **الكلمة**، فلم يكن من إله البدء إلا أن ينطق، لكي **تولد الكائنات** والأشياء المرادة بفعل صوته، لذا فإن **الكلام في الفكر المصري (القديم)** ليس مجرد أداة اجتماعية تعمل على تسهيل العلاقات الإنسانية، إنما **هو تعبير** سماعي عن جوهر الأشياء في الصميم، كما كان في بدء العالم؛ **فعل إلهي** يبعث المادة، ونحن نجد في صوغ مقطع – أو مقاطع – الألفاظ سر وجود **الأشياء** المطلوبة، لأن التلفظ باسم ما، ليس عملية تقنية تسمح بتولد صورة في روح المستمع تطابق الصورة التي في نفس المتكلم، إنما هو التأثير على الشيء، أو على الكيان المذكور، فهو بالتالي استعادة لفعل الخلق الأصيل» (٧)

نقول بطريقة الاستنتاج: إن التلفظ الجيد، أو التلفظ بشيء جيد يعني **خلق** «**شيء جيد**».

بهذا المعنى تذكر النصوص إن الملوك تسلموا من الآلهة اسماً (**جيداً**)، **وكثيراً** ما تتردد أدعية موجهة إلى الآلهة لكي يخصوهم بأشياء (جيدة): آشور **إزاء عشتار**، مثلاً، كحماية له ومنح (حكمه) المشروعية. تقول مارغريت روثن: **إن الأسماء** التي تحملها التماثيل هي (**أماني**) حياة مديدة للأشخاص الذين **تمثلهم**، وإن قراءتها أو التلفظ بها أو نحت الجسم يقوي من فاعليتها، ويشرح **هذا الاعتقاد**، الأهمية التي كان الأقدمون يعلقونها على (البركة) التي تمنح للأشياء والأنصاب، وكانت تجري، عادة، من خلال (**طقوس**) تطهير، فإن (**صورة الشيء**) المرغوب تتخذ لها مكاناً إلى جانب (**التبريكات**) و (الطقوس)، **فيتاح** لنا، بهذا المعنى، تفسير فن (العهود القديمة) التي يمثل (مشاهد طقسية) **فيها** من (التملك) أو (**الرغبة في التملك**)، وكان البابليون يعلقون على (**اللعنة**) **الأهمية عينها** التي يعلقونها على (البركة) لأن الألفاظ ليست من دون **أهمية**

البتة، بل إنها– ساعة التلفظ بها– تحصل اللعنة، كما لنا في هذا الشأن مثال جلي في (ملحمة كلكامش) فإن (انكيدو) رفيق (كلكامش) يلعن (البغي) التي علمته على التمدن، ورغم معارضة الآلهة لهذا الجحود ونكران المعروف، يطلب انكيدو أن (تنقلب البغي كلبة)!

إذاً دوّى صدى شهرة البابليين وورثتهم الكلدانيين في أجواء العصور القديمة والوسطى بشكل عجيب، لأنهم سعوا نحو (المجهول)، محاولين الوصول إليه وإخضاعه في عهود سحيقة في القدم جداً، وذلك بالجمع بين أسمى النظريات الروحية من جهة، وبين ممارسات تبدو كأنها ضرب من الشعوذة من ناحية أخرى.

لقد كان الكلدانيون حقاً، أرباب «العلم المقدس» أو «علم الهيئة والمعرفة» حيث يمتزج الدين بالسحر، لأنه عندما شاء المرء أن يعبر عن فكرة، إخترع الكلام والرمز، صورة كان أم كتابة.

وقد أتاحت الكتابة التي أوجدها السومريون وزاد عليها البابليون كمالاً، أن تكسبهم قوة في (الرياضة العقلية) المعتبرة أحد أسرار فنون الفكر القديم، العجيب.

وكما أن البابليين، تمشياً ونظرية (قيمة الإسم) اتخذوا من العلامات المسمارية أجل فائدة، بإدخالهم العوية (الألفاظ السرية) في الروايات الأسطورية والألغاز، التي كانت(عزيزة) جداً على قلوب الكهنة وجميع القدامى، تجدر الملاحظة، أن المصريين (الفراعنة) استعملوا الطريقة عينها، بخاصة حين حارب الكهنة (اخناتون) التوحيدي، وأعادوا (الألوهية) لآمون راع، فثمة «لعب» جديد للكتبة في اختيار مستودع لا حدود له من علامات لها ذات القيمة، فلا يحصل، بالتأكيد، عليها لفظ كلمة واحدة، بل تسمح بتجميعها من نشوء لوحات رائعة تدور جميعها حول الفكرة التي يراد التعبير عنها، كما يؤكد: (سونرون) في كتابه «كهنة مصر القديمة».

وكمرحلة أخيرة للتجارب التي أجريت على هذه الكتابة الهيروغليفية، نذكر ما قام به الكهان (الحكماء) من تجريد صوري بفضل رموز نصوصهم الدينية، فهم بدلاً من أن يؤكدوا، ببساطة، على اللوحة المرئية للفكر التي توحي بها الكلمة لفظاً، مضوا إلى خلق هالة من الأسماء الثانوية تدور حول (اسم الإله)

وقاد ذلك إلى اكتشاف جذور تشكل مجموعة من الصفات يمكن استخدامها في النص ونسبها إلى ذلك الإله بعينه..».(٨)

لم يتوان البابليون القدامى عن الاهتمام بالمعضلات الكبرى التي اقضت مضاجع الناس، وكانت الحياة في مقدمتها، فهي المعضلة الأساس منذ فجر المدنية.

لقد كانت ديانة السومريين والآسيويين القديمة ديانة (طبيعية)، لذا نرى (سومر) تحترم (قوى الطبيعة) وفي مقدمتها مبدأي الخصب والازدهار (النماء)، وكرست لذلك، مع البابليين، طقوساً مهمة (كالزواج المقدس).

وحيث أكدت ملحمة الخليقة على تنظيم الوضع البشري، ورسالة البشرية خدمة للآلهة، وتلبية رغباتهم، إلى جانب طقوس البقاء، وما بعد الموت، ومقابر أور الملكية، والسلالة الثالثة، والعالم السفلي، والجحيم.. ومسؤولية الإنسان الأدبية، الاعتراف بالخطايا والذنوب، وطلب الغفران، وتقديم الضحايا، أو التقاديم، أو النذور، طلباً للمغفرة.

وتبدو فكرة مسؤولية المرء جلية لدى تذكر آثامه، لذا نلقى التساؤلات التالية في نص من (شريعة حمورابي):

« هل ارتكب المرء خطأً ضد إلهه؟
هل قال لا بدلاً من نعم،
أم نعم بدلاً من لا؟
هل رفض أن يترك السجين طليقاً،
أو رفض أن يدعه يرى نور النهار؟
هل كان مقصراً بحق أبيه وأمه؟
هل استعمل مكاييل وموازين ناقصة؟
هل عمل على تفريق عائلة متحدة؟
هل ارتكب جريمة ما، أو سرق، أو ساعد على السرقة؟ »

ونلقى كذلك تحريم الشعوذة، واعتبارها (جريمة محرمة)، كما نقرأ في شريعة حمورابي:

«إذا ألقى رجل على رجل تهمة ممارسة السحر..»

ونجد، في هذه القوائم تعداد (هفوات)، جنح، لا إرادية، أيضاً، ناجمة عن

تأثرها بالخطيئة:

«لعله نام في سرير ساحر
أو أكل في صحن مشعوذ
أو قام بسكب قرابين بشكل معوج،
أو لمس إمرأة مشعوذة، أو شخصاً ما دنساً..»(٩)
إذاً كان الفكر البابلي أميناً على (السببية)!

فإذا كان مرجع (العلم الإلهي)، التقليد الشفاهي المتناقل عن الحكماء القدامى الذين عاشوا قبل الطوفان، سجله في (شروباك، في السنة الثانية من مُلك أنليل- باني ملك مدينة آيسن) المدعو (الكاهن): انليل- موباليط (حكيم نيبور- نُفَّر-)(١٠) وكذا شأن الطقوس ذات الطابع السري، فإن هذه الطقوس «بوسع المبتدئ أن يقع عليها، أما الذي لم ينضّم إلى (معلمي الآيات) فلا يحق له أن يعرفها، وإلا قصرت أيامه، ليطلع المبتدئ غيره من المبتدئين عليها، أما (العلماني) فلا يحق له أن يراها، وإلا كانت إهانة لآنو وأنليل وأيا الآلهة العظام»

لقد كان الكاتب، عادة، من جماعة الكهنة (الاقليروس) ومن هذه العائلة كان ناسخو الكتب المقدسة (العلم الآلهي)، ورُتب (الكهنة) والتلاميذ، والطقوس، وعلاقة الإنسان بالإله، والاسم بالاشياء، الخليقة وصفات الخالق، تطور الابجدية، الطهارة، والتعميد، طقوس الزواج المقدس، الطقوس الدينية الأخرى في: الزواج، الوفاة، تكريز التلاميذ، الملابس الدينية، الوضوء، الصلاة، المحرمات، رجال الدين ودرجاتهم، الكتب الدينية، وسوى ذلك، يتكرر، ويتعالق، ويتداخل، منذ العصور العتيقة حتى يومنا في (المندائية الصابئية)، تاريخاً، وعلوماً، وفكراً، وفنوناً، ومهناً، وعقائد، وعشائر وأفخاذاً، والإيمان بالعالم الآخر، الآخرة...

تالياً سنجد، التداخل والتعالق بين ما تقدم وبين (المندائية) و(المندائيين):
جاء في كتاب (دراشة اد يهيا) (تعاليم يحيى):

«أنا ابثاهيل، ملاك الرب الحارس
نزلتُ لأنظر بيوت عالم كيمصات (عالم الطهارة، عالم العهد)
العالم الذي أرساه الله سبحانه وتعالى بكلمةٍ.

وإلى يمينه عدد من الملائكة».

وفي اللوح السابع من ملحمة كلكامش:

«قال لي: أُنظر وراء إلى الأرض، كيف تبدو لكَ؟

أنظر إلى البحر، كيف تراه؟

وكانت الأرض تشبه جبلاً، والبحر كأنه بحيرة

وطار في الهواء أربع ساعات أخرى، ثم قال لي: أنظر إلى الأرض مرة أخرى ثم حدثني كيف تبدو؟

ثم أنظر إلى البحر وحدثني كيف يبدو؟

وبدت لي الأرض بستاناً، والبحر كأنه قناة صغيرة..»

ومما يذكر عن الفراعنة، أنه وجد على لوح بردي (واللوح موجود في متحف الفاتيكان) النص:

«في الشهر الثالث من السنة الثانية والعشرين

رأى الكاتب دائرة من النار في السماء.. ليس لها صوت،

ولها طول وعرض الزورق الكبير.

وخاف معه آخرون، وذهب إلى فرعون.. واجتمع فرعون وكثير من الجنود،

ورأوا كرة النار، وخافوا.

وفي اليوم الثاني تكاثرت كرات النار في السماء،

ولم يفهم أحد أي شيء.

واتجه رجال الدين إلى المعابد

وطلب فرعون إلى الكتبة أن يسجلوا ذلك»

في الكتب الدينية كالتوراة والإنجيل والقرآن الكريم وغيرها ذكر لكثير من المظاهر والظواهر التي تبرهن على ظاهرة الانتقال من (عالم الدنيا/ الأرض) إلى العالم الآخر/ روحياً أو جسمياً.

– ورد في القرآن الكريم:

﴿وسبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله﴾ [الإسراء: ١]

﴿لقد آتينا داود وسليمان علماً وقالا الحمد لله الذي فضلنا على كثير من عباده المؤمنين وورث سليمان داود وقال يا أيها الناس عُلّمنا منطق الطير

وأوتينا من كل شيء إن هذا لهو الفضل المبين وحشر لسليمان جنوده من الجن والإنس والطير فهم يوزعون﴾ [النمل: ١٥ -١٧]

﴿وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول اللّه وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم وإن الذين اختلفوا فيه لفي شك منه ما لهم به من علم إلا اتباع الظن وما قتلوه يقيناً بل رفعه اللّه إليه وكان اللّه عزيزاً حكيما﴾ [النساء: ١٥٧ - ١٥٨]

وجاء في التوراة:

«وإذا بريح عظيمة جاءت من الشمال:

سحابة عظيمة ونار متواصلة وحولها لمعان

ومن وسطها كمنظر النحاس اللامع من وسط النار

ومن وسطها شبه أربع حيوانات، وهذا منظرها:

لها شبه أسنان، ولكل واحد أربعة أوجه، ولكل واحدة

أربعة أجنحة وأرجلها قائمة وأقدام أرجلها كقدم رجل العجل

وبارقة كمنظر النحاس المصقول..

ولما سارت، سارت على جوانبها الأربعة، ولم تدر عند سيرها

ولما سارت، سمعت صوت أجنحتها كخرير مياه كثيرة، كصوت الغدير..

صوت كصوت جيش،

ولما وقفت رفت أجنحتها..»

(حزا: ١: ٤ -١٠)

وجاء، أيضاً، في (تعاليم يحيى):

«الماشي على أجنحة الريح،

الصانع ملائكته رياحاً

وخدامه ناراً ملتهبة..»

ونشرت مجلة (الأسبوع العربي) في عددها ٨٢٤ الصادر بتاريخ ١٩٧٥/٣/٢٤ مقالاً مطولاً تحت عنوان: «لقد حدث ذلك حقاً: أهل الكواكب الأخرى غزو الأرض قبل آلاف السنين وتركوا آثارهم وسفنهم..».

ومن رؤوس الأقلام التي ذكرتها المجلة:

«نحن أحفاد سكان كواكب أخرى.

- سدوم وعمورية دمرهما انفجار ذري.
- المومياءات نائمة تنتظر من يوقظها لتنطلق وتنطق بالحقيقة.
- الأهرامات هندسها زوار أرضنا من كوكب آخر.
- لماذا أزياء قدامى الهنود الحمر في اعيادهم كأزياء رواد الفضاء؟
- في مجرتنا وحدها ٦٨ ألف كوكب مسكون بالحياة والحضارة.
- وفي ملحمة كلكامش أول وصف لرحلة فضاء يقوم بها أرضي.
- بعلبك مطار فضائي، ورائد الفضاء الأول عراقي!»

ويذكر أنيس منصور في كتابه: «الذين هبطوا من السماء!»:

«إن آدم وحواء قد هاجرا إلى كوكبنا هذا من كواكب أخرى
وما الأطباق الطائرة إلا حقائق صادقة،
وإن الأجسام التي تطارد سفن الفضاء هي مطاردات واقعية
يقوم بها أناس الكواكب الأخرى ليعرفوا ماذا يعمل ابن الأرض،
وينقلوها إلى سكان عوالمهم.
إن هذه الكائنات جاءت إلى الأرض، عاشت، وأقامت على الأرض،
وعلمت الإنسان وحذرته، ثم اختفت، بعد أن تركت وراءها
آثارها في الجيزة وفي بعلبك وفي كهوف تسيلي بليبيا
وبالقرب من بغداد (بابل)، وفي أماكن كثيرة غيرها...»

وكما يرتفع الآلهة إلى العلا، نراهم يهبطون إلى الجحيم، ولو بصورة مؤقتة، كما هي الحال في نزول عشتار، إنانا، إلى العالم السفلي، عالم اللاعودة، عالم الجحيم.

ولا يفصح حديث هذا النزول عن الأسباب التي دفعت عشتار (الإلهة) نحو (أرض اللاعودة)، وافترض بعضهم أنها أرادت اللحاق بتموز (دموزي)، وفي النص وصف للأسوار الدائرية السبعة ذات الأبواب المحروسة التي يجب اقتحامها وخطورة القيام بذلك من قبل الإلهة (السجينة)، والقلق والنتائج الحاصلة بسبب (توقيفها).

وتقدم ملحمة كلكامش أسئلة عن الموت والخلود، تقدم وصفاً لموتى عالم ما بعد الموت، وقد صيغ بلباقة متناهية، إذ بعد أن يفقد البطل كلكامش صديقه العزيز وخله أنكيدو، يبدأ الحوار بين أنكيدو الميت، وكلكامش الذي

يطرح الأسئلة المحرجة حول شتى أصناف الموتى، هل كانت أسئلة دانتي في جحيمه، هي ذاتها عند كلكامش؟

هل كانت أسئلة المعري، ورسالة غفرانه، ذات الغموض والإبهام نفسه؟

إنها معضلات.

نرى الموتى، في ملحمة كلكامش، تغطيهم «ثياب هي أجنحة»، وهم يقضون وجوداً (متثاقلاً) في (موضع مظلم)، غير أنه لدى نعي وفاة كلكامش، يستعاد القول إن الآلهة كانت قد وعدت بتخفيف وطأة مصيره، ونلقى (الأسلحة اللامعة) والظفر في المعارك والتمييز بذكر خالد توجزها هذه العبارة: «أن يكون له اسم» بمعنى أن يكون له «خلود».

إنه ليس هناك فكرة تعويض عن الأفعال الحسنة، لأن فكرة (الثواب) التي نلقاها في (كتاب الموتى) في مصر، لا تظهر في بابل، في تلك الفترة، لكنها تظهر، بعدئذٍ في الجنة وثواب المؤمنين، في ديانات لاحقة (الإسلام)، مثلاً، والمندائية قبلاً، وفي نصوص (سوسه) ثمة محكمة يظهر فيها الموتى، وثمة خطايا أو قوائم خطايا، لكنها تخص الأحياء لا الأموات لكن الشريعة الإسلامية، تظهر «يوم الحساب» بمثابة محاكمة للجنس البشري عن أعماله، خيرها وشرها.

والبابليون اعتبروا «الحلم» حقيقة! ذا تماس بعالم الآلهة، فكان الملك يطلب من (الرائين) أن يضعوا أنفسهم في حالة تسلم الإيعازات عن طريق الأحلام، وكثيراً ما كان يجري ذلك في الهيكل، لذا كانوا يلجأون، أحياناً، إلى استعمال بعض المواد والمخدرات لتحقيق الغرض المنشود، كما كان على (الرائي) أن يقوم بعمليات تطهير.

ويحدث أن ينعم أحياناً على الملك أو على أحد الأفراد برؤيا، كما حلم الملك البابلي نابونيدس بالإلهين مردوخ وسين فأخبراه عن مجيء كورش، ويقدم لنا حلم (كوديا) أقدم مثال على غموض الأحلام والحاجة إلى تفاسير العرافين.

وهناك نص سومري محفور فوق أسطوانة طينية (محفوظة في اللوفر) ترجمه، أولاً تورو- دانجن، ثم لامبير وتورناي، مفاده أن كوديا يذهب إلى الهيكل ويسأل الآلهة أن تفسر له رموز الحلم القاضية بتشييد الهيكل، وبهذا الشكل هو حلم كلكامش وخبر لقائه بأنكيدو.

وحلم يوسف الصديق، حين رأى اثني عشر كوكباً والشمس يسجدون له، ثم

وهو في السجن حيث تأويله لحلم النزيلين، ثم تأويله لحلم العزين، وسبع السنبلات اليافعات، والأخريات الضامرات، وفي فترة لاحقة حلم اجتياح الملك الميدي يحكيه هيرودتس ومفاده أن ماء غزيراً يخرج من ابنته فيغرق آسيا بأسرها ثم تنبت جفنة تغطي آسيا بأسرها، الأمر الذي تحقق مع قورش الفارسي.

وفي النصوص مجاميع تفاسير أحلام منها:

- إذا حلم رجل يحمل مأكولاً، فإن رغبات قلبه ستلبى.
- إن ضرب شخص ما بقصبة، فإنه سيلقى سطح الماء.
  أما إن رمى بنفسه، أو طار، فإن الحظ سيفارقه.
- إن كان معدماً، فإن النحس سيتركه.
- إن نزل أحد إلى باطن الأرض وحياهُ ميت، فإن حائطاً سيسقط عليه ويقتله.
  اما إذا قبَّلُه ميت، فإنه سينال البركة.
- إن حلم شخص أن له بستاناً كبيراً لاحدَّ له، فمعنى ذلك أن ما يملكه سيفنى كله.

وستساعد (مجاميع الأحلام) هذه على الوصول إلى ما وضعه فيما بعد (أركاميدورس) الدالدي، في كتاب (تعبير الرؤيا). لكن، مما لاشك فيه، أن مجاميع الفأل هذه فقدت قيمتها فيما بعد. كان على العراف أن يلم بأسس فنه، مستعيناً بألواح الطين التي كانت تستخدم كنماذج لعرافي الطالع الذين كانت وظيفتهم قراءه خطوط أكباد الضحايا، فقد وجد أندريه بارو– إثر تنقيباته في ماري – (وهي تسبق بقليل عهد سلالة بابل الأولى) ما نستدل منها أن أي تشويه في الكبد إنما يعني حدثاً سياسياً هاماً بالنسبة لسكان تلك العصور.

كان العراف يدرس شكل الأمعاء، أيضاً، فقد وجد على لوح طيني رأس بطل يصارع كلكامش، وكتابة نصها: إن كانت الأمعاء شبيهة برأس (خمبابا) فإن سرجون سيغدو سيد البلاد. أما الطقوس فقد وضعت للقيام بحركات تطابق المعتقدات، مع الأخذ بالاعتبار علاقتها بالقوى التي تنادي، فيغتسل العراف بماء التطهير في محل الحكم، ويضع كأس الآيات صامتاً، ثم يرفع يديه ويهتف: «يا شمش، يا سيد الحكم، ويا أدد سيد المعجزات، إني أحمل إليكما وأقدم لكما

هذا الغزال الصغير الطاهر، الذي عيناه رماديتان، ووجهه بهي، وظفره بلا تشوه، وضعته أمه في الريف، وظلله الريف بعذوبته، كاب وأم، لاحظه الإله الشجاع أدد، فأمطر على مدار الأرض، وأنبت عشباً، ونما العشب للحيوان، وفي الريف أكل الغزال الصغير من العشب، وشرب جذلاً من مياه الينابيع الصافية، لم يشتهه الذكر بعد، إني أقدمه لكما!..» (١٢)

■ نصوص الخلق:

ماذا تقدم لنا النصوص المندائية، لمعرفة (العالم) الذي ابتدعته؟ و(**صفات الخالق**)؟ وعالم النور (آلماد نهورا)؟

في كتابه القيم يسرد الباحث غضبان رومي «صفات الخالق» كما جاءت في الكتاب المقدس للمندائيين(١٣)، إذ تتبدى **صفات الخالق العظيم** «**هي ربي**» (الحي العظيم) كما ورد بعضها في نصوص (كنزا ربا– الأيمن الجزء الأول ص :٥) على الوجه التالي:

«الحمد لله

مسبح ومبارك وممجد

سبحانك أيها القوي

الربّ العظيم وملك النور العظيم

القوي بلا حدود

البهي

ذو النور العظيم الذي لا يخبو

الرؤوف

الغفور

التواب

ذو الرأي والرحمة

مخلص كل المؤمنين

مقوم كل الطيبين

الحكيم

العارف

البصير

الجبار والمسيطر على كل شيء

ربّ كل عالم
ولنور العليا والوسطى والدنيا
الذي لا يرى ولا يحدّ
لا شريك لك في تاجك
ولا شريك لك في سلطانك
لا يخيب من يثق بك
ربّ جميع الملائكة الأثري العظيم
لا وجود لشيء قبلك وما من شيء لولاك:
لا يدركك الموت ولا تهلك
نورك يضيء، وبريقك يشعّ على جميع العوالم
والأثري الذين يقفون أمامك مضاؤون بتألقك
وبالنور العظيم الذي يشع منك»

وصف (عالم النور) (جـ ١ ص ١٠) وهو موطن ملك النور أي الخالق العظيم، الحي العظيم (هي ربي):

«العالم الذي يقف فيه «ملك النور» عالم لا زوال فيه:
عالم الضياء والنور الذي لا ظلام فيه
عالم اللطف، الذي لاعصيان فيه
عالم الصلاح، الذي لا اضطراب ولا خلل فيه
عالم الأريج، لا رائحة كريهة فيه
عالم الحياة الخالدة، الذي لا موت فيه ولا فناء
عالم الماء الحي، الذي لا شك في شذاه يبتهج الملائكة
عالم الطين الذي لا جثث فيه
عالم الحق
عالم التقوى والخير»

يحتوي الأدب المندائي على أوصاف متعددة عن تكوين (عالم النور) ويعرض الكتاب المقدس (كنزا ربا) فقرات متنوعة عن هذا العالم بصيغ رمزية تتسم بالغموض وتقبل تفسيرات عدة، وهي تشتمل الفكرة الأساس لعقيدة الخلق والنشوء والانبعاث، إذ يقدم المعنى العام فكرة أنه من الثمرة الأولى

تكونت الكائنات النورانية: (ملائكة النور) وموطنها، مصدر عالم النور وتكوينه، وتكوّن الماء العظيم، والوطن والأشياء. ويضم «كنزا ربا» – الأيمن جـ ٣ ص ٦٥ وما بعدها ثلاثة نصوص:

«حينما كانت الثمرة «پيرا» داخل الثمرة «پيرا»
وحينما كان الأثير «آير» داخل الأثير «آير»
وحينما كان «مانا» ذو الوقار العظيم هناك
ومنه تكونت «المانات» العظيمة الكبيرة
انتشر بريقها، وعظم نورها، وما كان قبلها في الثمرة العظيمة شيء
فانتشر نورها بلا حدود أكثر من انتشار الكلام،
وجل نورها عن أن يوصف باللسان، والتي كانت– وقتئذٍ– في تلك الثمرة
ثم تكونت منها آلاف آلاف الثمار بلا نهاية،
وملايين ملايين المواطن بلا عدد
تقف هناك وتمجد «مانا» الموقر العظيم
الذي يحل في «آير» العظيم
وتكون الماء الجاري العظيم «يردنا» الذي لا حدود له
(وبقوة الحي العظيم) انبثقت منه مياه جارية «يردني»
بلا نهاية، ولا عدد»

و(پيرا) تعني الثمرة، و(الأثير) (آير) في المندائية هو (الهواء) هواء عالم النور، ريح الشمال، ويأتي عقب الفضاء، المكان، الوطن. و(مانا) يعني العقل المدبر، اللب، الذهن، كابن نوراني(١٤).

«أنا أبوكم» (الحي العظيم) خلقني
وأنتم والماء الجاري (الماء الحي)
بقوة الحي العظيم، تكونتم»

إن الأولوية في الترتيب هي لمانا العظيم، تجاه الحياة، إنه خالق الحياة الأولى، ثم حدثت الانبثاقات الأخرى، الثانية والثالثة، والحياة الرابعة. وكان (مانا) والحياة الأولى كائنات منفصلة، في النص الثالث، بعد أن نظر «**منداد هي**».

الفكرة الأولى والقديمة العهد عن الخلق هي أن «الخالق العظيم» (الحي

العظيم) بمثابة (الخالق) - خالق الكون- الرب- في القدم، ومنه نشأت «الحياة الأولى» وهي التي نادت «مندادهي» وهو على هيئة ملاك: «اثرا» له موقع خاص ورفيع في عالم النور.

يلاحظ في النص الثاني أن «**الصلاة**»، و«**التسبيح**»، **أو الدعاء** وسيلة تواصل واتصال بالخالق وله.

في النص الثالث: «بعد أن نظر «مندادهي» إلى عالم الظلام، وتأمل فيه، سأل «**الحياة**» عن أصل (**العالم الشرير**) وقاطنيه، وبدلاً من أن يحصل على الجواب جاء الرد على شكل علم أو تعاليم» (كنزا ربا ص ٧٣).

والجديد في النص ورود مصطلح «**الإشــعــاع الحي**»، **أو** «**الحرارة الحيــة**»، **أو «الاشعاع الوهاج» «النور» وانبعاث «الثمرة العظمى» بقوة «ملك النور».** (١٥)

«باسم الحي العظيم

سيد

الرب

الحي العظيم

الخالق العظيم

الثمرة العظمى السامية

هو الذي أزهرها وجعلها مثمرة

وخلق الثمرة العظمى...»

إن فكرة (**الخلق**) المندائية تستند إلى أن ثمة كائناً سامياً وهو «**الحي العظيم- الخالق العظيم**» هو الأول الذي انبعث من ذاته، وانبعثت من لدنه كائنات نورانية خلقها، قامت هي أيضاً بنداء كائنات نورانية أخرى وبأمر منه، يقفون إلى جانبه، ويقفون مستقبلاً إلى جانب المؤمنين ويرافقونهم إلى عالم النور..

«أنا الكرمة الوديعة، الذي خلق في موطن الوقار

وخالقي هو الخالق العظيم، الحي العظيم

سلحني بكلمته، وخلق لي مساعدين

نادتني الحياة العظمى، وأعطتني الأوامر، وعلمتني عن الأوائل

وعن «مانا الأول العظيم»

وقالت: إذهب إلى تروان النقي، وعلم الأثري الذين هم هناك

أنا «هيبل» تركت أبي، «ياور مندادهي»

وقصدت تروان النقي،

أتيت وكونت سبعة عوالم نور، ونصبت عليها سبعة ملائكة كاملين

بضيائي ونوري وتسبيحي الذي وهبني إياه أبي

ناداني سيماء الوقار العظيم، وأعطاني الأمر،

ومثيله الذي يجلس معي،

وقال لي:

«عندما تذهب إلى «تروان النقي»

لا توجه أقوالك إلى الأثري الخاطئين

الذين نادتهم الحياة الثانية «يوشامن»

والذين منهم تكون كل ما هو ناقص

أوصل أقوالك فقط إلى أثرى تروان النقي

الذين ناداهم الخالق العظيم»

يلعب، هنا، الدور الأساس في النص: الحياة العظمى والرسول «هيبل- زيوا»، كذلك يذكر في النص خلق «الحياة الثانية».

ويتلاقى مع مفهوم هذا النص قسم من نصوص «زدقا- بريخا» (الصدقة المباركة) (وهي: وجبة الطعام المقدس التي تقام على روح المتوفى)، التي يتردد فيها «مانا العظيم» ومصطلحات الخلق، حيث نادى الأثري وكون مقامات في عالم النور بأمر من الخالق العظيم (خالق الحياة) والقائم الرئيس في الطقوس، ولأنه يقيم وحيداً في مسكنه (مقره الخفي: هلبونا - كَسيا)، وهو مصدر نشوء الكائنات الروحية، فهو ينادي على «صوثا» شريكة له، ومن ثم نادى على ثلاثة أثري، وبدلاً من مصطلح «پيرا» (الثمرة) يرد، هنا، مصطلح «هلبونا» (مقر/ إيواء)

وفي «كنزا ربا الأيمن» (ص ٢٧٧) وصف لعالم الظلام:

«من الماء الأسود جُبِلَ، وخرج ملك الظلام من كيان الظلام الشرير نفسه

ونما وتعاظم وتجَبَّر،

وأطلق آلاف مؤلفة من الأجيال الشريرة التي لا نهاية لها،

وآلاف مؤلفة من الأجناس الرديئة التي لا تحصى
وتعاظم الظلام وانتشر، بواسطة السحرة
والعفاريت والجن والشياطين..»

وهكذا، إلى جانب النور وعالمه (نظير الجنة عند المسلمين) فإن النص **يظهر الظلام** موجوداً منذ البدء، ومن خلاله وبطبيعته الذاتية، أيضاً، ينشأ **عالم الظلام** (نظير العالم السفلي/ الجحيم في قصة الخلق البابلية) أو في (**نزول إنانا إلى العالم السفلي**)، أي إن طبيعة الظلام الشرير موجودة فيه منذ البدء **إلى الأبد**، ومن خلالها، ومن الماء الأسود، نشأ (**حاكم الظلام**).

ومن نصوص (كنزا ربا الأيمن)، يظهر أن **عالم الظلام** له **كيان ومملكة خاصة به**، وله **مياه جارية**، كما هو الحال بالنسبة لعالم النور.

وتذكر نصوص «كنزا ربا» إن الناصورئيين المخطئين «**يحرقون في اليرادن السبعة**» (أي المياه الجارية السوداء في عالم الظلام) وهي (شرايين أرض سينيا ويس) التي يغلي فيها «**الماء الأسود**»، **أي أن** «**الحياة**» **انبعثت من المياه الجارية البيضاء** (الـ يردني) في العالم العلوي، ونجد، مقابل ذلك، **أنه من** «**الماء الأسود**» في العالم السفلي، تكون ملك الظلام، وموقع عالم الظلام «**تيبل**» له كيان خاص– في الأسفل، إلى الجنوب، يطابق مفاهيم الديانة المندائية عن الظلام وعلاقته بالأرض وهي (تكوين الأرض والظلام – **أو أور**– من قبل الموكل بالتكوين (پثاهيل) .. فالظلام يحكم الأرض بقوته، **ولكن عالم النور** يقف ضده ويحد من قوته (**فالأرض ليست هي الظلام**).

إن الأرض «**تيبل**» محاطة بـ «**بحر الدنيا**» الذي تقع بالقرب منه عوالم الظلام **والماء الأسود**، وإن «سيد الظلام»: (**أور، المارد، التنين**) هو ابن «**الروهة**» **ويسمى** «**كاف**»، «**قن**» كرون.

لذا فالفكرة القديمة عن «**الظلام**» و«**البحر المضطرب**» أو «**الماء الأسود**» **أو** «**المظلم**»، **بحسب رأي رودلف**– تبقى قائمة، وهي **تصورات سومرية سامية قديمة**، فالماء يلعب دوراً في الديانة المندائية ككل، ومن جهة أخرى **فالماء أقدم من الظلام**.

وفي نصوص (ATS) نجد أن النور والظلام هما طرفا وحدة متكاملة **في الكون**، وكل واحد يعود إلى الآخر، أو صورة لبعضهما (أو أطرافاً **متنافرة**):

«ياور» يتكلم:

وعوالم النور وعوالم الظلام هي كالجسد ومثيله،
والذي لا ينفصل أحدهما عن الآخر
(بل يتقرب أحدهما إلى الآخر)، ولا يمكن التفريق بينهما
وليس بقدور أحد فصلهما عن بعضهما
وما يعود لنا على «تيبل»- الأرض-
جلبناه نحن ومزجناه في الظلام» (ص ٢١١)

إن فكرة (المزج) أو (التركيب) تلتقي بما تحتويه النصوص القديمة من أفكار:

«وانظر إن النور والظلام «اخوان»..»
إنسلخا من سر واحد، وحفظ كليهما جذع واحد» (ص ٢١٢)

«وكل رسم يعود إلى النور
له في الجسم نفس الرسم الذي يعود إلى الظلام
والذي لا يرسم برسم العالم الدنيوي
لا يثبت ولا يقوم ولا يقترب إلى التعميد السماوي
ولا يرسم برسم الحياة (أو برسم النور)..»

■الكون - العالم الأرضي:

ترتبط عملية خلق المشاركين في التكوين مع عملية خلق العالم الأرضي ارتباطاً مباشراً، ولكن لأسباب عملية، ولتوضيح الفكرة، بصورة أدق، قبل خلق العالم الأرضي.

نصوص عديدة في «كنزا ربا» تتحدث عن خلق العالم الأرضي، كما هو الحال بالنسبة للتعاليم حول الكائنات النورانية الأولى، والتعاليم حول النهاية الحتمية للأشرار. ويتبع ذلك تسليح الأثرا «منداهي» بـ «**اللباس الديني**» (**رستا**)، (**مركنا**)، (**تاغا**) (**هميانا**) قبل أن تبدأ رحلته إلى (**عالم الظلام**)، ثم تتحدث النصوص في «كنزا ربا» الأيمن عن تغلب «منداهي» على قوى الظلام «أور الذي يسكن في الماء الأسود والروهة»، ثم يتكلم «منداهي»: «**إن الخالق العظيم أوضح له كيفية**» «تكوين العالم الأرضي»، وأوكل بالعمل إلى الرسول «**جبرائيل**»، وشارك أيضاً «منداهي» في هذه العملية وذلك بأن «**الخالق العظيم**» طلب منه أن «**يفتح مجرى** للماء الجاري من عالم النور إلى هذا العالم الأرضي، وبعد ذلك يبدأ دور الحياة الثانية، في عملية تكوين العالم الأرضي.

ثم وردت في نصوص متعددة من كتاب «كنزا ربا» لأثري الثلاثة الذين خلقهم «الحي العظيم»، والذين نادتهم «الحياة الثانية» ومحاولتهم بناء عالم خاص بهم، لذلك فهم يرجون من «والدهم» (الحياة الثانية) أن يساعدهم في عملهم هذا:

«إعطنا إشعاعك ونورك، وبعضاً مما تملكه من خواص
لأننا نريد أن نرحل ونهبط تحت المياه الفاصلة
نريد أن نقيم مواطن وننشئ لك عالماً سيكون لك ولنا
وستجعل فيه استقراراً
وموطناً ستنادي فيه على أثري هم لك ولنا
ينطقون باسم «الحي العظيم»

طاب له ذلك.

وتكلم «والدهم» ساعطيهم ما ارادوا»

يتضح من ذلك، أن هبوط الأثري تحت «المياه الفاصلة» يعني تركهم لعالم النور في ملكوت الحي. و«المياه الفاصلة» هي التي تكون حدود (عالم النور).

كما أن موقف الأثري هذا يوصف سلبياً: إنهم يريدون ترك النور، فاتجهوا إلى الظلام الدامس، الموطن المليء بالشياطين و«موضع الحرارة المستعرة» (الجحيم)، وكانت ألبابهم مشوشة.

وفي الفقرات التالية من النص يرد اسم «الثاني» أو «الثانية» بدلاً من «الحياة الثانية»، كما يتحدث النص عن إنشاء الكون من قبل «يوشامن» (الحياة الثانية) بأمر من «الحي العظيم»:

«ثم انتصب الثاني (يوشامن) ونهض ملائكته الأثري ونصحوه.

ملائكته الأثري نهضوا ونصحوه قائلين:

اسمح لنا، أن ننادي عالماً، ونقيم لك مساكن تسمى باسمك»

وهنا منحهم (الثاني) من ضيائه ونوره، وبعضاً مما أعطاه خالقه،

أعطاهم من ضيائه وأمرهم بتكوين عالم.

ومصطلح «الأرض البيضاء» تذكر، أيضاً، في «القلستا» (ص ٢٦٤)، بالإضافة إلى ورودها في نصوص أخرى، حيث تذكر «أرض الأثير البيضاء»، وهو تعبير من عالم الأثير الذي يسمى سابقاً «**أرض الضياء**»، أو «**أرض النور**».(١٦)

إن تقسيم (**عالم النور**) إلى «**أرض**» أو «**عوالم**» عديدة بأسماء خاصة بها نجده- كما يؤكد الاستاذ غضبان رومي- في «النصوص المتأخرة»، أما قديمة العهد فلا تذكر هذا التقسيم، أما (يوشامن) فليست له صورة واضحة، فهو «ثنائية» الموقع في الديانة المندائية، في (عالم النور) مثل (الحياة الثانية). ووصف بالشخصية «**المتمردة**»، و«**العاصية**»، أو «**المتكبرة**» و«المتعالية»، ونتج عن ذلك صور متعددة ومختلفة له.

أما (أباثر) (الحياة الثالثة) فهو التطور لعملية التكوين الثانية وللحياة الثانية، وعن تطوره (كحياة ثالثة) تتكون الحياة الرابعة (بثاهيل) التي تتضح أكثر بكونها «**ملاك الميزان**» أي ملاك العدالة، الذي سحب الإشعاع من العتمة

حيث للموازين صفة التحرر من الخطيئة إذ تعتبر بوابة عالم النور والعدل.

(بثاهيل) المعادل (الحياة الرابعة) المشارك في عملية تكوين (العالم الأرضي)، تصرف بتوجيه من أبيه، ويأمرٍ من (الحي العظيم) فأحدث تصلباً بمساعدة «الحرارة الحية»، أو«الاشعاع الحي» في «الماء الأسود». لم يكن أبا «للشيباهي» و«الابراج» بل تبناهم، أي تولى توجيهم فقط.

■ خلق الإنسان:

«بثاهيل» وملائكة الكواكب كونوا «**جسم آدم**» (تغرا) بايعاز من أبيه (أباثر) وبقدرة الخالق (الحي العظيم) وإرادته، ويسمي (پثاهل) آدم «إبناً له» ويعطيه لقب «**ملك هذا العالم**»، وهو نظيره ونظير «أباثر» (مثيلهما)، أصبح أصلاً لجميع الأجناس البشرية، رأساً للسلالة البشرية، خلقت له (شريكة) **هي** (حواء) ونسله تكاثر منها، فيكون الرجال الصادقون المختارون. وجاءت ولادة الكائنات النورانية، أو «الآدميون الكونيون» من حالات الحمل. وهكذا فان (**آدم الكوني**) هو أب لعدد من (الكائنات النورانية) بحسب «الكنزا ربا».

أما اسطورة زواج **بنات** آدم (ع) من إخوانهن، فان الدين الصابئي المندائي قد خالف الأديان الأخرى في هذا التأويل، ففي محاضرة للباحث غضبان الرومي ألقاها بكلية الآداب- جامعة بغداد- قسم الدين بتاريخ ٢٩/٤/١٩٧٥، أكد: بأنهن لم يتزوجن إخوتهن، بحسب العقيدة المندائية، إنما أمر اللّه بنقل بنات آدم إلى عالم آخر يسمى (عالم العهد) فيتزوجن هناك، وجيء بفتيات من العالم المذكور تزوجن أبناء آدم، وبهذا (الانتقال) تخلص الدين الصابئي من أسطورة الزواج من الأخوات، لأن الدين الصابئي يعتبره محرماً. (١٧)

لذا يعتبر بنات عالم العهد، (**بنات السماء**).

بعد خلق آدم وحواء، تُوضح لهما (**طقوس العبادة**)، ومنها (**طقوس المعراج**) (معراج نشمثا) وذلك من قبل مرسل النور (منداهي).

أما عملية خلق الإنسان التوحيدية، ففي النصوص المندائية، نجد أن (**الجسد**) هو من صنع (خلق) «**عالم النور**»، أي من صنع أحد رسل عالم النور، وتتحدث نصوص «الكنزا» عن كيفية (**خلق الإنسان**)، وهي تصورات توحيدية، حيث يعطي (**الخالق العظيم**) الأمر إلى (**جبرائيل**) أن يكون عالماً ويكون الإنسان:

«رجل وأنثى يجب أن يكونا

واسماؤهما يجب أن يكونا: آدم وحواء»

إن ايقاظ (جسد آدم) بواسطة «نشمثا»، أو «آدم الخفي»، أو «مانا» أي: «نسمة الحياة» يعني حضور (عالم النور) في عملية (الوحي):

«وجعلت آدم يشم رائحة «الحي العظيم»
وجسمه امتلأ بعلامات الحياة
و«ضياء الحي» حل فيه»

وهكذا، عندما حل «ضياء الحي» فيه، صعد «ادكاس- زيوا» إلى موطنه، وصيغت هذه الأفكار صياغة جيدة في نصوص «كنزا ربا» (الأيمن: ١٤٥، ص ٣٧٧) حول هبوط «نشمثا» في جسد آدم، وخلاص آدم.

الخلاصة:

والخلاصة التي يقدمها الاستاذ غضبان رومي لرباعية الخلق: عالم النور، عالم الظلام، عملية الخلق، خلق الإنسان، جاءت في العديد من النصوص المندائية، وبشكل مطول.

١- عالم النور:

إن «لاهوتية مانا» و«لاهوتية الحياة» يوازي أحدهما الآخر، وهما، قديماً، لم يكونا «وحدة متكاملة»، فنصوص «الكنزا..» (الأيسر) تنطوي على معلومات قديمة العهد ومؤرخة بصورة جيدة، تعتبر «الحي العظيم» أو «الخالق العظيم» بمثابة (الكائن السامي) فقط، ومرسله هو «منداِدهي» بدلاً من «مانا» ذي الطبيعة الخاصة (الذاتية) كرمز لـ «نشمثا» حيث يرمز مفهوم الـ «مانا»، قديماً، إلى الانقسام الذاتي للحياة، ثم يبدأ يتجسم، ليصبح قسم منه مكان الحياة، تماماً كما في «قصة الخلق البابلية» حيث (مردوخ) كبير الآلهة، الخالق العظيم، في صراعه مع الماء المالح والماء العذب، يخلق من تيامات، وآبسو، الخلق والإنسان والكواكب. وظهور «مانا» بدلاً من «نشمثا بحسب «الكنزا» الأيسر، أي ظهور «نسمة الحياة أو النسمة» يعود إلى التصوات حول «خلود (نشمثا)».

إن لاهوتية «مانا» ولاهوتية الحياة كلتاهما توصفان بمصطلحات مختلفة،

ولكنهما متماثلتان، وبينما تشير مصطلحات الخلق إلى التراث السامي القديم (سومر، بابل) تنقل لنا مصطلحات الانبثاق أو (الانبعاث) افكاراً معرفية. وهكذا تظهر التصورات عن «الحي العظيم» (الخالق العظيم) بأنه يقع على قمة الكائنات النورانية (وهو الإله الوحيد)- فوق تعدد الآلهة تماماً كمردوخ- أو «قمة» أو «أصل عالم النور»، وينظر لهذه التصورات كشكل قديم أو فكرة أولى لنشوء (الفضاء الكوني) بمعنى أنها (الفكرة الأولى لعملية الخلق الإلهي).

وللحياة، أيضاً، أصل، هنا، حيث تجسدت ككائن نوراني.

وهذا يعني أنها انبعثت من «مانا» العظيم، وبدورها التمست من (الحي العظيم) أن يخلق لها المشاركين في عملية (التكوين)، فـ «مانا العظيم» الوقار، شُخِّص بـ «مـانـا» أو «نشمثا» التي أصلها يعود إلى «عالم النور»، والتي اصبحت أساس «فكرة الخلاص». (١٨)

نلاحظ هنا التقارب في المعنى بين «فكرة الخلاص» التي تعادل «مانا»، وبين فكرة «النبي المخلص» التي أطلقها على نفسه «ماني البابلي»، ثم التقارب اللغوي، اللفظي والمعنوي بين «مانا» و«ماني» ويبدو أن «فاتك» البابلي، لم يطلق هذا الاسم على ابنه، جزافاً، ولم يأتِ ادعاؤه بأنه رأى في الحلم بأن اللّه يدعوه ثلاثاً، إلى الهجرة لميسان، ومغادرة «المدائن» إذ كان ماني بعد في الرابعة من عمره، ثم ليؤمن بالمندائية ديناً له، ثم لابنه «ماني» المخلص للبشرية، إلا لأن فاتكاً على اطلاع بَيِّن على علوم البابليين ودياناتهم، وعلى المعتقدات السائدة آنذاك، وكانت «المندائية» كما أوضحنا، معتقداً، أو ديناً، حنفياً، توحيدياً، في مقابل الوثنيات وتعدد الآلهة، الذي كانت عليه أقوام تلك الفترة العتيقة من الزمن.

٢- عالم الظلام:

تكونت (أرض الظلام) من (الماء الأسود)، ومنه انطلق «ملك الظلام» بطبيعته الشريرة.

ومعلوم، من معنى الاسم، والتسمية، أن عوالم الظلام كثيرة، لاحد لها ولا حدود، أرضها الماء الأسود (القاع المظلم العميق) وسماؤها أشد ظلاماً (الغور النائي)، وطبيعتها «شريرة» بدءاً وانتهاءً.

وهذا المعنى يتعالق مع «العالم السفلي» حيث الجحيم، وأرض اللاعودة، والطاعون، والموت، والعقاب، والشياطين، كما في أساطير بابل: نزول إنانا إلى العالم السفلي، ومأساة تموز، والآلهة الجحيمية أريشكيكال، الشقيقة المثيلة إنانا، عشتار، ووجهها الآخر.

في النصوص المندائية تصوران (للتطور) الذي حصل في عالم الظلام:

الأول أن سيد الظلام (أور)- نلاحظ المسمى، مقارنة بأور الكلدانيين، وأور – شليم، (التضاد) ومرجعياته ومدلولاته كموحى، ومسمى..

نقول: إن سيد الظلام (أور) ومن ألقابه أو صفاته: (الهائل)، (التنين)، (المارد) هو، ابن (الروهة) – يرد ذلك في نصوص كنزا ربا الأيسر–

الثاني: سيد الظلام. هو سيد «ملك الظلام»، وهو نتاج «الماء الأسود» (النشوء الذاتي)، كأنه تخلق من العماء الأول- كما في قصة الخلق البابلية – ومن ناحية فهو «سيد الظلام» بأوصاف متعددة ونعوت، بخاصة «الماء الآسن»، وهذا (الماء الأسود، الآسن) موجود أصلاً كوجود (عالم النور)، إنه نقيضه المتخلق ذاتياً، ويعني ذلك أن وجوده، بطبيعته الشريرة، موجود منذ البدء، إذ لا وجود لضوء دون أن يكون ثمة ظلام، كي يتم، وكي يحضر، في اللفظ، والمسمى، ولكن ثمة عدداً من النصوص تذكر أن الظلام تكوّن بأمر من (الحي العظيم) (الخالق العظيم) و«الروهة» – كأنها العماء الأول- تدخل ضمن هذا المفهوم.

هذه الثنائية أساس الثنائيات التي جرى تأويلها بعدئذٍ في كل الديانات، مثل متوالية، الخير والشر، الحياة والموت... الخ، فمنذ الأزل كان ثمة وجود وعدم، وكان ثمة صراع ولابد أن يكون النور، الضياء، مقابلاً متضاداً للظلام.

٣- عملية الخلق:

منذ الأزل، منذ العماء الأثيري الأول، كان قبل الكون، ثمة خالق مبهم، في الأساطير القديمة، منه، ومن قدراته خلق الكائنات والأشياء.

ولم تخرج المندائية عن هذا الأصل – الجذر – ففي (الكنزا ربا) تم التطرق، في بادئ الأمر، إلى «الحياة الثانية»، و«الحياة الثالثة»، وعلاقة كل واحد

منهما بـ «يوشامن» و«أباثر»، وكلاهما يعود إلى «الأثري» المشاركين في عملية (التكوين) بأمر من (الخالق العظيم)، وبين هذا «التداخل» المباشر لعالم النور في عملية التكوين ذاتها.

وقديماً، ينتميان، أيضاً، إلى دوائر وأفكار ومنقولات ومرجعيات مختلفة، ولا يشار لهما بشكل صارم، بخاصة في النصوص المندائية المتأخرة.

ومع «الحياة الثانية» بدأت (الأعمال غير المكتملة في عملية التكوين)، ونعني بـ «الحياة الثانية» «يوشامن» الذي يوصف بمسميات مختلفة ونشوء مشابه، نلاحظه عند «أباثر» أو «الحياة الثالثة». وكأب للمشاركين في عملية التكوين أصبحت هذه الشخصية سبباً مباشراً لها. إذ من الممكن، ومن خلال اسمه ومعناه الآخر: (أباثر- موزانيا) أمكن معرفة أنه «ملاك الميزان» (أي حاكم الـ «نشماثا»- النسمة- ودوره ككائن متكبر ونوراني شارك في التكوين)، وهي أفكار سامية معرفية، أما المشارك الآخر في (التكوين) فهو «بثاهيل» بن «أباثر»، وترد اسماؤهما معاً ودائماً في النصوص القديمة العهد، حيث (بثاهيل) قام بتكثيف وتصليب «الماء الأسود» (أو: المضطرب، الظلام) بتكليف من ابيه: أباثر، ويأمر من (الخالق العظيم)، بمعنى أن عملية التكوين تمت بتدخل مباشر أو بمساهمة الخالق العظيم (الحيّ العظيم) أو (ملك النور)، وهذه أفكار توحيدية، تنسحب حتى عملية الخلق في الدين الاسلامي. وأهم عناصر التكوين هو الماء، أولاً، كمرجعية تلتقي عنده كل عمليات الخلق منذ أسطورة، أو قصة الخلق البابلية، وحتى الإسلام ﴿... وجعلنا من الماء كل شيء حي...﴾[الأنبياء: ٣٠] .ومن تحليل النصوص المندائية تتضح العلاقة بين (الروهة) و(ملائكة الكواكب) بصورة مختلفة، وتتضح، أيضاً، كيفية تكوين («تيبل» أو: العالم الأرضي، أو العالم المادي).

إن «بثاهل» شارك في هذه العملية، ونتج من خلال تفحص العلاقة مع عملية الخلق البابلية أن ثمة نموذجين للخلق هما:

- وصف الخلق بالكلمة
- وصف الخلق الآلي (أي بالواسطة)

وكلا النموذجين مبرهن وجودهما في الشرق القديم، كما هو موجود في المندائية في وقت ما قديماً، ومغزى رد الاعتبار إلى المشاركين في عملية

التكوين، الذي أصلهم من عالم النور، يقود إلى التعاليم التي تتحدث عن حصول هذه الكائنات النورانية الثلاثة على الخلاص يوم الحساب، وهم:

«يوشامن» و«أباثر» و«بثاهيل»– بحسب كهنة المندائيين– وفي هذا الخصوص يكون ذكر تفسير رجال الدين، أيضاً، مؤشراً، ففيه يتصور المرء بأن هذه العملية تعتبر بمثابة رد الاعتبار وتنقية الكهنة (السماويين) الخاطئين، وكنتيجة لهذه الفكرة يوصف تكوين العالم الأرضي والمشاركين بهذه العملية، ايجابياً، ويظهر ذلك جلياً في فكرة (الخلق التوحيدية) لكون كل ما تم، هو بأمر من اللّه، ولا راد لقدره، حيث تتجسد هذه الفكرة من خلال التدخل الذاتي والمباشر لـ «الخالق العظيم» (الحي العظيم) (الرب السامي أو ملك النور) أثناء خلق العالم الأرضي.

وهكذا يضع المعتقد المندائي «بثاهيل» في مصاف (رسل النور) ومنهم، أيضاً، «هيبل زيوا» الذي ينعت في عدد من النصوص بـ «جبرائيل الرسول».

وجانب محرك لهذا التصور، الذي يتعلق «بمجموعة رحلات الظلام»– وهي الفكرة التي تذكر أن «بثاهيل» يملك ثنائية الموقع بين النور والظلام، ويتضح ذلك من علاقة «هيبل» بابنة العالم السفلي «زهرييل»، حيث ترد هذه الأفكار بخاصة في النصوص المتأخرة من الأدب المندائي، وهي (تعاليم) يمكن ربطها بالميثولوجيا القديمة عن تنزيل «ماء الحياة» و«نشمثا» (النسمة) إلى عالم الظلام: رحلة إنانا..

وحول ميثولوجيا رحلات الظلام، يلاحظ رومي، في هذه الموروثات «الميل الزائد للابتعاد عن «هذا العالم» والذي يماثل الظلام في تكوين عالم سفلي يوازي في هيئته عالم النور؛ فحاكم الظلام «أور» يأخذ من حاكم العالم الأرضي «بثاهيل» لقب «سيد العالم الأرضي».

وأقدم التصورات، من هذا النوع، هي عند هبوط «مندادهي» الموغلة في القدم، وانتصاره وتقييده «أور» قبل عملية خلق العالم الأرضي.

وتولد هذا التصور من الفكرة القائلة: إن أحداث (الخلاص) موجودة منذ زمن، قبل خلق العالم الأرضي، وإن العالم الأرضي أصلاً تكون فقط من خلال تدخل «عالم النور»، لذا فإن «أور» لا يعود إلى التصورات القديمة للميثولوجيات المندائية فتتضح العلاقة مع الفكرة (التوحيدية) لعملية الخلق.

وقديماً، يتوضح الدافع إلى رحلات الظلام في الميثولوجيا المندائية كونه مرتبطاً بهبوط «**المخلص**» لتخليص «نشماثا»، وليس لذلك علاقة بعملية **التكون (تكون العالم الأرضي)**. ويتضح أن الكواكب و«**الروهة**» هما: «محطات ظلام». وفي المنقولات المندائية المتأخرة، تبقى صفة الكواكب كونها «شريرة» و«مظلمة»، ولكن العالم السفلي الحقيقي يقع خارج ذلك؛ وتحت «**تيبل**» ومملكة «أور»- بحسب كنزا ربا- وليست أور الكلدانيين القديمة، هي التي تقع في الحيز ما بين الكواكب والعالم الأرضي (أي عالم الأشرار) حيث تبقى الكواكب كمحطات للحساب (**وهي بمثابة المطهر**).

وتطابق مرحلة الظلام مع عملية التكوين تعني تثبيت شخصية (**مرسل النور**) وتدخل (**الخالق العظيم**) بشكل مباشر، وهي، أيضاً، (**أفكار توحيدية**) نجدها فقط في نصوص (كتاب يحيى: ١٣-٦٦) كذلك رحلة الظلام الآخروية لها أصول قديمة وهي «**تخليص نشماثا**» من عالم الظلام (**غير الدنيوي**) أو من (**مجال الكواكب**)، أي من (**عالم- المطهر**)، حيث نجد هذه الأفكار في النصوص المتأخرة فقط. ويأتي «**هيبل- زيوا**»، بخاصة، في هذه النصوص كمرسل للنور، ويذكر بدلاً من «**منداهي**» في هذه الوظيفة، فالنصوص المتأخرة التي تتحدث عن رحلات الظلام مرتبطة أغلبها مع «**هيبل- زيوا**»، لكنها تحمل أفكاراً ودوافع تنطبق على شخصيات أُخر، فأول هبوط «**لمنداهي**» يأتي، أصلاً، مرتبطاً بفكرة (**الوحي**) الأولى لآدم، (**أي بمعنى** إيصال المعرفة والعلم لآدم أو اكتشاف المعرفة له) (١٩).

٤- خلق الإنسان:

نصوص عديدة في «كنزا ربا» اهتمت بعملية خلق الإنسان، نجد فيها التفريق بوضوح بين (**تكوين الجسم**) (**يغرا**) **أو** (**الجسد**) (**شطونا**) **لآدم**. **أي أن تكوين** (**جسم**- آدم: آدم- **يغرا**) **حصل من قبل المشاركين في** (**عملية التكوين**) **وملائكة الكواكب، بأمر من الخالق العظيم، حيث نجد فيه ملامح من العالم الأكبر** (**عالم النور**) **وحلول** (أو: **هبوط** / **نشمثا**) **في الجسد بواسطة أحد الكائنات النورانية، ولا توجد نصوص موحدة عن ذلك، أي من هو هذا** (**الكائن النوراني**)؟

ومع ذلك نذكر اسماء (الرسل)، الذين يتعلق الأمر بهم وهم: «**مندادهي**» **أحد** الأثري المجهولين، وعدد من «**الأثري**»، «الحياة» نفسها، «**هيبل- زيوا**» (**جبرائيل**)، «**ادكاس زيوا**».

يقول **غضبان رومي**: «لا يمكن الحصول على معلومات من النصوص حول تأثير المعرفة في عملية تكوين الإنسان التي تلعب دوراً في هذه **الموروثات**» **إلا أنه** يبدو، كما يعتقد، أن «نشمثا»- قديماً- قد جلبت من قبل «مندادهي» أو أحد الرسل المجهولين، وتؤول «**نشمثا**» هذه مثل «آدم- **الخفي**»، ولهذا فهي تعتبر «كائناً نورانياً»، فهي من جهة (**آخروية**) وأخرى (دنيوية) **في** «**جسد** - آدم»، ونتيجة لذلك يمكن أن تكون كـ «**مرسل**» **أو** «**مخلص**».

ويبدو، أنه جرى منذ ذلك الوقت، أن المصطلح: (آدم- **الخفي**) (آدم- **كسيا**) قد قلب إلى كائن نوراني خاص اسمه: (**ادكاس**) «**زيوا- مانا- ملاكا**» يمكن توضيح ذلك بما يأتي:

- (**نشمثا**) = (آدم- **الخفي**)
- (**نشمثا**) = (**مانا**)
- (**نشمثا**) = (**ادكاس**)

وكذلك فإن (ادكاس) قابل بدور حامل (نشمثا) أو (مانا)، ويعني هذا في الواقع، هو نفسه (ادكاس- مانا)، وبهذا فهو «**أبو آدم الأرضي**».

وفي النصوص المتأخرة نجد أن «**هيبل**» هو «**حامل نشمثا**» بدلاً من «ادكاس» كما تناط هذه المهمة، أيضاً بـ «بثاهيل»، وهذا مبرهن في نصوص «**كنزا ربا الأيسر**».

وهذا (**المفهوم**) تعبير عن دوره القديم، كأحد المشاركين في عملية التكوين للعالم الأرضي، الذي يفهم، أيضاً، أنه (كَوَّن) جَسَدَ- آدم بأمر من «**الخالق العظيم**» وهبوط (حلول) (نشمثا) بدلاً من (ادكاس) هذا، في الجسم أو الجسد تقيّم سلبياً، أي هبوط الـ «نشمثا» في الجسد الفاني ويحزن من أجلها.

ولكن هذه الفكرة، كما يبدو، تربط التعاليم التوحيدية التي تشخص «بثاهيل» بأنه أحد رُسل النور الجيدين، الذي كوّن (صَنَعَ، خَلَقَ) جسمَ الإنسان بأمر من الخالق العظيم، (ملك النور)، وأن عملية خلق الإنسان(التوحيدية) هذه، والتي فيها كوّن (بثاهيل) جسم الإنسان وغرس فيه «نشمثا» نجدها في النصوص المتأخرة: (كنزا ربا الأيمن: ٢٢١ و ١٣، وكتاب يحيى: ٥٥).

عندما يأتي (خلق آدم) في مقدمة النصوص، يكون، أيضاً، الحديث عن (خلق حواء)، ومثل آدم، تعتبر حواء، أيضاً، قد (كونت) بأمر من (الخالق العظيم)، وبحسب نصوص اخرى، تعتبر بمثابة (هبة) عالم النور لآدم.

وهذه النصوص تذكر أنها خُلقت (بصفة أو بصيغة) خاصة.

والتصورات المتأخرة التي تتعلق (بتعاليم- ادكاس) تذكر أن لحواء، أيضاً، مثيلاً سماوياً وهي: «إنانا دنهورا» (يرد ذلك في نصوص: كنزا ربا الأيمن: ٣) وهي شريكة (رفيقة) ادكاس، أو (آدم الكوني).

وهذا التشكل من الخلق له مثيله، تالياً، في القرآن الكريم، وقبلاً في الميثولوجيا الرافدية: مردوخ وتوأمه ايرنيني، في نص : (تعويذة موجهة إلى مردوخ) حيث نجد بجانب مردوخ تظهر آلهة هي **عشتار** باسم (ايرنيني)، وهي ظاهرياً غير متعلقة به، بل إن صفة «**التوأم**» التي تعطى لهذه الآلهة، لا تجعل منها في الواقع منافسة لمردوخ، بل نوع من ازدواجية لذاته، أو مكملاً له، كي لا يعيش وحدانية، وكي يكون للخلق مداه في النماء، حين يكون للذكر آدم، أُنثاه، رفيقته، وشريكته في تكاثر الجنس البشري. (٢٠)

ونلاحظ هنا تسمية «إنانا دنهورا» ذات مرجعية ميثولوجية قديمة، تعود إلى (إنانا) السومرية، حيث العبادة التوحيدية الأولى كانت لإله القمر «إنانا – سن» أو: (سيدة النواميس) كما تدعوها «انخيدوانا» الأميرة الشاعرة السومرية – الأكدية، ابنة الملك سرجون الأكدي ٢٣١٦–٢٣٧٠ ق.م، سلالة أور الثالثة، التي نصبها والدها (كاهنة عليا) في معبد إله القمر (نانا سن) للتعبير عن الهيمنة على أور والوركاء. ومن خلال شعرها الذي انعمت فيه الصفات الكبيرة على (**عشتار**) خطاب محبة، وتمجيد، بخاصة قصيدتها التي نظمتها في مدح خصال إنانا، والتي تتضمن، أيضاً، موضوعات أخرى بمثابة مطالب وابتهالات كالاستغاثة بنانا– سن.(٢١)

فإذا كان المعتقد المندائي يجد لحواء مثيلاً سماوياً هي: (إنانا دنهورا)، يمكن، إذاً، ربط تصور عريق، يتلخص في أنه يوجد زوجان أوليان نورانيان (خفيان) لجسدي– آدم وحواء – الأرضيين، ويفهم من ذلك أن «**لكل مندائي مثيله (دموثا) أو ما يقابله في عالم النور**».

كذلك، أيضاً، ابناء آدم ومثيلهم، بحسب التصورات المتأخرة، يسكنون في

«**مشوني- كشطا**» أي (عالم الحق)، العالم المثالي للمندائيين، وهو: «**الجنة**»، **وهو، أيضاً**، العالم المثالي لأغلب الديانات السماوية، وبخاصة: **الإسلام**.

وكتصورات قديمة، وبحسب نصوص كنزا ربا الأيمن: ١١، والأيسر: ١، عن أبناء آدم (الآدميين) الثلاثة: **هيبل وشيتل وانوش**، العادلين المثاليين، أي الناصورانيين، الذين لم تؤثر فيهم كوارث معينة (كالحروب، النار، الطوفان) والذين انقذهم مرسل الحياة «**مندادهي**» ومنحهم «**الخلاص**»، ومنذ ذلك الوقت، يعتبرون بمثابة «**رسل النور**» معاً مع (منداد هي)، وهي مكانة اكتسبوها بسبب (أصولهم) الآخروية كـ: **نشماثا** أو «**مانات**»، ولهذا السبب يكون قد بني هذا التصور عن الأصول الأولى للآدميين السماويين (**الخفيين**)، وكما يمكن أن يطلق عليهم تسمية: «**الأنس السماوي**».

في هذه التصورات، تكونت الأفكار التي تتحدث عن الآدميين السماويين الذين يقفون بمرتبة واحدة مع شخصية «ادكاس» (آدم- كسيا، أي: آدم- ربا)، وهكذا لا يمكن فصلهم بسهولة عن الآدميين الأرضيين. وهذه التصورات يندر وجودها في الموروثات القديمة.

أما فيما يخص «**الوحي**»، فان تعاليم عملية «**الوحي الأولى**» للإنسان تعود إلى تصورات قديمة العهد، وهي أن جلب «**نشمثا**» يطابق «**معرفة الحياة**» (**ادكاس- منداد هي**)، وكمرحلة ثانية، تتحدث هذه التعاليم عن التمييز بين «**هبوط نشمثا**» و«**فكرة الوحي الأولى**» أو عملية (**الايحاء بالمعرفة**) على ما يبدو بالتعاليم والضوابط الأخلاقية المندائية التي أوحيت لآدم.

إذاً، إن ملاك الرب الحارس، الذي نزل، بأمر من الخالق العظيم، بحسب كتاب (تعاليم يحيى) ليرى عالم العهد، الذي أرساه الله (بكلمة)، يحمل ذات المعنى، من علوم الكلدانيين، المتعشقة بحضارة سومر، إلى حاضرنا، من: إله العلى، الذي كان تحت يديه وامرته، كل ما هو مكتوب في السماء والأرض، مسيّر الأرض والسموات، منذ أقدم الأزمنة، سيد الكون، الفضاء، إلى هذا التزاوج، مع ما انجبته النصوص المندائية من ديانة. توحيدية. العالم، هو، المعرفة به يبدأ بالكلمة، وينتهي بها.

الإحالات:

١) **ترجمة د. يوسف حبي** بعنوان «علوم البابليين»، دار الرشيد، بغداد، ط ١٩٨٠.

٢) Georges Contenau: عالم آثار فرنسي ولد سنة ١٩٧٧ ونقب في (تبه- جيان) مع (كريشمان)، وكتب عن حضارة وادي الرافدين، وقد ترجم له الاستاذ سليم طه التكريتي كتابه المميز: (**الحياة اليومية في بلاد بابل وآشور**)، دار الرشيد، بغداد، ١٩٧٩، وله مؤلفات أخرى أهمها في آثار الشرق، وفي الطب البابلي.

٣) **مرغريت روثن**، علوم البابليين، المصدر نفسه، ص ٤٧.

٤) **محمد الجزائري**، خطاب العاشق- ميثولوجيا وشعر- دار الشروق، عمان، ط١، ١٩٩٦ ص ١٠٦.

٥) السابق نفسه: والهامش ٣٠ وما تلاه (ص: ٢٥٨-٢٦٠) توضيحاً لاسم عشتار، الذي يقول التعريف ان اسمها يعني: «**عيش الأرض**» أو (**كيش دار**)، واندمجت.. إذ إن كلمة (كيش) أو (كش) gish , gesh، والتي تعني العضو، الذي هو الاسم السومري للرقم ٦٠ الذي يكتب بالعلامة المسمارية، والذي لو قسمناه على أربعة لحصلنا على الرقم ١٥، وهو رقم عشتار وفي المقطع (دار) يتكون من أربع علامات مسمارية تشكل دائرة.. **أي أن المقطعين متضادان رياضيان، ولكن أحدهما يتكون من الآخر، أو من وحدات الآخر، يدل كل اسم عشتار على العضو الذكري والانثوي، والله والإنسان، والكون.**

ورمز عشتار، **هو الصولجان والدائرة، أي العصا والدائرة، أما شعبياً فان الاسم يحتوي ضمناً التسمية الدارجة للعضوين التناسليين الانثوي والذكري معاً.**

٦) **محمد الجزائري**: القاتل والضحية- ميثولوجيا وشعر- دار الورّاق للنشر، لندن، ط١، ١٩٩٨، ص: ٢١-٢٢.

وانظر: ديانات الشرق الأدنى- لابات: ترجمة د. **وليد الجادر والبير أبونا، وزارة التعليم والبحث العلمي**، جامعة بغداد- كلية الآداب- قسم الآثار، ص ٤٧-٤٨.

7) S. Sauneron, Les prêtres de láncienne Egypte, PP. 123-124

٨) علوم، السابق نفسه ص: ٢٣.

٩) النص الكامل لشريعة حمورابي: الشرائع العراقية القديمة، د. **فوزي رشيد، وزارة الثقافة**، بغداد ١٩٧٧ ص ١١٩ (المادة ٢ من شريعة حمورابي).

١٠) **علوم البابليين** ص ٣٧ عن تعريف (الكاتب) في الأزمنة الغابرة العتيقة، **وص ٣٤.**

١١) غضبان الرومي: الصابئة، مطبعة الأمة، بغداد ط١، ١٩٨٣ ص ١٨٥.
١٢) علوم البابليين: ص ٦١-٦٢.
١٣) أنظر: الصابئة- رومي، نفسة ص ٣٧ وما بعده.
١٤) نفسه السابق.
١٥) الاشعاع الوهاج، الحرارة الحية، مقاريات في المعنى للقب حمورابي، وتركيبة اسمه كما سبقت الاشارة.
١٦) رومي، الصابئة، نفسه.
١٧) رومي، الصابئة، نفسه ص ١٧٩.
١٨) انظر فصلنا عن المانوية.
١٩) رومي، الصابئة، نفسه.
٢٠) أنظر كتابنا: القاتل والضحية، مصدر سابق، ص ٢٢.
٢١) أنطر كتابنا: خطاب العاشق، مصدر سابق، ص ١١٣.

٨

الطقوس

«بسم الحي
اصطبغت بصبغة إبراهيم الكبير»
«من صلاة التعميد»

لاحظ لابات أن المعزمين تخطوا في (نظرتهم) إلى ما بعد الطبيعة حدود الخرافات والمعتقدات الشعبية، لأنها كانت مرتكزة على نظرة مُرَوَحنة للعالم، بحيث أن العناصر الحية وغير الحية بدت وكأنها ذات وعي وارادة. وكان طاردو الشياطين وحدهم، يستطيعون، بفضل تجربتهم والحماية الإلهية التي لهم، أن يتحركوا دونما خطر ضمن القوى السرية والمضمرة، التي بوسع العقل البشري أن يتلمسها في الكون، دون التوصل إلى تحديد طبيعتها أو إلى اكتشاف عللها بوضوح. كان (العرافون) البابليون يشقون، بهذه الملاحظات والمشاهدات، أولى معالم طريق العلم (١).

وكان السحر يُكوِّن جزءاً من أنظمة الدولة وأجهزتها، لذا نرى الملوك يحيطون البلاط بالسحرة، والعرافين، والمنجمين، وكان الطب، أيضاً، تطبيقاً عملياً للسحر.

وكما كانت العرافة موحى، كذلك السحر، فهو في أيدي إلهين بابليين من الآلهة العظام، هما: إلهة مياه الغمر العميق، الحكيمة أيا، وهي ذات أصل سومري، وابنها، الإله البابلي مردوخ، وما الساحر سوى المفوض أو الوكيل أو الوسيط.

ولدى استخدامه هذا الفن، كان على الساحر أن يذكر بنوع صريح هذه الحقيقة:

«**أنا الساحر، الوكيل الأعظم، من يكمل الطقوس رسمياً...**

إني بشير أيا ومندوب مردوخ..

أنا الساحر اليقظ ذو التمتمة الناجعة..

هذا هو أنا .....»

وكان السحر يتمتع في المجتمع البابلي رسمياً باحترام لم يكن يخلو من الخوف(٢) ومع ذلك، لم يسلم السحر- بحسب كونتنو- حتى في حالة فصله عن سنده الشرعي، وهو الدين، من محاولة التكامل مع العلم، بل اجتهد، أيضاً، في اقتحام حدود المجهول.

وكانت «**الرقى والتعاويذ**» ترافق الطقوس السحرية

أما «**الشياطين**» فلعبوا دوراً بارزاً في السحر، وبما أن كل طغمة منهم (ذات أصل إلهي) لذا يصعب الوصول إليهم:

«**لا باب ولا مزلاج يصدهم،**

إنهم ينزلقون تحت الأبواب كالحيات..

إنهم أولاد الجحيم، في السماء يتعالى صراخهم، وفي الأرض همهماتهم..

في الزويعة المروعة يسلكون.. وهم في صفوف الآلهة الحكماء غير معروفين،

امض إلى مردوخ، فيقول لك ما يعرف عنهم..»

وكان الساحر يباشر، بفضل الإله مردوخ الذي يمثله، بمقارعة الشياطين خلائق الفوضى، وبخاصة ضد شياطين الأمراض، وذلك لانقاذ المريض الممسوك.. ونلقى، هنا، الطبيب جوار الساحر، لتشخيص المرض وايقاف الألم.

ميزت النصوص ثياب السحرة وألوانها والعصا، والحركات التي تقوي بعض خواص الأشياء المعروفة كجزء من الطقوس، لرسم الدائرة السحرية والتفوه بتأكيدات تعزز قوة الملفوظ في نفسية المتلقي وعقله وبدنه، حيث تتساوى الأدوات المستخدمة بمظاهر عدة، وبأدوات، وآلية، وفقاً لما يطابقها:

«**إن الدائرة السحرية لأيا، هي الآن في حوزتي**

خشب الأرز، سلاح أيا المقدس، هو في يدي

غصن، غصن النخيل المستخدم في الرتبة الكبرى، هو في يدي..»(٣)

وبالرغم من تلك الطقوس النائية، في الأزمنة العتيقة، نرى إلى لب الدين

الصابئي وجوهره يقوم، بحسب الليدي دراوور، على عبادة قوانين الحياة والخصب، فالحياة العظمى، كما لمحنا سابقاً، «**تجسيد سطحي**» يكون الحديث عنه- دائماً- بصيغة الجمع المبهمة، وهكذا يظل «**تجريداً غامضاً**»، ويقصد برمز «**الحياة العظمى**» هو «**الماء الحي**» (الجاري) وما يدعونه- بالمندائية- «**يردنه**».

من هنا يأتي الاغتسال، أحد أهم الطقوس الصابئية، وهو يعني «**التعميد**» أو «**الصباغة**» وبلغتهم: «**مصبوتا**».

فما هو مغزى التعميد؟

للتعميد مغزيان: الأول هو تطهير الجسد، لأن الجسد، هو «**وعاء النفس**» باعتقاد المندائي، والنفس هي «**نسمة من الذات الإلهية**»، لذا فالماء هو الوسيلة الأساس، منذ الأزل للخليقة والتطهير، تجد صداها كطقس ديني عند الصابئة المندائيين، فهم (يحللون) استعمال الماء الجاري، و(يحرمون) استعمال المياه الآسنة، من أجل ذلك وجدنا سكناهم لصق شواطئ الأنهار، لتسهيل إقامة هذه الشعيرة الدينية على وفق الطقوس القديمة.

لكن للزمن قواعده الجديدة، وتطور وسائل العيش وتيسير الماء النظيف دفع العديد من المندائيين بالاكتفاء بأداء هذه الشعيرة داخل البيوت الدينية المعدة لهذا الغرض.

وثمة، بطبيعة الحال، مستلزمات لهذا الطقس، يجمع عليها كل الذين عاصروا تقاليد المندائيين، أو كتبوا عن معتقداتهم وشعائرهم، ومن أبرزهم كما هو معروف الليدي دراوور، وليس انتهاء بالسيدة ناجية المراني والباحثين الأستاذين غضبان الرومي ونعيم بدوي.

ماء الحياة أو كما يدعوه المندائيون: (**مياها**)، **الماء الحي**، الجاري هو أول المستلزمات، ثم وجود إكليل ريحان أو آس (كليلا أو اسا) رمزاً للحياة والطيب..

وأن يتم طقس التعميد بالملابس الدينية الرسمية (رستا) وهي مصنوعة بالضرورة، من الكتان أو القطن الأبيض، رمزاً للطهارة والنور، يرتديهما الكاهن (**الأب المعمد**) والشخص المعمد، بعد تجردهما من ملابسهما الدنيوية، رمزاً للخلاص من أثقال الدنيا وأوزارها.

والرستا، أو ملابس التعميد، هي رداء أبيض يرمز إلى كساء النور الذي

يرتديه الروح الطاهر، وعلى جميع أفراد الطائفة، عامة وروحانيين، اقتناء هذا الكساء، الذي يتكون من:

– القميص: ويسمى «كسويا» أو «سدرة»، ويجب أن يكون مقداره حوالي ستة أذرع للرجل الحي، وبين سبعة إلى ثمانية للميت، من قماش قطني أبيض يُعمل أو يشترى.

– الدشة: أو (دشا): هي رقعة من نفس القماش تخاط من الخارج من أعلى الناحية اليمنى من فتحة الصدر.

– الشروال: أي السراويلات، وهي طويلة ومرتخية وتشبه السراويل الهندية.

– التكته: أي التكة، وهي الخيط الذي يشد السراويل إلى البطن، ويترك احد طرفي التكة دون خياطة، ولدى الشد يجب أن يوضع الطرف غير المخاط فوق الطرف المخاط، وحين يربطان يتدلى الطرف المخاط إلى الجهة اليمنى.

– برزنتا: أي العمامة، قطعة من الموزلين الأبيض عرضها حوالي ذراع تلف ثلاث لفات حول الرأس وتترك احدى النهايتين مدلاة فوق الكتف الأيسر وتدعى هذه النهاية «رغزة» وتسمى «بندامه» حيت تلف «الرغزة» حول الحنك بحيث تغطي المنخرين والفم ثم تصعد إلى قمة الرأس وتدس في الجهة اليمنى من العمامة ولا تستعمل «البندامة» إلاّ من قبل الكهنة أو من قبل «الحلالية» (سامرايي) حملة الجنازة.

– والرستة للمرأة كالرستة للرجل عدا عن سحب «البرزنتا» وشاحاً فوق الرأس ويدعى «شياله»، لعلها كلمة «شيلة» العامية، المستعملة في جنوب العراق، وقد تكون مأخوذة من هذا اللفظ الآرامي.

– النصيفة: أو «القبوعة» وهي قطعة طويلة ضيقة من الخام أو الموزلين تلقى على الكتفين كما يرتدي (الطبرشيل) المسيحي، ولكن يكون في الجانب الأيسر أقصر بصورة ملحوظة من الجانب الأيمن، وأثناء إجراء «الرهمي» (أدعية تمهيدية للتركين) توضع النصفية فوق الرأس ويمسك بها من الجهتين تحت الحنك، وتدعى حينذاك «كنزاله»، وبعد ذلك تعاد إلى وضعها الأصلي.

– الهيمانة أو «الزنار» نسيج مجوف من ٦٠ خيطاً صوفياً.

– التاغة (للكاهن فقط) أي التاج، وهي حلقة مجوفة من الحرير الأبيض أو القطن تلبس تحت العمامة.

- شوم ياور (للكاهن فقط) وهي حلقة من ذهب تلبس في خنصر اليد اليمنى.
- **الصندل**: (صندلا) وينسج من الصوف أو القطن على قاعدة من الخشب، وهو ضروري، لأن الحفا خطيئة عند المندائي!

وثمة أدوات أخرى يقتضيها الطقس مثل: (طريان) أو الطبق من الطين مع غطائه، وقنينة أو كوب للماء، وإناء لوضع البخور، وراية بيضاء حول خشبة مصنوعة على هيئة علامة الجمع (+) وتسمى بـ «راية السلام».

والتعميد على نوعين: **المستحب**، وهو ما يرغبه المندائي، سنوياً أو بالمناسبات الدينية، ويعتبر من صلب الطقوس الدينية لطلبة التوبة والمغفرة.

والوجوب: التعميد الجبري الذي يخضع له كل مندائي على وفق الحالات الآتية:

- **تعميد الطفل** بعد الولادة بفترة مناسبة، **وتعميد الأم** بعد مرور (٤٥ يوماً) على الولادة.

وتعميد الزوجين قبل إجراء مراسيم المهر، وبعد أسبوع العرس، ومن يتخطى ذلك يعتبر خارجاً على الدين! **وتعميد المؤمن** (عالم الدين) على يد غيره من علماء الدين في كل مناسبة، **وتعميد الناصورائيين** من الجنسين- وهو تعميد وجوب الرتبة، وتعميد المتدينين بعد قيامهم بمراسيم حمل الجنازة والدفن. وهنا، كما ذكرنا، التعميد (لمن يرغب) من المندائيين عامة، وأكثرهم يتعمدون- عادة- بكل مناسبة دينية، لا سيما القدامى منهم.

أما **خطوات التعميد** فتتم بتجريد الشخص من الملابس الدنيوية وارتداء الملابس الدينية مباشرة، ثم النزول إلى الماء والغطس فيه، ثم الارتسام بالماء مع ذكر اسم اللّه وشرب شيء من ذلك الماء، فالختم ووضع اليد اليمنى على رأس المتعمد، وأخيراً المصافحة أو أداء اليمين.

يفتتح الكاهن (الأب) القائم على التعميد الطقس بدعاء، ثم يتجه إلى النهر باسطاً ذراعيه ومباركاً الماء، فينزل إلى النهر ويدعو الشخص المتعمد ليردد بعده:

«بسم الحي

أنا أتيت بقوته تعالى، وبارادتي

الماء الذي يمنحني القوة، بشكل ثابت، انهيت به إلى التعميد،

لأتقبل الطهارة والرسم مرتدياً كسوة النور، واضعاً على رأسي
اكليلاً من الزهور،
اسم منداهي منطوقاً علي..»

ينزل المتعمد خلف الأب الكاهن،فيغطس ثلاثاً، ثم يأخذه الأب بيساره فيديره إلى اليمين ويضعه بين العصا وبينه، ويغمسه في الماء ثلاثاً. وهو يقرأ الصلاة الآتية:

«بسم الحي
اصطبغت بصبغة إبراهيم الكبير
ابن القدرة،
صبغتي تحرسني
وتسمو بي إلى العلا..»

بعد الغطس، يرسم الأب، المتعمد «أي يمسح جبهته بالماء ثلاثاً، بدءاً من اليمين إلى اليسار) ويسقي الشيخ، المتعمِد الماء براحة يده الشخص المتعمَد، ثم يصعدان إلى كفة النهر فيعطي الأب للمتعمد، اكليل الريحان ويضعه على رأسه مردداً:

«اللّه خلقني
والاثيريون قوموني
البسوني حلة النور
وكسوني ثياب الضياء
الأحد أحكم الأكليل على رأسي»

يتناول الأب المعمد الخبز ويكسر الرغيف ويناول المتعمد قطعة منه وشيئاً من الماء، ثم يضع يده اليمنى على رأس المتعمد، ويقرأ الدعاء الذي قرأه أولاً:

«باسم اللّه ربي، أسو وتزكية، قوة وثباتاً..»

ثم يضع يده اليمنى على رأس المتعمد (ليختمه) فيقرأ الدعاء ذاته، وأخيراً يصافح الأب القائم على التعميد الشخص الذي تم عماده مصافحة العهد وهو يقول:

«الحق يأسوك ويقومك
اطلب تجد

وقل تسمع
اسم اللّه العليم
مذكور عليك»
وهكذا اصبح الشخص مندائياً.

■ الصلاة:

داخل المندي، بخور، ووجوه خاشعة تتبدى من البخور، واشعة الشمس تخترق زجاج النوافذ،

المصلون، بصوت واحد يرتلون، تراتيل صلاة الظهر:

«بسم الحي العظيم
إنا للحي القديم سجدنا
وللرب عارف الحياة الموقر..
الذي من نفسه تكوَّن.»

الصلاة (البراخا)، عند المندائي، هي «ذكر اللّه» **في التسبيح والتبريك والحمد والدعاء والاستغفار**، وأول مبدأ من مبادىء الصلاة، هو أن يحب المصلي **(مخلوقات اللّه)** ويطهر قلبه من **(ارجاس الحقد)**.

كانت الصلاة خمساً فصارت ثلاثاً بعد مجيء النبي يحيى، الصباح بعد بزوغ الشمس مباشرة، والظهيرة، والعصر قبل الغروب. يتجه المصلون المندائيون إلى جهة الشمال، صوب شروق الشمس، فالقبلة مقترنة، عندهم، بالأعالي، بالسماوات، وبعالم النور، أما النجم القطبي فهو محض وسيلة لتعيين (القبلة) جهة الشمال، قيمته جغرافية حسب، وليس له أية دلالة دينية.

تتكون الصلاة من شعيرتين هما:

- **الوضوء** (الرشامة)

و- **التبريكات** (براخه)

ويتم الوضوء بالماء الجاري جلوساً ثلاث مرات في اليوم قبل الصلاة، **ونواقضه**: التبول، خروج الريح، النوم والاغماء، الأكل، ولمس أية نجاسة.

ولا يجوز الجمع بين وضوئين في وقت واحد.

يقترب المندائي من الماء قائلاً:

«بسم الحي ربي المبارك، أبارك. الأردن ماء الحياة
سبحانك اللهم الحي الشافي
باسم الحي ربي.. سلاماً وزكاة نهديك
يا أبا الآباء، ملك الماء العظيم، ماء الحياة
طهّرت يدي بالحق، وشفتي بالإيمان،
فطابت كلماتي، واستنار ضميري..»

يبدأ الوضوء بغسل الأيدي، فـ (الرشامة) يعني الرسم بالماء، (الرشم) يعني الأثر أو العلامة أو الطابع المميز، والكلمة المندائية (رشامة) هي علامة الصابئي، لأن رشمه أو طابعه هو الاغتسال بالماء وليس بالنار ولا بالزيت أو غيرها. وهو يقول، عادة:

«رسمي ليس بالنار ولا بالزيت ولا المسح
رسمي هو ماء الحياة،
ماء الأردن العظيم»

وحين يتلو المندائي الكلمات المرافقة للوضوء، يكرر ذلك ثلاثاً مع غسل الجبهة بالماء من اليمين إلى اليسار، ويقول:

«أنا فلان بن فلان، ارتسمت برسم اللّه، رسم اللّه العظيم العليم، مذكور علي»

يكرر القول الآتي ثلاث مرات مع غسل الأذنين والأنف وما تحت الملابس والفم والقدمين:

«اذناي تصغيان لصوت اللّه»
«ارتسم برسم الأردن ماء الحياة
الذي لا يُجحد انسان كرامته
واسم الرب العليم
مذكور عليّ..»

وإذا تقتصر (الرشامة) على الجلوس، قبل بدء الصلاة، حيث يتم التوضوء بالماء الجاري النظيف ثلاث مرات في اليوم قبل الصلاة وفي اوقاتها، يتوجه المندائي صوب القبلة، وعلى المصلي أن يرتدي غطاءً على رأسه احتراماً

للخالق، تقرأ التراتيل وقوفاً، واليد اليمنى باتجاه شروق الشمس، وأن يتم الانحناء عند ذكر اسماء اللّه الموقرة:

«بسم الحي العظيم

بسم الحيّ

واسم عارف الحياة

منطوق علي»

تقتصر صلاة الصبح على الوقوف باتجاه القبلة مع السجود كلما ذكرت كلمة السجود.

صلاة الظهر، تتم بعد سبع ساعات من صلاة الصبح وتقتصر على الوقوف باتجاه القبلة مع السجود للخالق عند ذكر كلمة السجود (سَغِدنا).

نص صلاة الظهر:

«باسم الحي العظيم

انا للحي القديم سجدنا وللرب

عارف الحياة الموقر

الذي من نفسه تكوّن»

أما صلاة العصر فتتلى في وقت العصر وقبل زوال الضياء، وبعد الانتهاء من الرشاما والبراخا وتقتصر على الوقوف باتجاه القبلة مع السجود للخالق عند ذكر كلمة السجود.

وهناك (**صلاة الأحد**) الصبح، وصلاة الأحد (**الظهر**)، وصلاة الأحد (**العصر**)، **وصلاة عيد الستة أيام** أو (**ليلة القدر**)، وتتلى بعد وضع الاكليل على أبواب المنازل من قبل أهل البيت كباراً وصغاراً. وعلى جميع العوائل المندائية أن تضع على أبواب منازلها إكليلاً من شجرة الغَرَبْ (هيلاف) الذي يعد من قبل رجال الدين في (المندي).

البسملة (هي ربي) أي الحي العظيم، وتكتب وتقرأ دائماً في بداية جميع الطقوس الدينية أو العامة:

«باسم الحي العظيم

اسم الحي واسم عارف الحياة

منطوق علي»

وللصلاة نواقض مثل: **الحيض عند المرأة، والجنابة عند الرجل، وفترة النفاس عند المرأة**، والأيام المحرمة و(**المبطلات**).

والمبطلات هي: الكلام أثناء الصلاة، أو البكاء، أو الأكل أو الشرب، أو الضحك، وكل ما يخل بقدسية الصلاة أو يخالف الرب.

والتبريكات تختتم عادة بسلام الملوك (**آسيت ملكا**)، وهي صلاة قصيرة يُهدى السلام فيها إلى الملائكة والآباء القدامى الأبرار.

■ النحر:

والمندائيون يعتقدون بوجود **الملك** (**الملاك أباثر**) عند باب الخلد، يستقبلهم عند صلاتهم، لأن المندائيين يؤمنون بالخلود و(**اليوم الآخر**) و(**بالجنة**)، وكما تعمدوا على ذات الطقوس العتيقة، التي تعمد بها يوحنا. في نهر الأردن، وغطس (طفل) اللّه، المسيح، مارس المندائيون طقس الاغتسال للتطهر، والتحلل من الخطيئة، والأوزار، لذا سُمي الفرات (فرات النور).

الديانة المندائية، توصي، ايضاً، باتباع طقوس خاصة، أوشعائر عند ذبح الحيوان، أو نحره، ضحية، قرباناً، أو طعاماً، فإذا كانت المندائية تحلل أكل الأغنام وأنواع الطيور (كالدجاج والبط والإوز)، وقسم من الأسماك، **بقصد** الافادة من لحومها أو للطقوس الدينية.. فان النحر يجوز طيلة السنة عدا أيام المبطلات.

وعادة ما يوصى بالنحر في أول كل شهر مندائي، وفي المناسبات الأخرى **كالأعياد والأعراس والمآتم**، وتراعى في النحور، أمور التطهير بالماء، أيضاً، إذ يتم تطهير السكين بتسخينها أولاً ثم غسلها بالماء، أما الحيوان المراد نحره، فيتم تطهيره، أيضاً، بالماء (**الطماشا**) = **أي** غسله، كما أن القائم بالنحر يجب أن يكون صحيح البدن، ويفضل أن يكون (حلالياً) (وهو من عائلة دينية سالمة من جهتي الأب والأم لعدة اجيال)، وأن يرتدي الملابس الدينية (الرستا)، وأن يتوضأ، ويقرأ سورة النحر وهي:

«**باسم اللّه العليم**

وباسم ملائكته النورانيين

نحراً زكياً يهب قوة وعافية
لكل الذين يأكلون منها
واسم الله العليم
مذكور عليك »(٤)

ويتم (النحر) بوجود شخص ثانٍ (**حلالي**) بمثابة الشاهد، حيث يجلس الناحر، بعد أن يغسل يديه، ويكون الشاهد (الحلالي) واقفاً، فيتم النحر.

والمندائيون لا يجوزون للمرأة القيام بعملية النحر، كما لا يجوز النحر بعد غروب الشمس باستثناء أيام عيد الخليقة (**البّر ونايا**). وعلى الناحر أن يقرأ سورة التحلل من خطيئة النحر (**التهليل**) وهو جالس بعد انتهائه من عملية النحر، وتتم عملية تطهير المنحور في مكان النحر بالنار أو الملح.

■ الأضاحي:

ومن الشعائر الدينية للمندائيين: **الأضاحي**، ابتغاء رضا الرب وهي:

الصدقة (زدقا): **العطاء** مما يملكه الفرد.

والصوم (صوما) أي الامتناع عما يرغب به، اظهاراً للحد من الشهوات الدنيوية، متمثلاً في الامتناع عن أكل اللحوم، وهو طقس شبيه بصيام النصارى.

وأيام الصيام هي يومان **قبل العيد الكبير**: (**٢٨-٢٩ كانون الثاني**).

وأربعة عشر يوماً **بعد العيد الكبير**: (**١-١٤ شباط**).

وأربعة أيام **قبل العيد الصغير**: (**١-١٤ آيار**).

وخمسة أيام **قبل عيد الخليقة** (**البنجة**): (**٢٦-٣٠ أيلول**).

ويوم واحد **بعد عيد الهبات**: (**٢ كانون الأول**).

ويمتد مفهوم الأضاحي، إلى (ذبيحة إبراهيم) (**تك ٢٢:١-١٤**)، **ففي موعظة اوريجانوس** الثامنة في سفر التكوين، بحسب ترجمة روفينوس.

«أنتم الذين تقرّبتم من الله تعالى وتعدون مؤمنين،
اسمعوا وتأملوا تأملاً دقيقاً بالقراءة التي تليت على مسامعكم،
في تجربة ثقة المؤمنين» .

بعد هذه الكلمات، حدث أن اللّه جرّب إبراهيم قائلاً: إبراهيم إبراهيم
أجاب وقال: ها أنا ذا.. (كلام الكتاب)
قال له: خذ إبنك العزيز، الذي تحبه، وقدمه ذبيحة لي..
ثم اذهب إلى الجبال وقدمه ذبيحة (محرقة) على الجبل الذي سأريك اياه».
وافصح اللّه عن الاسم الذي منحه إياه قائلاً: «جعلتك أباً لأمم كثيرة» (١٧:٥).
تم هذا الوعد، بعد ما ولد ابنه إسماعيل، وقطع اللّه عهداً بأن يتحقق هذا الوعد في الابن المولود من ساره، فحثه اللّه على الحب لإبنه، ليس من أجل النسل فقط، ولكن من أجل الانتظار الذي اشعله في الوعد.

(تجربة إبراهيم): لكن الرب يأمره– الآن– بأن يذبح على الجبل ابنه هذا الوحيد، الذي ستتحقق الوعود العجيبة المتكررة من خلاله، والذي من أجله سمي باسم «إبراهيم».

يقول (أوريجانوس) لا أعرف بم كان يفكر وما حدث له حين سمع صوت اللّه يجربه ويأمره بذبح ابنه الوحيد، (بقطع عنقه).

وأخبرنا (مار بولص الرسول) أنه بالهام الروح القدس، كان يعرف شعور إبراهيم وأفكاره، (إذ قال بالإيمان ما من شك إبراهيم حينما قرب (إسحق) وحيده، ذاك الذي وضعت له المواعد، لأنه اعتقد أن اللّه قادر حتى على اقامة الأموات» (عبر ١١ :١٧–١٩).

وكشف (بولص) بأن «الايمان بالقيامة – الانتعاش– بدأ منذ ذلك الوقت، حيث كان يأمل بأن قيامة إسحق ستتم، فكيف يرفض «أبناء إبراهيم» الايمان بما حدث في المسيح، في حين أن (إبراهيم) آمن بما سيحدث في إسحق؟ أو بطريقة أوضح عرف إبراهيم أنه صورة للحقيقة المستقبلية، كما عرف أن المسيح سيولد من نسله، هو الذي سيذبح بالحقيقة من أجل العالم كله وسيقوم بين الأموات».[٥]

واللّه (جرب) إبراهيم الخليل، حين أمره بتقديم الضحية،، ابنه (العزيز الذي يحبه حباً قوياً)، وأبدله بالكبش وجعل النار (برداً وسلاماً).

لكن هذه الأضحية، والنار (المحرقة)، وصعود الجبل من قبل ذلك الشيخ وهو يقود ابنه العزيز الصبي، إلا ليزيده امتحاناً، وليعطه فرصة من التفكير طيلة صعوده الجبل، وأيضاً ليمنحه الرضا بأن يترك الأرضيات ويتجه إلى العلا، السماوات، متسلحاً بالإيمان، حتى لو كان الأضحية ابنه الغالي.

حين قام إبراهيم مبكراً وشد على حماره وشقق حطباً للمحرقة وأخذ ابنه مع اثنين من خدمه، ووصل المكان في اليوم الثالث.

هنا تكمن حكمة المجرب وقصده، وهنا ينبغي أن يمتحن ايمان أبي الأنبياء. (في الجبال إزاء المحرقة (النار) وعبر التضحية بالابن. لقد حدث ذلك (في الطريق والمدة والمعنى والمسيرة) كي ينظر الأب إلى ابنه (نظرة الحب) يأكل معه، ويرقد في الليل، الولد على صدر أبيه، ويرتاح في حضنه.

اية تجربة اختبار هذه، وأي امتحان للايمان؟

إنها تبدو اثقل فأثقل، يوماً تلو آخر.

أما في «**اليوم الثالث**»، فهو دائماً متعلق باسرار الايمان: بعدما خرج «**الشعب**» من مصر، قدم ذبيحة للّه في اليوم الثالث، أيضاً، واغتسل في **اليوم الثالث**، وفي اليوم الثالث قام الرب، وثمة أسرار أخرى، في المعتقدات القديمة.. **بهذا اليوم الثالث**.

يفسر اللاهوتيون (في الكتاب): أخذ إبراهيم حطب المحرقة من قبل اسحق ابنه، وأخذ بيده النار والسكين «وذهبا كلاهما معاً»، إن حمل حطب، المحرقة من قبل إسحق، يرمز إلى المسيح الذي حمل صليبه بنفسه، مع أن حمل الحطب، أيضاً، من واجبات الكاهن، لكنه هو (**الذبيحة والكاهن**) معاً، يشير هنا ، إلى ما ورد في الكتاب (**وذهبا معاً**)، ذلك أن إسحق لا يمشي وراء إبراهيم بل إلى جانبه، الذي حمل السكين للذبح، ويشير ذلك إلى إسحق– بحسب التوراة– الذي يتقدم كأنه كاهن معه، وليس إلى إسماعيل وما حدث بعد ذلك؟ يقول الكتاب: «**ثم قال إسحق لأبيه إبراهيم: ابتي**» – في هذه اللحظة يرفع صوت التجربة بصوت الابن؛ يجيب بكلمة يعرب فيها عن حبه قائلاً: (**لبيك يا بني**)، قال: (**هذه النار والحطب، فأين الحمل للمحرقة؟**» فقال إبراهيم: «**اللّه يرى لنفسه الحمل للمحرقة يا بني**» رد بكلمات حول «**الحاضر**» (سؤال ابنه)، بكلمات حول (**المستقبل**): إن الرب نفسه يدبر الكبش (الأضحية) بشخص المسيح، لاحقاً، لأن «**الحكمة بنت بيتاً لها**» (مثل ٩:١)، و«**وضع نفسه وأطاع حتى الموت**» (فل ٢:٨) في كل ما تقرأون عن المسيح، تجدون أنه فعل ذلك (**بحريته**) وليس مجبراً.

(**الذبيحة**): (**مضيا كلاهما معاً ووصلا إلى المكان الذي أراه اللّه اياه**»، ولما

وصلا إلى المكان بنى إبراهيم مذبحاً ورتب الحطب عليه وربط الصبي وقيد يده فاخذ السكين ليذبح ابنه. (إن اللّه محب من اعطى متهللاً) (٢ قور ٧:٩).

يقول الكتاب: «**ومد إبراهيم يده ليأخذ السكين ويذبح ابنه، فناداه ملاك الرب من السماء قائلاً: إبراهيم إبراهيم، قال: «لبيك» قال لا تمد يدك إلى الصبي ولا تفعل به شيئاً، فإني أعرف أنك متق اللّه**».

إن الملاك هو ظهور علامة الرب، كما كان بين البشر ظاهراً مثل بشر، كما بين الملائكة ظاهراً كأنه ملاك، وعلى مثاله «**يفرح الملائكة في السماء**» (لو ١٥:١).

ويمجدون بتقدم الإنسان الروحي، لأنهم يهتمون بأنفسنا، عهدنا إليهم اطفالاً وكأنهم اوصياء ووكلاء إلى الأجل الذي وقته الرب (غل ٤:١-٢) ويقولون في شأن تقدمنا الروحي لكل واحد منا: «**لأني عرفت إنك تخاف اللّه**»

وعلى سبيل المثال أشير إلى النية الثابتة لقبول الاستشهاد.

إن نيات الإنسان- حتى لو كان نبياً- لا يعرفها أحد إلا اللّه تعالى إذا وصلت إلى نضال الاستشهاد، وشهدت شهادة حسنة (اطم ٦:١٢).

التنافس بالعطاء، والتضحية، بكرم النفس، حيث قدم إبراهيم لله ابناً قابلاً للموت، ثم يقول الكتاب: «**والتفت ورفع إبراهيم عينيه ونظر، فإذا بكبش عالق بقرنيه في دغل**» **وهنا يرمز الاثنان إلى الضحية: الابن الذي لم يذبح، والكبش الذي يذبح!**

ثم يقول الكتاب: «**وأخذ الكبش وأصعده محرقة بدل ابنه. وسمى إبراهيم ذلك المكان: الرب يرى**».

وهكذا يفتح هذا الطريق إلى الفهم الموضوعي الروحي لمعنى الأضاحي، وأن يترك الإنسان شيئاً، من أجل اللّه، أن يعطي، ويهب، ويتصدق، هذا المعنى الغائر، والعميق، منذ الديانات السماوية الأولى، وجد، مثل صدى، في تعالقه مع نص (**قصة الخلق البابلية**) حيث، من (**جسد**) تيامات، يصنع مردوخ الخلق والخليقة، الماء هو معنى التضحية، ومعنى الخلق، مجسداً بما يوجد، حيث يقول له الرب: **كن فيكون، ينطقه فيكون في الملفوظ، ويكون في معنى الاسم أيضاً، ويكون في معنى الشهادة، والتضحية.**

ولأن العراق أرض أبينا إبراهيم المقدسة، ولأن بلاد الرافدين بمثابة «جنة عدن»، لأنها (**كانت**) بلاد رخاء ورفاه ورقي، لذا استوحاها كاتب سفر التكوين

وأودعها «كلام اللّه»، وأدرجها في التوراة (تلك ٢:٥-١٨)، ولذلك صدى في الأساطير السومرية، كما في أسطورة (أنكي وننخرساك)، أو في (ملحمة (اينمركار وأرتا)، وقصيدة (في مدح دلمون)، وأخرى في مدح سومر.(٦)

وحق للباحث الآثاري الكبير صموئيل نوح كريمر أن يقول: «إن أسفار التوراة في صيغتها ومضمونها كليهما ليست قليلة الشبه بالآداب التي خلقتها واوجدتها الحضارات القديمة في الشرق الأدنى» ويكمل:

لقد ترك الأدب الذي أوجده السومريون أثره العميق في العبرانيين».(٧)

ويعترف كريمر بأن هذا الأثر السومري إلى العبرانيين لم يكن مباشراً، نظراً لفارق الزمن، بل عن طريق الكنعانيين والآشوريين والبابليين والحيثيين والحوريين والآراميين.

ويخلص الدكتور فاضل عبد الواحد إلى أن نصوص «جنة عدن والفردوس المفقود»، الواردة في التوراة، هي ذات جذور سومرية بابلية.(٨)

إن عبادة اللّه، وقد ورد اسمه بلفظ «إيل» في كل سفر التكوين، كانت معروفة لدى إبراهيم وبعض أقاربه في أور وحاران وأورشليم على عهد كاهنها الأكبر ومليكها «ملكي صادق»، وأيضاً، في مكة وما جاورها حيث (هود) وقوم (صالح) وغيرهم، إذ كانوا موحدين قبل موسى بألف إلى ألفي عام، حتى أن النبي موسى اقترن بابنة الكاهن المدياني الموحد (يرون) الذي خلف ملكي صادق.(٩)

ويذكر الفصل ١٤ من سفر التكوين (الآيات ١٨:٢٠): أنه عندما جاء إبراهيم إلى (شليم) أي (أورشليم)- القدس- وجد ملكها (ملكي صادق) يمارس كهانة راقية «لله العلي»، بالعبرانية (ايل عليون)، ويمارس، أيضاً، تقدمة (ذبائحية) رمزية هي (الخبز والخمر)، فبارك إبراهيم باسم (إيل) قائلاً: «على إبرام بركة اللّه العلي خالق السماوات والأرض»، «فأعطى إبراهيم ملكي صادق العُشر من كل شيء».

طقوس العبادة، والنحر- التقدمة الذبائحية- والشعائر الدينية، قديمة، قدم وادي الرافدين، اتخذت أشكالها، ورافقتها تراتيل وأناشيد وسرديات، ومثلت، أو عرضت في احتفالات، أو في المعابد والهياكل، في المسرات والآلام، معاً، إزاء اللّه، كدعاء أو كطلب غفران.

فكانت، قبل إبراهيم الخليل، وقبل اليهودية، أيضاً، من هنا، يعتبر الطقس المندائي ذا جذر عتيق..

■ طعام الغفران (اللوفاني):

طقس ديني تتم تلاوته على الأحياء من قبل الكهان في طقوس التعميد، وعلى أرواح الموتى من قبل الكهان أو رجل الدين الطاهر النظيف، ويجري هذا الطقس في جميع أيام السنة بخاصة في أيام الآحاد والمناسبات الدينية، وتتم التلاوة في وقت النهار، عدا أيام (البرونايا = وهو عيد ديني مدته خمسة أيام يجري فيه التعميد وطقوس الغفران)، فيجوز اجراؤه ليلاً ونهاراً.

وقبل أن يبدأ الشخص قراءته يجب أن يضع على الأرض قطعة نظيفة من القماش الأبيض أو حصيراً من القصب النظيف، ويضع فوق ذلك «**السماط**» الغذاء كله المعد لهذا الطقس بعد غسله في الماء الجاري النظيف.

وأهم الأغذية هي: أرغفة الخبز، السمك المشوي أو اللحم، جوز الهند، اللوز، الرمان، السفرجل، البصل، العنب، الملح، التمر، الماء، وكل ما هو متوفر من غذاء نظيف.

يجلس المشاركون في هذه الوجبة الطقسية كل زوجين متقابلين، ويمسك كل زوج رغيفاً من الخبز بيده اليمنى، ويعيدان الصيغة التي تقال دائماً على الطعام (حتى الطعام الاعتيادي):

«اسم الحي

واسم عارف الحياة منطوق عليك

ايها الطعام

لتقبل طعام ياور زيوا وسيمات هي»

ثم يقسم كل زوج متقابل، الرغيف إلى نصفين ويأكلان شيئاً قليلاً، ثم يشرب الجميع من اناء واحد مملوء بالماء، ثم يتلا «**اللوفاني**» للمتوفى في الأيام العادية– انفرادي: (أي لشخص واحد متوفي)، وإذا كان العدد أكثر من واحد فيجب أن تعاد قراءة (اللوفاني) من جديد، بعكس (اللوفاني) الجماعي في أيام (البرونايا).

وقد نشرت الليدي دراوور نص اللوفاني بترجمة نعيم بدوي وغضبان رومي: (١٠)

«السلام عليكم

سلام الحي عليك «الطاعمون»

باسم الحي واسم مندادهي
منطوقان عليك ايتها المائدة
تقبلي طعامي وطعام الحي ومنداهي
لقد أقيمت باسم الرب للقائمين بها، ولتملأ الرحمة قلوبهم
باسمك نطلب فنجد، ونؤمر فنسمع،
لقد طلبنا فوجدنا، فاصغينا في حضرة مادي ومنداهي
سيد الشفاء إغفر له خطاياه وحوباته واغلاطه ومساوءه وذنوبه،
واغفر لأولئك الذين هيأوا لهم هذا الخبز وهذه النعمة،
واغفر لهم خطاياهم وحوباتهم وذنوبهم يا سيدي ماري ومنداهي العظيم القديم،
واغفر للذين اعطوا الصدقات وعملوا الصالحات، ولهذه الروح،
واغفر لأبي لله أمي و«معلمي» وزوجتي وابنائي ولصاحب هذا الخبز وهذه النعمة،
واغفر خطايا آبائي وأساتذتي ومؤدبي الذين اسميتهم، وارفعهم من الشمال إلى اليمين
لتغفر خطاياهم، ولتقوموا للحي، بمعادكم، مسبحين مزكين له ولكل العباد الغفران،
والرحمة للصالحين منهم».

■ شعائر الموت:

«باسم الحي ربي
رحمة وراحة إلهية
وغفران خطايا- لفلان-»

(رواها ادهي) أو (الفاتحة) وتهدى لهذه النفس المقصودة (فلان هو الاسم الديني للمتوفى) بهذا الانتقال- ومغفرة الخطايا تمنح له.

ولأن الجسد هو وعاء النفس عند المندائيين، كما يعتقدون، والنفس عائدة إليه متحدة به، بعد الموت، يحرص المندائيون على طهر الجسد والنفس

ونظافتهما قبل الموت حتى لو كان الإنسان- المحتضر- في أشد حالات مرضه.. لذا يحضر رجال الدين بغية الاستماع إلى كلماته الأخيرة، والصلاة عليه. وعادة، عندما يحتضر الفرد المندائي ويقترب أجله يطهر بالماء الدافيء شتاءً، أو بالاعتيادي في أيام السنة الأخرى، وتبدل ملابسه بالكفن الأبيض، يتم ذلك تحت علم المحتضر وبطلب منه لايمانه به، و«الكفن» (أو: لباس الاحتضار) أشبه (بالرسته) (الملابس الدينية)، لأن لباس من واتته منيته يختلف عن ذلك كونه غير مستعمل سابقاً للتعميد وله أصول فصاله الخاصة به.

وتعدّ «الأكليلة»، وهي من نبات الآس، من قبل مؤمن «رجل دين» يرافقها تلاوة وتراتيل خاصة بعملها، حيث توضع العمامة (أو الفوطة عند النساء)، وعندما يلفظ المحتضر أنفاسه الأخيرة، على أن تكون أيام مفارقه روحه الجسد غير «مبطلة» (أي صالحة دينياً)، وعند التأكد من أن المحتضر لبى نداء ربه، تطبق اجفانه على بعضها إن كانت مفتوحة، ويغطى بغطاء نظيف من قمة رأسه إلى أخمص قدميه، وهو مسجى على فراش نظيف يفصل بين جثمانه وفراشه شرشف قطني أو غيره، أبيض اللون، على أن يكون الجسد مواجهاً الشمال (القبلة). ولا يوارى جثمانه، مثواه الأخير، قبل مرور ست ساعات على الأقل، لربما تعود إليه الحياة (كما حصل لبعضهم كانوا في حالة غيبوبة)، فإن عادت إليه الحياة لا يستعمل كفنه له أو لغيره مرة أخرى، وإنما تقصر أحد قطعِه (النصفية) وتستعمل (كرسته) المارة الذكر لغرض التعميد فقط.

كما تعد «الشريجة»، وهي أعواد من القصب والبردي وسعف النخيل متماسكة مع بعضها بواسطة حبال من أوراق سعف النخيل، وتغسل طقسياً، لوضع الجثمان عليها كنعش، لتساعد حامليها على حمل الجنازة، وهي مستعملة منذ أقدم العصور وحتى الآن.

وكان الشريف الرضي قد قال في رثاء أبي إسحاق الصابئي بعنوان «جبل هوى»

«أرأيت مَنْ حملوا على الأعواد أرأيت كيف خبا ضياء النادي».

ويقوم (الحلالية) وهم رجال من طبقة خاصة يصلح أي منهم أن يكرس رجل دين (مؤمن)، أو رجال الدين، بالمراسيم اللآتية:

تهيأ (المتدلئة): وهي من القصب ذات بناء خاص صغير لا يتجاوز طولها

الياردة ذات ارتفاع واطئ لا يتجاوز الثلاثين سنتمتراً، وهي ذات ابعاد خاصة يعرفونها هم بأنفسهم، ولها عمل خاص به، وتلاوة خاصة أثناء العمل، وتثبت في الأرض قوياً.. ويمرر من فوقها النعش وهو محمول على اكتاف أربعة رجال من (الحلالية) يساعدهم الباقون، أيا كانوا.

وقبل أن يشق رمس المتوفى، يتلو المؤمن بعض التراتيل الدينية، ويغرز المعول (أو المسحاة) في الأرض ثلاث مرات أثناء قراءة التراتيل، ويقلب ترابها، وبعد إكمال حفر هذا القبر، يشق اللحد ويحذر أهل المتوفى من العويل والنواح وشق الجيوب وحلق الشعور ولبس السواد، فهي محرمة دينياً لمخالفتها لإرادة اللّه:

«لا تبكوا موتاكم
ولا تنهبوا أموالهم وابلهم
واطلبوا لهم الرحمة
واقرأوا من أجلهم الصلوات والأدعية والكتب والأسفار»(١١)

وعندما بعدت مواقع المجناة (المقابر) وصعب حمل الجنازة على الأكتاف كل تلك المسافات، استعمل المشيعون وسائط النقل كالدواب والسيارات، على أن يحتفظوا بنفس المراسيم دون تغيير.

تكون القبور باتجاه الشمال، عادة، نحو قبلة المندائيين، وبارتفاع اعتيادي، على أن يكون وجهه أثناء الرهس «اللحد» قبالة الشمال، أيضاً.

أما دفن رجال الدين، فله طقوس خاصة في نوع الكفن ومراسيم شق الرهوس، ويدفن معه صولجانه (المركنة) وما يستعمله في الطقوس الدينية من ملحقات أخرى. وعند ايداع الجثة يكشف الوجه داخل اللحد، على أن يكون ملامساً الأرض، وتقرأ سورة الفاتحة، قبل رفع الجنازة.

أما بعد الموت، فيقيم المندائيون الصلوات والفاتحة على روح الميت، ويقدمون طعام الغفران المشترك والثواب. لمدة خمسة وأربعين يوماً، أهمها: الأول. والثلاثة. والسبعة. ثم الثلاثون، والخامس والأربعون. وتقدم الصدقات والصلوات في أيام الأعياد والمناسبات طلباً للرحمة وراحة الميت.

■ **الصلاة:**

«اسم الحي العليم المذكور عليك
أيها الطيبات
طيبات اللّه العليم، تقدم باسمه تعالى
طابت الطيبات للطيبين
وثبت مكان الرحمة
باسمك نطلب فنجد
ونسأل فيجاب سؤالنا»

«الرسته» تتكون من القميص ويسمى «**كوسيا**» أو «**سدرة**» ويجب أن يكون ذا مقادير معينة، أي بحوالي ستة أذرع، وتتفق هي والكفن بباقي القطع.

و«**الكفن**» يتألف من «القميص، كوسيا»: ثمانية أذرع من قماش قطني أبيض يصل إلى أخمص القدمين. و«الدشة» للرستة والكفن وهي رقعة من نفس القماش تخاط من فتحة الصدر في أعلى الجهة اليمنى.

و«التكة» للرسته والكفن: الخيط الذي يشد السروال إلى الجسم، ويترك، كما في التعميد، أحد طرفيه دون خياط، وعند الشد يجب أن يتدلى الطرف المخاط إلى الجانب الأيمن.

وتوجد «**البرزنكا**» العمامة، وهي قطعة قماش من الموزلين الأبيض، (قطني أبيض خفيف كالشاش) بعرض ذراع تلف على الأرض ثلاث لفات وتبقى إحدى النهايتين مدلاة فوق الكتف الأيسر وتعرف «**بالرزغة**» وتسمى بندامه، أيضاً، للفها حول الحنك لتغطية الفم والمنخرين عند رجال الدين أو حاملي الجنازة الأربعة المذكورين متجهة إلى قمة الرأس وتدس في الجهة اليمنى من العمامة، وتكون لدى النساء كوشاح فوق الرأس وتسمى «شيلة».

إن كثيراً من هذه التفاصيل مشروح سلفاً، أما تغطية الفم والمنخرين فقد ادخلت نصاً دينياً لأنها جاءت من الناحية الصحية تلافياً للعدوى من بعض الوفيات في حالات المرض (الأمراض السارية بخاصة كالأوبئة والطاعون)، ومن جهة أخرى، تحاشياً لرائحة الرمة النتنة عند تفسخ الجسم بعد مفارقته الروح في حالات تأخر الدفن، ويوضع في (البندامة) شيئاً من الطيب كورد

الجوري والياس (الآس) والقرنفل، وروائح عطرية نباتية، وادخلت في نص ديني للالتزام بها.

ومعروف أنه لا يجوز تكفين الشخص بعد وفاته، بل يستعاض عن الكفن بالرستة، ومن ثم تقام له (مسخثه) (طقس ديني خاص في البنجة) وبطريقة خاصة لخلاص الروح مما هي عليه بعد الوفاة، وبدون تطهير بالماء النظيف والتكفين قبل الوفاة، كما تنص التعاليم المندائية.

وهكذا تقام، بعدئذ، «الولائم الخاصة بالفواتح الكبيرة»، وكما أشرنا، تعرف بـ «طعام الغفران».

■ الزواج:

«وأمرنا أن اتخذوا لأنفسكم أزواجاً تعمر بك الدنيا».

«أيها الرجل اتخذ لنفسك زوجة وليحب ويرحم أحدكما الآخر».

هكذا توصي الديانة المندائية، التي تنهى عن العزوبية ولا تستثنى من الزواج رجال الدين، إذ يعتقد الصابئة المندائيون بأن من يعيش بلا زوجة طيلة حياته (لا جنة له في آخرته) فالزوجة هي الجزء المتمم للرجل، وهي التي تنجب له الأطفال، إذ يعتبر الإنجاب جزءاً متمماً للدين «والأولاد هم الذين يحملون الجنازة، ويقومون بإجراء الطقوس الدينية الواجبة للآباء بعد وفاتهم»، والتي «تساعد» الميت على (بلوغ الجنة) في آخرته.

لذا (فالرهبنة) محرمة في الدين الصابئي، لأنها ضد الحياة التي هي عندهم (محور الدين وجوهر العقيدة).

إن الروحاني (ترميذه) الذي لا يتزوج لا يحق له أن يرقى دينياً إلى مرتبة أعلى من مرتبته، أي لا يرتفع إلى منزلة أو رتبة أو درجة (كنز فره) مهما بلغ (كماله) الديني أو عمله اللاهوتي، لأنه يعتبر «ناقصاً» ولا (يكتمل) إلاّ بذريته عن زوجة، ويعامل، ذات المعاملة، فيما إذا تزوج ولم ينجب اطفالاً. أما بالنسبة للعامة من المندائيين فلا يصح للأعزب ولا للمتزوج العقيم أن (يترأس) الواحد منهما حمل الجنازة، أو أن (يتوكل) أحدهما فيكون (أباً) للزوجة أو (وكيلاً عنها) في عقد الزواج، ويسمى (ابهاثا = أي الأب)، ويجوز

للمندائي أن يتزوج أكثر من زوجة شريطة تحقيق عدم الإنجاب (كالعقم- مثلاً)، أو المرض المعدي كما يجب أن (**يعدل**) الزوج بين زوجاته.

مع أن المندائيين يفضلون الزوجة الواحدة، كما يفضل دينهم ذلك، أما إذا تعددت الزوجات فأولهن عندهم، في كل مناسبة دينية، هي ذات الحظوة الأولى بين الزوجات.

ويجوز للصابئي أن يتزوج من صابئية (عدا الأخت وذريتها وابنة الأخ وذريتها وزوجة أخيه وبنات ضرة أخيه والعمة والخالة، أو الجمع بين أختين على قيد الحياة، وإلى ما هناك من شروط تم ذكرها في المحرمات)، كما يمنع الدين الصابئي الزواج من غير الصابئين، إذ يعتبر المرأة، أو الرجل، خارجين عن الدين.

وقد ورد في (ترسر الف شياله: **الاثني عشر ألف سؤال**): يجوز الزواج من المسيحية، إنما بعد إجراء طقوس خاصة وصعبة عليها.

وكما أشرنا في الحقوق والمحللات والمحرمات، فإن الحقوق الممنوحة للزوج في طلب الطلاق تنحصر في (ثبوت الزنا، إذا سرقت بيت زوجها، إذا كانت عاقراً، إذا أطعمت زوجها من طعام عملته وهي على نجاسة، إذا كانت مصابة بمرض معدٍ لا شفاء منه- كالجذام مثلاً- إذا كانت سيئة السلوك والخلق).

كما أجاز للمرأة حق طلب الطلاق، بالشروط ذاتها، إلى جانب ما إذا كان (**عاجزاً**) عن اعاشتها وأطفالها، أو (**عاجزاً**) جنسياً، أو إذا ترك دينه وتزوج من غير صابئية، أو إذا طلب من زوجته (**ممارسة الفحش**).

والطلاق في الدين الصابئي (فرقة بين الزوجين) إذ لا يجوز لأحدهما أن يعود للآخر دون عقد مجدد، والزوجة باقية في (عصمة) الرجل إلى أن تتزوج من غيره.

ولابد قبل طقوس الزواج ومراسيمه، من أن تتم الخطبة (طلب يد الفتاة من أهلها)، فالزواج لابد أن تسبقه، عند المندائيين، معرفة الشخص بشريكة حياته، تالياً، وبالمواصفات التي يرغب، فيتقدم لخطبتها من أهلها بشكل رسمي وعلني، أما فيما مضى، فيتم اختيار الزوجة على وفق رغبة أهل الشاب، وتكون مقتصرة على الأهل والأصدقاء لكلتا العائلتين وبشكل بسيط، أو تأخذ

مظهراً احتفالياً بحسب المقدرة المالية لدى العائلتين، كما يجري الآن، إذ يولم (أهل العروس) وليمة للأصدقاء والأهل.

وحين تتم الموافقة يلتقي الخطيب بخطيبته مرات غير قليلة في أوقات يتفق عليها الطرفان للنزهة أو لتعميق علاقتهما والتعرف على بعضهما أكثر وأعمق،

والعرس المندائي زاخر بالتفاصيل، وتمتد شعائره ساعات، إذ يشيد بيت القصب (الأندرونة)، أولاً، من القصب وتفرش أرضيته بالحصران أو الأفرشة النظيفة، وللعروس يهيأ (الخباء) أو (الخدر) أو (الكلة). وتعد (مائدة العرس) عامرة بتسعة (طرابين) عليها: الخبز، السمك المشوي، الفاكهة المجففة، الزبيب، الجوز، اللوز، الملح، والتمر، وهو ما يسمى بالطعام المقدس.

ثم يأتي صبيان ليحملا سلتين مليئتين بملابس العروسين، توضع السلة الأولى تحت (السقيفة) والثانية داخل الخباء (الخاص بالفتاة)، وهو يقول:

«اسم الحي، اسم الملاك الرب الأول»

وتتضمن إكسسوارات العرس:

حلقتان من الذهب المطعمة بالحجر: أحدهما بياقوت أحمر، والثاني بياقوت أخضر، أو بشذر.

نبات (الشنان)، مشط، قالب صابون، وثلاث قطع عملة فضية.

إبريق معدني مغطى بقماش أبيض.

منقوع التمر (همرا) على أن لا يكون قد بات، والمنقوع هذا يتكون من التمر والعنب، أيضاً، رمزاً للإخصاب.

تحضر كمية من الورود والسكر واللوز تنثر على العروسين رمزاً للخير والحلاوة والبركة.

ستة وعشرون رغيف حنطة.

(سكين دوله) الشعار، يبقى مع الفتى سبعة أيام العرس لدفع الشر من الشيطان.

اكليل من الآس، يمثل السر النقي للأم، ويمثل الآس عنصر الخصب للمتسلم و(آسيا) بالمندائية تعني الشافي.

وأفضل أيام (العرس) هو الاحد، إذ يحضر (الأب) الديني، وهو كاهن بدرجة

(**كنز فره**) مع اثنين آخرين بدرجة (**ترميذه**) وبيد كل منهما الصولجان (**المركنة**)، وهي من أغصان الزيتون رمز السلام والمحبة، وبالخنصر الأيمن خاتم من ذهب (شيوم ياور) ومكتوب عليه بالمندائي «**شيوم ياور**» يرافقهم (**الأشكندة: المساعد**) وهو من أبنائهم دون البلوغ بملابسه الدينية، للقيام ببعض الطقوس والواجبات الدينية، ويصاحب كل متعمد اكليل من الآس الأخضر معمول بطريقة دينية وهي متممة للطقوس، إذ لا يتم بدونها أي طقس من العماد يصاحب كل متعمد، واكليلان ينصب كل مؤمن أحدهما لرأسه والثاني لعصاه، فيوضع اكليل مع التاج تحت العمامة بعد رفعها قليلاً دون خلعها من الرأس على أن يتدلى الطرف المورق حول الصدغ الأيمن لهذا المؤمن، أما عامة المتعمدين فيدس تحت العمامة من قبل المؤمن وتلفظ معه ترتيلة أثناء وضع الاكليل.

وهكذا يحضر (الأب)- وهو من يمثل الزوجة - (وكيلها الديني) مع الشهود، والكهنة، وتهيأ الاكاليل من الآس والريحان، كما ألمحنا.

تبدأ الشعائر يوم الأحد، بالضرورة، بالتعميد (الذي فصلناه في مقدمة الطقوس)، ثم يتجه الجميع سائرين مع الفتاة حتى تدخل خدرها، ويستمر الكهنة والشاب العريس وأب الفتاة إلى السقيفة (أي وكيلها، وهو شخص ناصورائي من متوسطي العمر فأكثر، يعوض عن المرأة في المهر) ترتدي الفتاة، عباءة حرير بيضاء، عادةً، وبرقعاً أخضر فوق ملابسها، ثم يعطى هذا البرقع للشاب كي يتمنطقه طيلة خطوات العقد.

يستبدل العروسان بدلات التعميد ببدلات مماثلة نظيفة.

ثم يضع الكهان اكاليلهم فوق رؤوسهم، ويذهب أحدهم إلى خدر الفتاة حاملاً خاتم الريحان يطهر (يغسل) يديها بالماء المبارك، وليسمع موافقتها بالزواج من العريس، ثم يلبسها الخاتم باصبعها الأيمن الصغير. ويطعمها الزبيب واللوز، ويسقيها الماء، ويقرأ بعض الصلوات الافتتاحية.

تكون الفتاة في خدرها، حشمة وحياء، ويعوض عنها في (قراءة سورة الفاتحة) وكيلها الأب، ويكون مجلسها على الفراش المعد لها للزواج شكلياً على الأرض وبالطريقة البدائية مفروش بفرش بسيط ملائم يحجبها عن الأنظار سرادق من قماش خفيف أبيض جديد، وأمامها إبريق ماء (الإبريق من

النحاس المطلي) وصينية مملوءة بالآس والورد والخضر، مضاءة بالشموع الموقدة، ومرآة، ومصباح موقد، والسلة التي تحوي ملابسها مغطاة بغطاء شفاف أخضر اللون وهو الخمار الذي كانت متخمرة به عند زفافها إلى محل عقد المهر.

الكاهن الترميذه وهو يتجه إلى السقيفة، الكاهن الأكبر يقول:

«السلام عليكم»

الكاهن الترميذة يقول:

«لقد طهرنا بيت العروس العذراء
ونصبنا الكله
والبسناها رتيمة الزواج
واطعمناها وسقيناها
وقرأنا عليها صلوات العقد الأولية

الكاهن الأكبر يقول: «غفر اللّه خطاياكم».

ويتلو:

«باسم الحي ربي
آتنا بالطيبات
أيها الحق المنور لأهلنا وذوينا
زكي انت، ومقوم مجيئك ومزكيهم»

يلتفت الكاهن الكبير إلى أحد الصبيان،

الصبي يحمل الجرة الأولى ويكسرها على باب السقيفة

يدخل الجميع السقيفة.

مساعد الكاهن يصب الماء على أيدي الكهنة، والشاب العروس، و(أب/وكيل) الفتاة العروس، ثم يتجه الجميع إلى المائدة (الطعام المقدس).

رئيس الكهنة يقف في مواجهة (أب/ وكيل) الفتاة، فيسأله اعلان موافقته على تزوج (ابنته) للشاب الماثل أمامهم (فلان بن فلان).

(الأب) يعلن الموافقة.

الشاب يأخذ بيد (أب) الفتاة، ويعلن قسمه مردداً، بعد الكاهن، عهد الاخلاص ويتداخل صوت الكاهن وصوت الشاب بعده:

«هذا عهد حق
اقطعه على نفسي
بأني سآخذ فلانه بنت فلانه زوجاً شرعياً لي
يشهد اللّه الحي العليم، ورسله، وملائكته
والكهنة والمندائيون، جميعهم شهودي
بأني لن أتحلل من عهدي، ولن أتحول عن قولي
ولن اخونها.. ولسوف أرعاها وأسالمها بالحق
وفقاً لإرادة اللّه تعالى»

رئيس الكهنة يعلن: «**الآن قمنا بواجبنا نحوك بأمانة كما أمرنا ربنا**».

الكاهن يوجه كلامه إلى الشاب معلناً عن صداق الفتاة العروس، والشاب يعلن موافقته.. يتناول الكاهن رغيفاً، يضعه بينه وبين الشاب، يذكر اسم اللّه، ويقسم الرغيف إلى قسمين يضع نصف الرغيف على المائدة، ثم يأخذ النصف الآخر من يد الشاب ويقسمه إلى قسمين، أيضاً، فيضع على الأول شيئاً من العسل والجوز واللوز ويقدمه إلى الشاب ليأكله، ويجعل القسم الآخر من الرغيف سبع قطع، يضع على واحدة منها جوزاً ولوزاً، وعلى الثانية، عنباً وزبيباً ويعطيها إلى (الأب) يأخذ (أب الفتاة) الخبز والعنب والزبيب إلى الفتاة، وبعد أن (يطهر) يديها بالماء، يطعمها الطعام وهو يردد: «**كلي.. على ألا تأكلي إلاّ منه**».

الشاب يأكل حصته من الرغيف، أيضاً، المندائيون، يأكلون قطع الخبز الأخرى.

ثم يضع الشاب ثلاث قطع فضية على ثلاثة أرغفة، لتعطى إلى (أم) الفتاة.

يعودون عن موائد الطعام، ثم يغسلون أيديهم، ويقوم الكاهن بشبك أغصان الريحان مع خيوط القطن الأبيض، آنذاك يفك الشاب يمناه من يد (أب) الفتاة، يتصافحان، يقبل كل منهما يده ثلاث مرات يعمل الكهنة اكليلين يزينونهما بالزهور ويمسحونهما بماء الزعفران، وهم يرتلون:

«يا منبت النبت إزرع
ويا جادل الأكاليل اجدلها
متقناً وزكياً

للعروس: (فلان..)

واسم بِه للمجد».

يسقى الفتى شيئاً من الماء المقدس، ويردد الكاهن، ويعيد الفتى ذات الكلمات بعده:

«صغيرٌ أنا بين الأثيرين وطفل

ولكن نفسي عظمت وازدهرت

حين سقيت من ثغر الفرات

لتحرسك الملائكة الأبرار

ولتشتبك جذورك

وتصل إلى المجد

وسبحان اللّه»

ثم يذهب رئيس الكهنة، والشاب العريس، والآخرون إلى خدر الفتاة، يتلون الصلوات والأدعية، والصبي يكسر الجرة الثانية. ثم يجلس الشاب خارج الكلة (الخدر) وظهره ملاصق لظهر الفتاة، يضرب الكاهن رأسيهما الواحد بالآخر. ثم توضع الاكاليل على رأسي العروسين، رمزاً لاتحادهما في السراء والضراء. هكذا يفعل العروسان ويغدوان ملكين على عرش الزوجية، يضمهما إلى الأبد، بالمحبة.

يسقي الكاهن كلاً منهما شيئاً من الماء المبارك وهو يتلو:

«لقد منحت الماء الحي

وسقيت مندائيين متزوجين شرعاً

في هذه الدنيا»

الآن، أصبح العروسان شريكين، بعد أن يقوم كل منهما بفك (الزنار)، يبدل كل منهما الملابس الدينية بالملابس المدنية، ويغادران إلى بيت الزوجية مشيعين بالأفراح، هناك، يمضيان سبعة أيام العرس، ثم يقومان بما يتطلبه العرس من ولائم للأصدقاء.

كيف شيدت (السقيفة) من القصب المقشور (تسمى: أندرونه) أو (مشكنة) أي: المسكن، حيث نصبت في ساحة، بعد أن تمت طقوس التعميد، واستبدل العروسان ملابسهما الدينية، بأخرى جافة؟

يبدأ الحاضرون بثقب الأرض وتثبيت أربعة قوائم قصب، كل قاعدة مكونة من قصبتين وقبالتها أربع من الجنوب، وأربع من الشمال، ومن الشرق والغرب كذلك، فتكون على شكل مربع، والمسافة بين قائمة وأخرى غير محدودة البعد، قد تزيد على متر، فتكون مساحة (الأندرونة: المشكنة) بين تسعة أمتار مربعة أو أقل أو أكثر بقليل. وبعد أن تثبت الركائز في مواقعها تدار عليها (أهطر) قصبية أفقية، ثلاثة من كل جهة ويكسر القصب الزائد عن الحد من الأعلى، ويثنى، ليكون بمثابة سقف العريشة، تغطيه قطعة من قماش أبيض، وتفتح له باب من الجهة الشمالية، وتشد كافة الأهطر الأفقية على القصبات المثبتة على الأرض (أرضية الأندرونه) بالحصران المعمولة من المواد القصبية، وبعد الانتهاء من عمل (الأندرونة) تهيأ ثمانية (طرابين)- وهي أواني على شكل صحون طينية صغيرة مفخورة – يابسة – وفي وسطها تاسعة كبيرة، على أن يوضع فوقها (الخبز المقدس) وقليل من مختلف الفواكه، والسمك المشوي والملح والتمر. تزين السقيفة بزهور الياسمين والقرنفل، وأغصان الريحان، كما يعبق المكان بالبخور.

فحص البكارة: ويتم عادة قبل أن تبدأ مراسم العقد الديني، إذ يجب أن يتم فحص بكارة الفتاة العروس والتأكد من سلامتها، إذ لا يجوز اطلاقاً أن يقوم الكاهن (الكنز فره) بعقد زواج فتاة ثيب، فللبكارة معنى الشرف والطهارة، فإذا ظهر بعد الفحص أن الفتاة غير باكر، آنئذٍ يمتنع الكاهن عن عقد الزواج، ويؤتى بكاهن آخر يلقب بـ (أبيقس) يقوم باجراء طقوس العقد بدلاً من (الكنز فره) على أن تبقى الطقوس على شكلها وبنفس مراسيمها.

وإذا كانت أرملة أو مطلقة، يقوم بالمراسيم كاهن برتبة صغيرة.

والكاهن لا يجبر على اجراء الطقوس للفتاة الناقصة إلا بعد أن يعمد (٣٦٢) تعميداً، في هذه الحالة يجتمع عدد من الكهان ويستمرون بتعميده سبعة أيام، كل يوم (٥٠) تعميداً.

لا يجوز، في الشرائع المندائية، عقد الزواج في حالة غياب أحد العروسين، مهما كانت الظروف، بل لا يتم عقد الزواج إلا بحضورهما ويتم اشهار موافقتهما أمام الملأ.

ولا قيمة لعقد الزواج الذي يتم في المحكمة الشرعية، إذ يعتبر، في المعتقد

المندائـي، عـقداً مدنيـاً فقط، لثبوت مقدار المهر الحاضر والغـائب، **بحسب الشريعة الإسلامية**، إذ لا يوجد في الشريعة المندائية (مهر مؤجل = غـائب) للزوجة على الزوج، لتساويهما في الحقوق الزوجية.

وتعتبر العروس بعد عقد الزواج الديني فقط، **ثيباً**، سواء اقترب منها الزوج أو لم يقترب، أو فيما لو توفي فجأة.

والاشهار، يتم على وفق الطقوس التي أشرنا إليها، إذ يذهب (الترميذه) حسب ما أمر به من قبل الكاهن الأكبر وينفذ كل ما طلب منه، أي يتفقد ملابس العروس، ويوصيها بأن تظل في مكانها وألا تخلع ملابسها الدينية أثناء فترة العقد، ويسألها– أمام الشهود– فيما إذا كانت موافقة بزواجها من فلان بن فلانه، ثم يلبسها الخاتمين (كهدية من العريس)، ويسأل عن بكارتها من الفاحصات، ثم بعد أن يصب على يدها اليمنى ماءً طاهراً من الإبريق ويقدم لها لقمة من لب اللوز والزبيب لتأكلها، يقرأ عليها السورة التي ذكرناها سابقاً، ثم يتركها ويلتحق بالكنزه، إذ ذاك يسأل (الكنز فره) و(الترميذة) **السؤال الآتي**: «**أيها الأخ الترميذة ابدي رأيك**» **فيجيبه الترميذة** بما يأتي:

«**ذهبت إلى غرفة العروس، وتفقدت طهارتها وعفتها وملابسها وطهرت يدها وألبستها المحبس ذا الفص الأحمر في اليمين وذا الفص الأخضر في اليسار، وأعطيتها هبة الأكل وشربت وقرأت عليها باسم الحي سيرة هثيمة وبصر هبي، وسيرة هثيمة الكبرى بدون زيادة ولا نقصان**». آنئذ يلتفت الكنز فره إلى الحاضرين في «الأندرونة» ويعيد عليهم نفس الجمل التي ذكرها الترميذة، ليسمعها إلى الحاضرين والزوج الممسك بنصيفة الكاهن، ويبدأ بفتح كتاب «**القلستا**» الخاص بعقد الزواج ويقرأ بعض الأدعية، وبعد الانتهاء من قراءة تلك السور، يدخل الكاهن والعريس إلى (**العريشة**) ويجلسان على أن تكون الوجوه نحو الشمال، ويجلس الوكيل (**الأب**) ووجهه نحو الجنوب مقابلاً للزوج تماماً، إذ ذاك يبدأ الكاهن (**الكنز فره**) بترتيب (**الطرابين**) **الثمانية في منتصف** (الأندرونة) على أن تتوسطها **التاسعة**، وتوزع الأرغفة والسمك والخضرة والفاكهة وقليل من الملح على الطرابين الثمانية، ويوضع على الوسطى الكبيرة (**الصا**) وهي **فطيرة** صغيرة اسطوانية الشكل عملها الكاهن بنفسه، كما يوضع قليل من الملح و(**الهمرا**) – **عصير التمر**، على الطربانة

الكبيرة والوسطى، مع بعض الفاكهة، حيث توزع الأرغفة ثلاثة على كل طربين، ويضع الرغيفين الباقيين بين التاسع والأخرى.

وبعد اتمام التوزيع يلتفت (الكنز فره) يميناً ويقول: «أيها الأخ الترميذة فلان بن فلانة ابدي رأيك» فيجيبه الترميذة: «**ابتهلنا لله لغفر خطاياك**»، ويعيد الكرة مع الترميذة الثاني، ثم يلتفت إلى الحاضرين ويسألهم نفس السؤال ويجيبونه الإجابة عينها. ثم إلى وكيل الزوجة ويخاطبه باسمه فيجيبه: «لبيك أيها الكنز فره». فيعيد عليه: «**الطاعة للحي ولله**» ويسأله: «**هذه المائدة الطعامية لمن؟**» فيجيبه: «**اقيمت هذه المائدة بمناسبة زواج فلانة ابنة فلانة زوجة شرعية بالعهد**»، ويعيد الكاهن السؤال، ثلاثاً على (الوكيل - الأب) وبصوت مسموع، فيجيبه الأب بذات الإجابة، آنذاك يلتفت الكاهن إلى الزوج الواقف أمام الأب (الوكيل) فيقول له: «**لقد نصبناك زوجاً على فلانة ابنة فلانة زواجاً شرعياً بالعهد**، بشهادة الله الحق الأزلي وبشهادة ملائكته الأبرار وبشهادة الآخرين الحاضرين من الكهان والمندائي، على أن لا تنقض عهدك، ولا ترجع عن رأيك، ولا تنكل بزوجك، فهي مسلمة إليك بموجب العهد النازل من الله سبحانه وتعالى».

ثم يلتفت إلى وكيل الزوجة ويلقنه بإعادة الألفاظ الآتية:

«**إني أسلمك إياها بالعهد**
الذي أمرنا به الله»

وهنا يسحب كل من الزوج والأب (الوكيل) يده من يد الآخر ويتصافحان... الخ.

وبعد الموافقة يلتفت (الكنز فره) إلى الزوج ويقول له:

«**إنني قد قبلت الزواج من فلانة ابنة فلانة**
بمهر وقدره ألفي قطعة فضية ودينار ذهبي واحد
ومنين من الزعفران، وعدد من المحابس
بشهادة هؤلاء الكهان والمندائي الحاضرين في المجلس»

وبعد قراءة الصيغة الآنفة، يمد (الكنز فره) يده إلى سلة الملابس الموجودة في (الأندرونة) ويأخذ منها (القطعة الخضراء) التي استعملتها الفتاة كبرقع حين زفافها ويعطيها إلى الزوج الذي يلفها حول خصره هدية من الزوجة تشير إلى الخير والصلاح والإنجاب... الخ.

حين يجلس العريس على فراش الزوجة على أن يكون ظهره لظهرها، وتقرأ عليهما بعض الأدعية، يضرب رأس أحدهما بالآخر (خفيفاً) سبع مرات تنبيهاً للزوجين بفرحة سبعة أيام الزواج.

وقبل ذلك، تمت سقاية الزوج من عصير التمر، سبع مرات أيضاً، في حين تهدى إلى أم العروس، القطع الفضية الثلاث مع قالب الصابون وقليل من الشنان حيث يقول لها (الكنز فرة):

«تستحقين يا أم الحديثة، هدية بحق تلك التربية وحفظ الطهارة».

إذ تكون رموز هذه القطع والمواد، واضحة الدلالة، تشير إلى النقاء والطهارة والثراء.

كسر الجرتين، وتكرار السبع ضربات للرأس، والفضة، وكل ما أعد في (العريشة) و(المائدة) يثري المخيلة بحياة سعيدة، فهي عناوين لرموز فياضة بالدلالة الايجابية، الخير والخصب والعطاء. وبهذا فللزواج رابطته المقدسة، ومن هنا، وفي اليوم السابع (أيضاً) يجب أن يعيد الزوجان (عمادهما) كي تزول منهما كل خطيئة (نجاسة) وتعود لهما صفتهما كفردين صابئين عاديين.

■ الأعياد المندائية:

الأعياد عند الصابئة المندائيين، تلتقي والعديد من الأديان، كالإسلام، من حيث جوها الاحتفالي، ومظهرها الفلكلوري. كإظهار الفرحة وارتداء الملابس الجديدة، واستقبال الضيوف في دواوينهم المفتوحة دوماً، وتقديم القهوة العربية والسجائر وما تيسر من الحلوى أو الثمار المجففة.

أما رجال الطائفة المتدينون فلا يحلقون ذقونهم ولا شواربهم، وعند الناصورائيين لا يحلقون حتى شعور رؤوسهم، كلهم يميلون، في الأعياد إلى لبس البياض، (على هذا نعتت ملتهم - ملة إبراهيم الخليل - بالحنفية البيضاء)، أما العقال والكوفية الحمراء (اليشماغ) فتوارثوها منذ أقدم العهود.

النبي ادريس (ع) جعل، من خلال وصاياه، أعياداً عدة للصابئة، وفي أوقات معروفة، فالشمسية منها تتزامن ودخول الشمس رؤوس الأبراج، أما القمرية فعند رؤية الهلال، (كما لمح لها المؤرخ القفطي علي بن يوسف).

ويعتبر عيد رأس السنة الكبير (التكريس) ويسمونه (الصخوة) أو التقدمة، أو الأضحية الكبرى (دهواربا)، وهو ذكرى هبة اللّه الحياة أو النسمة، أو الكلمة أو الأمر الذي كان به آدم الإنسان الأول الذي عمر هو وأبناؤه الأرض، فبناها لأول مرة.

يقع هذا العيد في اليوم الأخير من السنة المنتهية (نهاية كانون الثاني)، وهو يوم الاجتماع والنقاء، إذ يرتدي فيه المندائيون الملابس البيض ويصطبغون (يتعمدون)، وينظفون بيوتهم وأوانيهم، ويعدون معدات العيد، فينحرون الخراف أو الدجاج أو البط، ويهيئون أنواع الأطعمة والأشربة الأخرى، إذ يبدأ (التكريس) مع غياب الشمس لذلك اليوم حيث يكون فجر اليوم التالي هو (الأول من شباط) وهو اليوم الأول من السنة الجديدة.

فيصومون عن اللحوم لمدة أربعة عشر يوماً احتراماً لهذه المناسبة، وفي هذا العيد يفضل الصابئة المندائيون الاجتماع في بيوتهم وتكريس أوقاتهم للعبادة والدعاء.

وتكون مدة التكريس (٣٦) ساعة، يخرجون بعدها، فيقيمون شعائر العيد من تهان و(ملبّس) ومأكل، كالمعتاد.

اتخذ هذا العيد المعروف بالمندائية باسم (دهفه أو دهبه – ربه)، أهمية التاريخ الهجري لدى المسلمين والتاريخ الميلادي للمسيحيين، فهو من الأعياد التي وضعها النبي إدريس (ع) في وصاياه، وله حدث ديني، إذ تقول كتبهم الدينية: إن جميع الأرواح النورانية «الملائكة الصالحين» أينما كانوا يغادرون مواقعهم متخلين عن حراسة (أرى تيبل) «الأرض البالية» إلى عالم الأنوار اللانهائي (الجنة) لتقديم فروض الشكر والطاعة لخالقهم «مانه العظيم أو مانه ربه كبير» وهي بعض الأسماء الحسنى للرب، لأنه قد أتم خلق العالم السماوي في هذا اليوم بمشيئته، فبقي الصابئة ينتظرون عودتهم إلى عالم النور، حيث يستغرق ذهابهم ١٢ ساعة للمعراج، حيث يصلون إلى غايتهم في فجر يوم رأس السنة الجديدة، ومن ثم يمكثون ستاً وثلاثين ساعة، ولذا فكل مندائي يعتكف في داره مع عائلته طيلة هذه الساعات، إذ يجتمع من كان غائباً، ليعم الفرح بين العائلة.

وإذا كانوا يبتاعون الجديد من الملابس كأمر لابد منه في هذا العيد، فإنهم

يهتمون بالنظافة أولاً فينطلقون من داخل بيوتهم حتى عتباتها وشوارعهم المشتركة، بمثابة عمل شعبي، ويسمى «يوم الكنس» الذي يسبق «**الكرسة**» (**الاعتكاف في البيت**) متعمدين على أيدي رجال الدين (**المؤمنين**) في النهر الجاري، ناحرين ما أعدوه من (ذبائح)، ويرتمس في الماء **مستحباً** لا وجوباً في هذا العيد، ويلبسون حللهم الجديدة، **وجوباً**. منتظرين صبوء أول نجم يلوح بالأفق، فتزغرد النسوة معلنة بدء التكريس (الاعتكاف) في بيوتهم منقطعين، عن التجوال في الشوارع وخارج بيوتهم، وعن غير دينهم، وأما الناصورائيين فيعتكفون منقطعين حتى عن أبناء دينهم بالذات.

وعند بزوغ الشمس في اليوم الثاني (أي بعد مرور ٣٦ ساعة كما ذكرنا) يعود من كان متديناً للارتماس ثانية، ومن ثم يلبسون ما اعدوه للعيد من ملابس جديدة ويخرج الجميع بشكل جماعة واحدة للذهاب إلى دار المؤمن للتهنئة بهذا العيد، ومن بيته ينطلقون إلى بيوت الآخرين لمعايدة كل بيت غنيها وفقيرها وحسب تسلسل البيوت بالنسبة للجيران واحداً بعد الآخر.

وفي هذا العيد، تزول الضغائن بين المتخاصمين المتشاجرين وتحل القضايا المعلقة بينهم، بالحسنى، ويقبل كل منهما الآخر ويزوره.

ولا يغمض جفن لمتدينهم في هذه الست والثلاثين ساعة، ولا سيما من الرجال، لئلا يحصل لهم ما يفسد طهارتهم خلالها، وإذا حصل هذا كأن يكون لامس حيواناً أو نباتاً أو من غير دينه، أو جسماً غير طاهر، فيعتزل عن باقي المعتكفين بعد أن يصب عليه ماء طاهر، ويمتنع عن تناول الطعام والشراب (يصوم) خلال هذه المدة، وإذا لم يتمكن من ذلك فعليه أن يتعمد بعد العيد لمدة أسبوعين لأن هذه الـ «١٤ يوماً» بعد التكريس تكون من الأيام (غير الصالحة) دينياً، فمن يموت فيها لا ترفع وراء جنازته كتب مقدسة، ويجب أن تجرى له (مسخثه) في أيام (البنجة) لتخفف عنه دينياً، وتذبح كافة الذبائح في هذه الأيام.

وقد اطلق العامة على هذا العيد المندائي «**عيد الكرسة**» (الكرصة) بالصاد – **من الانقطاع والاعتكاف** –.

وفي نهاية الأسبوع يحتفلون بـ (ليلة القدر) و(عيد السلام الكبير: شيشلام ربه)، ذكرى حلول السلام والمحبة على الأرض، ويتمثل هذا العيد على مستوى

دنيوي بنزول قطرة المطر الأولى في الشتاء فتحيا بها الأرض بعد موتها. كما يتمثل بالنسبة للإنسان بتكوين (الجنين) أو (النطفة) في رحم الأم. وهو من الأعياد المذكورة في وصايا النبي إدريس (ع) وهو عيد آدم غير المنظور (آدم كسيه) (آدم الخفي) في (آلم دنهورا= عالم النور= الجنة)، وهو نظير آدم البشري في (الأرض الفانية) (أرى تيبل)، وهو لمدة يومين، والليلة التي بينهما تفتح بها أبواب (أباثر)- وهو المختص بمكافأة المتقين المحسنين أمامهم، وهي تقابل (ليلة القدر).

ولا يطلب المتقي ممن حظي بهذه الليلة أكثر من المغفرة له في (الجنة)، ليدل على زهده في (الأرض الفانية= الدنيا).

وطقوس هذا العيد، بسيطة إذ يعلق كل مندائي في باب داره اكليلاً من غَرَب الصفصاف، وإن صح فالآس، وهو المفضل دينياً.

أما العيد الصغير (ذهفه أو دهيه - حنينه): فهو عيد الأزهار (نوار) وموعده الأصلي اليوم الثامن عشر من شهر آيار، ويسمونه (هبة اللّه الصغرى) أو (التقدمة الصغرى) وهو ذكرى عودة الرسول (جبريل) وصعوده إلى السماء، إذ إن الكتابات المندائية تشير إلى أن (ملاك النور) جبريل الرسول، قد نزل إلى الأرض بأمر من اللّه، ثم عاد إلى السماء مبشراً بازدهار الكروم وانتشار النور واندحار الظلام، بعد أن هبط إلى الأرض ليفهم منها عن طريق الفيض الإلهي لمن اختاره اللّه نبياً أو رسولاً ومصلحاً لمن عصا ربه واطاعته وأشرك به. (١٢)

ويتمثل هذا العيد، على المستوى الدنيوي بعودة الازهار والخضرة والخصب والنماء إلى الأرض بعد انتهاء فصل الشتاء، كما يتمثل في حياة الإنسان بمرحلة دبيب الحياة في جسد الجنين، وكان حلوله الأصلي في ١١ آذار وطقوسه: التعميد في اليوم الأول منه، وإقامة الصلاة والتسبيح للخالق، وعمل الواجبات الطقسية على أرواح الموتى، وتقديم الطعام إلى المعوزين والأرامل واليتامى، وتقديم ما تيسر من الطعام للمهنئين، كالرز واللبن الرائب، فيأكل المهنئون رمزياً، ليتناولونه، أيضاً، في البيوت الأخرى. ومعنى هذا الطقس معروف عربياً، فمن تناوله تزول ضغائنه ولا يلحق الضرر بمن تناوله معه حتى لو كان قد ضمر له السوء فيما مضى. وكان هذا العيد يحل في (الثلاثينات) في فصل الخريف، لكنه حل منذ نهاية السبعينات في الثامن عشر

من شهر تشرين الثاني (١٩٧٧). وسنأتي على ذكر «التقويم» عند المندائيين في فصل قادم.

أما عيد الخليقة (البنجة) أو عيد الخمسة أيام، أو عيد البرية، فهو ذكرى الأيام التي بلغ بها الخلق تمامه، وتدعى أيام هذا العيد بأيام الذكرى، وهي أيام مضيئة لأنها تمثل (فجر الحياة) المكتمل. ويقع العيد بين الشهرين الثامن والتاسع، ويحتفل به بإقامة التعميد والصلوات وتقديم الطيبات على أرواح الموتى. وهو يتمثل باكتمال النبتة التي تؤتى ثمارها في فصل الخريف، كما يتمثل باكتمال الجنين في رحم الأم.

عيد (براوانايا) الذي يعرف شعبياً بعيد (البنجة)، هو عيد برودة الأرض واكتمال نضجها، بعد أن كانت كتلة ملتهبة عند انفصالها عن الشمس، وتكوين المخلوفات الدنيا على سطحها قبل ملايين السنين، ولقدمها العريق أنزلت أيامها المذكورة من السنة الزمنية عند المندائيين التي عددها ٣٦٥ يوماً وربع اليوم ومن عمر البشرية والكائنات الحية الأخرى، بحسب اعتقادهم، ولذا أصبحت كل السنوات بسيطة، إذ بحسب التقويم المندائي لا كبيسة فيها لذا فإن من يأتي من «الأرواح الشريرة» وتصل عالم النور في يومها دون أن تعترضها الأرواح الخبيثة لتعطيلها، ولا حساب يقام لها لأن الله اختار انتقالها إلى عالم النور بهذه الأيام الطاهرة لطهارتها، بعكس من يموت في ليلتي (الكرصة) في العيد الكبير، إذ تبقى (نشتمثته) موقوفة إلى حين إقامة (مسخثه)، أي عمل خاص لانقاذ روح الميت من الأرواح الشريرة، وذلك أيام البنجة، لتسير هذه الروح التي أطاحت بها الأرواح الشريرة هذه الأيام وبغفلة من (الناطري) (حراس المندائيين في الأرض الفانية)، بحسب المعتقدات المندائية.

يؤجل المندائيون سفرهم قبل عدة أيام من قدوم البنجة لمن كان يروم السفر، ويلتحق بأهله من كان بعيداً عنهم، ليكون بينهم بهذه المناسبة.

ترسل القدور والأواني النحاسية إلى الصفارين لتطلى من جديد بمادة القصدير والقلاي عند «المبيضجي» كجزء من فولكلور الصابئة المندائيين، الذين كانوا يقطنون بخاصة حافات المياه، كسكان «ناحية المشرح» في ميسان (العمارة) في الثلاثينات وحتى حقبة قريبة يعتبر طلي الأواني جزءاً من طقوس الاحتفال بهذا العيد، إذ يشترط بألا تطهى (الوجبات الطقسية) إلا بقدور مطلية!

وتحضر كل عائلة كبشاً يتناسب وعدد أفرادها، وفي أول يوم من أيام العيد يذهب الشيخ «جثير» وكان بدرجة ترميذه، في ناحية المشرح، إلى شاطئ دجلة، أو شاطئ نهر المشرح أو أحد فروعه المضلل بأغصان الأشجار والنخيل على ضفافه، أو في بساتين بيوتهم التي يمر الماء من النهر إلى مزارع الرز، فيغرز الشيخ «**الدرافش يحيى**» أي: **علم النبي يحيى**، (ع)(١٣)، ثم يتلو التراتيل الدينية يحيط به المندائيون نساءً ورجالاً وأطفالاً، طالبين التعميد تقرباً من الله، ورضواناً، «كما فعل أسلافهم الصابئة وطلبوا من النبي شيت» كي يقوم بتطهير أوانيهم النحاسية بيده غامساً إياها في الماء الجاري، مع تلاوة بعض التراتيل المعدة لطعامهم خلال هذه الأيام.

ومن أراد التعميد والتطهير فيذهب من تعمد لذبح ما يريد ذبحه من ذكور الأغنام – دون الإناث – أو البط أو الدجاج والحمام، والأخير منها يصلح لعمل «**الوجبات الطقسية**» دون غيرها من الطيور لأنها لا تفترس الحشرات والهوام الأرضية والرمم الميتة. وهذه الأيام، هي الأفضل لإقامة طقس «**الوجبات**» على أرواح الموتى.

والارتماس في الماء، يتم عادة قبل البدء بالذبح أو تناول الطعام أو إعداده، (سواء منه الطعام العادي أو الوجبة الطقسية) فيرتسمون في الماء (**في النهر**) يطمش أي يطمس في الماء بكل جسمه، وحتى في الأيام الأخرى– عدا أيام البنجة– إذ يتناولون فيها طعامهم دون ارتماس، يطمسون أيديهم لحد الرسغ قبل تناول الطعام، وهو شرط ديني، ومغزاه الصحي معروف: التطهير بالماء الجاري أو ما اعد لذلك بأوان مطهرة» ويلبسون البياض، بعد أن يطمسونها هي الأخرى بالماء، مع شخص مرتمس، ثم يرتدونها بعد تجفيفها، وتقوم النساء بعمل ما يحتاجون من طعام.

حين مر الرحالة الفرنسي (**تافارنيه**) بمدينة البصرة في القرن السابع عشر الميلادي، (وتحديداً في العام ١٦٥٢م) قال: «وقد مررت بقوم لا يتناولون الطعام إلا بعد الارتماس بالماء، والفصل كان صيفاً».

وكانت هذه الاحتفالات الطقسية تتم في الثلاثينات يوم ٤ نيسان، ثم جرى الاحتفال الديني بها في ٢٨و٢٩، مارت عام ١٩٧٧ و١٩٧٨، وهي آخذة بالزحف نحو الشتاء، إذ جاءت في العام ١٩٨٠ بيوم الاثنين ١٩٨٠/٣/٢٣.

وهذا ما سنبحثه في «التقويم المندائي» وحركته، إذ إن أسماء الأشهر والأعياد والمناسبات لدى الصابئة المندائيين لم تعد في «أماكنها» من فصول السنة التي عينت لها في الأصل، إذ إنها تتقدم يوماً واحداً في كل أربعة أعوام، واستمر هذا الفارق، وتراكمت الأيام، حتى أن عيد رأس السنة الكبير، وهو عيد التكريس، وقع في أواخر العام ١٩٨١ بشهر تموز، في حين كان موقعه الأصلي هو (أول شباط).

أما عيد التعميد، ويسمى «هبة اللّه» فهو ذكرى تعميد آدم والآباء الصالحين القدامى: شيت، انوش، سام، يحيى يوحنا، ويعمد فيه الصغار، كما توهب الهدايا والعطايا للمحتاجين، ويقع في نهاية الشهر العاشر من السنة، ويعين دلالته بكون الطفل المولود يجب أن يعمد ويرسم باسم اللّه. وهذا العيد يتطابق في طقوسه، تقريباً، مع يوم التعميد عند النصارى.

وعيد ميلاد النبي يحيى (ع) (دهفه إديمانه) فيحتفل به الصابئة المندائيون ليوم واحد. واسم هذا النبي هو يحيى، كما جاء في القرآن الكريم، ويوحنا كما اوردته النسخ المتداولة من الأناجيل:

﴿وزكريا إذ نادى ربه ربّ لا تذرني فرداً وأنت خير الوارثين فاستجبنا له ووهبنا له يحيى...﴾ [الأنبياء: ٨٩-٩٠].

وسماه قومه باسم أبيه فاعترضت أمه وقالت: بل يسمى (يوحنا) و(المعمدان)، ومعناها (عسل) و(الألف والنون زائدة، طالما هي ليست للتثنية).

والاسم «يوحي» معناه باستمرار الحياة (أي أنه يحيى) بمعنى يعيش، ولم تكن هذه التسميه معروفة أو متداولة سابقاً، حيث لم يكن أحد سبقه بهذا الاسم:

﴿يا زكريا إنا نبشرك بغلام اسمه يحيى لم نجعل له من قبل سميا﴾ [مريم :٧].

فالاسم الصحيح لهذا النبي هو (يحيى) الذي ولد من أب مسن لا ينجب وامرأة عاقر، فأبوه «زكريا» للّه، (زاكراليا) (١٤)، ومعناها: من يذكر اللّه ويطلب من الآخرين أن يذكروه، أيضاً.

«أليا» هو اللّه: ايل، الرب، كما تلفظ بالآرامي، (زكر) بمعنى (ذكر)، فصارت: (ذكر اللّه) «زكر أليا» وادمجت فصارت (زكريا).

وزوجة يحيى هي «الياصبات» ومعناها: إيل، وصابات تعني القسم أو

اليمين: إليا (إيل)، فتصبح (يمين اللّه) للتدليل على طهارتها، وهي من بنات هارون، وعنها يقول انجيل لوقا (الاصحاح الأول)، هذه القصة (كان في أيام الرومان حاكم على القدس والأردن هو «هيرودوس»(١٥) اليهودي، وكان هناك شيخ وقور طاعن في السن اسمه زكريا من فرقة «أيبا- الاسينين، وامرأته من بنات هارون واسمها اليصابات كان كلاهما بارين أمام اللّه سالكين وصايا الرب وأحكامه بلا لوم». ولما أصبح حديث الناس، راح يدعوهم إلى التوبة، والاعتراف بالذنوب طلباً لمغفرة اللّه، واتخذ من الماء والاغتسال به طقساً لمن يستجيب لدعوته، فكان لابد له من التطهر، إذ كان يعمد القادمين إليه في مياه نهر الأردن، ويغسل أجسام المذنبين، وهو بعد صبياً:

﴿يا يحيى خذ الكتاب بقوة وآتيناه الحكم صبيا﴾ [مريم :١٢].

واتسعت دعوته وأحبه الناس، وناصبه الحكام العداء، بل طلب هيرودوس قتل الأطفال كلهم ويحيى بالذات، وحين مات ورثه أبناؤه، وتقاسموا المملكة فتربع ابنه الذي يحمل نفس اسم ابيه على الجليل، وسمع بشأن يحيى **وبأن أباه كان يريد قتله، وكان الابن (الحاكم) على سر أبيه، مستهتراً سكيراً فاجراً غادراً، وكان متزوجاً من ابنة الحارث النبطي، - ملك الأنباط شقيقه والذي يعرف بارتباس العربي، وزوجته اسمها «حرثت»**، وكانت له أكثر من عشيقة يلتقي بها سراً في القصر وخارجه، ومرة ذهب ليزور شقيقه الآخر «**فيلبس**» **الذي استقبله بحفاوة**، ومن بين المستقبلين زوجة أخيه «**هيروديا**» وابنتها مفرطة الجمال «**سالومي**» ومنذ النظرة الأولى مالت هذه الزوجة (الفاجرة) إلى هيرودوس، واندفعت (هيروديا) وراء عواطفها التي ألهبها هيرودوس وتبادلا العشق، وانتشرت قصتهما بين الشعبين، وقرر هيرودوس، للقضاء على الشائعات غزو أرض أخيه وضمها لأرضه، وبالفعل تم له ذلك والقى بأخيه في السجن ليتزوج من (هيروديا)، وكي يتم له ذلك لابد من قتل أخيه ليزول العائق الديني والذي سيبطل حجة النبي يحيى الذي كان معارضاً ورافضاً وموبخاً لهيرودوس - رغم الفارق الديني بينهما - مما اضطر الحاكم إلى سجن يحيى لمدة عشرة أشهر للضغط عليه ومحاولة ارضائه بكل الوسائل كي «**يفتي**» بالموافقة على الزواج لكنه لم يفعل.

وفي يوم ميلاد هيرودوس اقيم احتفال مهيب يليق بمقام الطاغية، شربوا

حتى الثمالة، ورقصت (سالومي) واجادت وطلب هيرودوس أن ترقص معه مقابل تنفيذ ما ترغب حتى لو اقتضى ذلك منحها ملكه، ووافقت شريطة أن يأتيها برأس النبي يوحنا على طبق من ذهب. وبرأ بوعده – وهو ثمل – طلب أن يقتل يوحنا فوراً، وأن يؤتى برأسه على طبق من ذهب ليكون خاتمة الحفل، فدخل السياف على النبي المقيد القدمين واليدين فهوى بسيفه بسرعة على رقبته فقطع الرأس عن الجسد وحمله على طبق من ذهب ليقدمه إلى سالومي، وهي بدورها قدمته إلى أمها «هيروديا»، صاحبة الفكرة التي ارادت الانتقام منه حتى بعد وفاته لكونه قال فيها ما قال.

وحين علم أتباع يحيى، هبوا واختطفوه، وحملوا الجسد، كما حملوا جسد أبيه من قبله، ودفنوه، وتألموا وترحموا عليه كثيراً. (جاء ذلك في إنجيل **مرقس/ الاصحاح السادس**):

«لأن هيرودوس نفسه كان قد أرسل وأمسك يوحنا فأوثقه في السجن من أجل هيروديا امرأة أخيه فيلبس، إذ كان قد تزوج بها، لأن يوحنا كان يقول لهيرودوس: لا يحل أن تكون لك امرأة أخيك، فحنقت هيروديا عليه وأرادت أن تقتله فلم تقدر لأن هيرودوس كان يهاب يوحنا عالماً أنه رجل بار وذو أتباع»... الخ.

– وبعد هذه الفعلة الدنيئة، فقد حشد **الحارث ملك الأنباط– حاكم أحد أرباع فلسطين**– وقتذاك والد (حرثت) جيشاً فانتقم من هيرودوس المستهتر، عندما بلغه مقتل النبي يحيى من جهة وانتقاماً لابنته من الجهة الثانية، التي طلقها هيرودوس بأمر من هيروديا. وهكذا سار الحارث على رأس جيش مدرب من الأنباط والكنعانيين أبناء جلدته فقاتل هيرودوس وجنده، الذي استنجد بالرومان، ولم تفده، فمات أخيراً، هلِعاً، فقيراً، ويائساً. أما سالومي، فقد وقعت في الأسر وانتحرت، وقيل ظلت أسيرة حتى ماتت كمداً.

وهكذا يحتفل المندائيون بعيد ميلاد يوحنا، عيداً لهم، وبالتعميد الذي أوجده، طقساً لهم. ومن أقواله:

«إن سر عبادتك بأن لا يزول اسم الله من فمك»

«إن سر استقامتك أن لا تقل ما لا تعرفه»

«إن سر شخصيتك أن توقر الناس»

«إن سر سلامتك أن لا تتكبر على من هو أكبر منك»
«كن كالجبل الكبير المغطى بالورود والريحان والأزهار»
«تشبه بالنسيم العطر الذي يهب في كل باب»
«كن كالفلاح الطيب الذي غرس الأشجار الطيبة»
«تمثل بالجبل الكبير الذي لا تزحزحه الريح»

الإحالات:

1) k.R. Labat, Traile Akkadien de diagnosttics et pronotics médicaux, Leiden- 1951.

وقام الدكتور عبد اللطيف البدري بتعريب نصوص متحف اللوفر المسمارية التي جمعها ودرسها وترجمها إلى الفرنسية الباحث رينيه لابات، وذلك بعنوان: **التشخيص والانذار في الطب الاكدي**، مطبعة المجمع العلمي العراقي، بغداد، ١٩٧٦. كما قام الدكتور المذكور بترجمة نصوص طبية نشرها الباحث تومبسون، وذلك بعنوان: **من الطب الآشوري**، منشورات المجمع العلمي العراقي، بغداد ١٩٧٦.

٢) علوم البابليين، مصدر سابق، ص ٦١-٦٢.

٣) نفهم بأن شجرة الطرفاء (الأثل) هي رمز الإله آنو، ورأس النخيل: الاله تموز، والنحاس: الإله أيا، والحمر: الإله النهر، والتيس هو خوشو (شيطان الطاعون).

وثمة منحوتة في متحف اللوفر تسمى بـ «الحائكة»، وتمثل إمرأة في طور امومة قريبة، وهي تغزل مكباً بالقرب من سمكة (رمز الجنين)، وهناك شخص في حالة انتظار اعطائها نسمة الحياة بواسطة مروحة، انها تعويذة بلا شك، غير أن مشاهد عدة وجدت اثناء التنقيبات في الهياكل والقصور والبيوت والقبور لا تزال بحاجة إلى فك طلاسمها، لنقص الدليل المساعد على الكشف عن المعاني الخفية لهذه الرسوم الرمزية والطلسمية. أنظر: المصدر السابق ص ٦٦-٦٧.

٤) ناجيه مراني: مفاهيم صابئية- مصدر سابق- ص ١٣٢-١٣٩.

٥) راجع ترجمة روفينوس: PG 12, 203; GCS 29 (1920) 77-86.

أنظر: ذبيحة إبراهيم لاوريجين، ترجمة. الأب منصور المخلصي، بين النهرين، العدد ١٠٣-١٠٤ ١٩٩٨) ص. ص ١٨٣-١٨٥.

٦) أنظر: من ألواح سومر، تأليف صموئيل كريمر، ترجمة طه باقر، مكتبة المثنى ومؤسسة الخانجي بالقاهرة ص ٢٤٤-٢٤٥، ٣٧٩-٣٨٠.

والأساطير السومرية، تأليف صموئيل كريمر، ت: داود عبد القادر، بغداد ١٩٧١، ص ٨٥-٨٦، ١٦.

٧) من ألواح سومر: ص ٢٣٩-٢٤٠. وأنظر د. يوسف حبي: العراق أرض أبينا المقدسة، بين النهرين، مصدر سابق، ص ١٩١-١٩٢.

٨) د. فاضل عبد الواحد: من الواح سومر إلى التوراة، بغداد ١٩٨٩، ص ٢٥٥-٢٥٦.

٩) استناداً إلى الدكتور أحمد سوسه في كتابه (العرب واليهود في التاريخ) ط ٢، دار الاعتدال دمشق، ص ٢٦و١١٦، وكذلك إلى العلامة SCHAFFER في كتابه (النصوص المسمارية في اوغاريت)، لندن ١٩٣٩ ص ٥٩-٧٢.

أنظر: يعقوب أفرام منصور؛ إبراهيم «أبو المؤمنين» عراقي من أور السومرية، مجلة (بين النهرين)، مصدر سابق. ص ٢٠٥.

١٠) داروور: الصابئة المندائيون، ص: ٣٥٦.

١١) أنظر: شعائر الموت الواجب اتباعها، كما قدمتها ناجية المراني في كتابتها« مفاهيم..»، بغداد ١٩٨١ ص ١٣٥.

١٢) كما ورد في كتاب الصابئة المندائيين، الليدي دراوور- الترجمة العربية عن «كنزا ربا»/ ص: ١٥٢.

١٣) الدرافش: أحد الأسماء للعلَم، (علَم النبي يحيى)، يسمى، أيضاً: «رامي»، بحسب ما أفادته د. ناجية المراني.

١٤) ابن الأثير للشيباني، ص: ١٧١.

١٥) لاحظ: ابن بطوطه، ط ١ ، ١٩٢٨ م، ص ٥٤.

٩

الإبداع

تقوم الشمس، كما نراها من الأرض، بدورة كبيرة تسمى «سمت الشمس» وتعود إلى الموضع عينه بعد سنة دائرة انقلاب مكونة من (٢٤٢٢٠ و ٣٦٥) يوماً، أما الزمن الضروري الذي تستغرقه للرجوع إلى عين الموضع ضمن الكواكب الثابتة، فهي (السنة النجومية)، وهي اطول قليلاً من سابقتها، لأنها مكونة من (٢٥٦٣٦ و ٣٦٥) يوماً.

أما القمر فيعود إلى الموضع عينه ضمن الكواكب الثابتة بعد فترة نجومية هي (٣٢١٦٥٠٠و٢٧) يوماً، فيرسم هكذا دورته حول الأرض، وخلال هذه الفترة يتغير الوضع النسبي للشمس ويعطي مراحل مختلفة.

أسس ميتون Meton الدورة المعروفة باسمه، وبها عدل (السنوات الشمسية) بموجب السنوات القمرية معتبراً بأن ٢٣٥ شهراً = ١٢×١٢+٧×١٣، وللحصول على أقرب احتمال قام بتوزيع ٧ سنوات مكونة من ١٣ شهراً على ١٩ سنة، فكان للسنوات ٣، ٥، ٨، ١١، ١٣، ١٦، ١٩، من الدورة: ١٣ شهراً (١).

أما التقويم البابلي، فقام على الطقوس، وشكل علاقة جدلية بين المعتقد الطقسي، وبين الزمن، كنوع من خاصية تفكير.

ففي فجر التاريخ، كانت شعوب الرعاة والفلاحين، تعيش من ثمار الأرض، كالسومريين، لذا نراهم متشبعين بديانة (طبيعية)، إذ كانوا يحترمون ويبجلون القوى الحياتية التي للخصب والنماء، وكان عليهم ملاحظة دورة الفصول المتعاقبة في كل ربيع، والتي تأتيهم بنباتات سحقتها قساوة الصيف

ظاهـريـا، لذا فـإن (**الـقـوة الإلـهـيـة**) التي تتلاشى (**تـغـيـب**) في بعـض الفصـول وتحبس في باطن الأرض، (**تبعث**) في الربيع وتتصاعد بنوع، من أحشاء الأرض، مـنـتـظـم، حـتـى تـتـخـذ لـهـا حيـويـة (**مخصبة**) تؤثر على الـكـائـنـات والنبـاتـات.

وبمـا أن (**الـديـانـة الـقـديمة**) رضـيـت بـاعـتـبـار (**الآلـهـة**) = (**كـائـنـات بشرية خـالـدة**) – متمتعة بسلطان يفوق الطبيعة، طورت الأمر إلى مفهوم (**الزواج**)، فنشأت (**الـعـائلة الإلـهـية**).

وقد افترض (**تجديد الطبيعة**)، الذي يلازمه بمفهوم الولادة، ولادة جديدة لمبدأ حياتي، تفضيل اتحاد زوجين من الآلهة، فكان (الزواج المقدس).

إن هذا (**الزواج المقدس**) ظل حتى النهاية، في الدين والطقوس، مرتبطاً **باليوم الأول من السنة**، لذا كانت مراسيم الزواج الإلهي تقام في اليوم الأول من السنة.

ووفقاً لخاصية التربة، كما ووفقاً للآلهة **شفعاء المدن**، كان تاريخ الزواج يختلف، ويختلف بالتالي تاريخ السنة الجديدة، فاحياناً في الشهر الأول من السنة، أو يصبح في الربيع، وفقاً للمدن والمواقع لأن العادة الأكثر شيوعاً والتي كان لها أن تسود، جعلت، من بدء العام: «**عيداً للربيع**».

وكان السومريون يقدمون «**البواكير**» – **الأضاحي** – للآلهة في هذه السنة، والتقويم السومري بفضل أسماء شهوره الخلابة، يقدم لنا لوحة حياة رعاة، كالشهر الذي تأخذ فيه الزروع بالإصفرار، والشهر الذي يحصد فيه القمح (ويسمى بشهر المطامير) وفيه يجمع القمح. والشهر الذي تحفظ فيه المحاصيل للحيوانات.

وقد كان ثمة (**أعياد**) تختتم الحصاد وتدوم اثني عشر يوماً (**كعيد المظال الفنطقسطي لدى اليهود**)، ومن جهة أخرى، **اعياد طقسية**، كالشهر الذي فيه يأكلون الحنطة على شرف الآلهة، والشهر الذي فيه يأكلون الملت ويشربون **الجعة المصنوعة من حبوبه** (= **وهو الشعير**)، وهذان الأمران يدلان على عادة (**الموائد الطقسية**)، وقد كانت مرتبطة بطابع التربة أيضاً، أو الاحتياجات التي كانت تتم في بعض الأماكن، كما يدل على ذلك اسم شهر (**جز الخراف**).

وحين أدخلت بابل، وبشكل نهائي، تاريخ العام الجديد **في شهر نيسان، أي في الاعتدال الربيعي، والسنة المثالية المكونة من ٣٦٠ يوماً مقسمة إلى ١٢**

شهراً، وفي كل شهر ٣٠ يوماً، كانت هذه السنة قصيرة جداً، إذ كان ثمة نقص شهر كل ست سنوات، الأمر الذي يعكس فصلي الشتاء والصيف خلال ٣٦ سنة، «ولقد قام المصريون كذلك بملاحظة هذا الأمر فخصصوا له خمسة أيام عيد، ولأن ذلك لم يسد العجز نشأ لديهم تقويمان: مدني ونجومي. وقد فعل المندائيون ذلك، ولا زالوا».(٢)

عند الصابئة المندائيين يبدأ (اليوم التقويمي) بالفجر، وينتهي بالفجر. وتبدأ (السنة التقويمية) ببداية شهر (شباط) حيث يقع عيد (رأس السنة الكبير: التكريس) وأسماء الأشهر في (التقويم المندائي) شبيهة بما يستعمل بالعربية، وكلتاهما شبيهتان بما كان يستعمله البابليون الذين وجدوا أول تقويم عرفه الإنسان وأصحه.

ففي المندائية يسمى شهر بداية السنة: شباط، يقابله في البابلية: (شباطو)، وآذار يقابله في البابلية: (اذارو)، نيسان = نيسانو، سيوان (حزيران) = سيمانو، تموز = دؤوزو، آب، = آبو، وايلول = ايليو... الخ..

وهم يقسمون السنة إلى اثني عشر شهراً، ومدة كل شهر ثلاثون يوماً، ويضيفون خمسة أيام كبيسة قبل الشهر التاسع، فيكون طول السنة لديهم ٣٦٥ يوماً. وتنقص سنتهم، بعد ذلك (ربع يوم) عن السنة الشمسية (الميلادية) المأخوذ بها الآن، حيث يتلافى الفرق باضافة (يوم واحد) إلى شهر شباط كل أربعة أعوام، كما هو معروف بالسنة الكبيسة، وتبعاً لهذا الفرق، نجد أسماء الأشهر والأعياد والمناسبات لدى الصابئة المندائيين لم تعد في أماكنها من فصول السنة، والتي عينت لها في الأصل، إذ إنها تتقدم يوماً واحداً، في كل أربع سنوات، واستمر هذا الفرق، فتراكمت الأيام بحيث غدا عيد رأس السنة الكبيرة عام ١٩٨١، مثلاً، في شهر تموز، في حين أن موقعه الأصلي في شباط.

لذا فإن الصابئة المندائيين يخصمون (عيد الخليقة: البنجة)، ومدته (خمسة أيام) من (زمنهم) التقويمي، لأنها «أيام الذكرى» التي بلغ بها الخلق كماله وتمامه. ومن هنا يستقيم لديهم التقويم السنوي بـ ٣٦٠ يوماً، والمصريون، إنما فعلوا ذلك في مرحلة «مندائيتهم».

ولنرجع إلى الماضي، البابلي، لنتفهم جذر هذه العلاقة (في: التقويم) وحساب الأيام.

وضع البابليون أشهراً إضافية للوصول إلى سد النقص، كان الشهر السادس أحياناً، أو الثاني عشر، وقد اختاروا ذلك لكي يتناسب وموسم الحصاد، وهو في العراق من شهر أيار وحتى شهر حزيران، وفي الجنوب يبدأ منذ نيسان. لذا يدعى فلاحو العمارة (ميسان) الذين يقومون (بالفزعة) أو (التكافل) أيام حصاد القمح «بالنيسانيين». ولذا يصح القول إن موسم الحصاد يبدأ بالفعل منْ شهر نيسان وحتى حزيران، أما موسم جني التمور، فيبدأ في الجنوب مبكراً، أيضاً، منذ آب، أما في العراق، وسطاً فيبدأ من أيلول وحتى تشرين الثاني.. ولا عجب، فإن «الرسوم» والعقود، القانونية والخاصة بالقروض كانت تحمل ذكر الدفع في موسم الحصاد أو القطاف، فهي كثيراً ما كانت تخصص لشراء القمح لغرض زراعته، وكلها آثار تقويم زراعي قديم، ففي بابل، كان يصدر، بعد استشارة المنجمين، مرسوم ملكي يعين مسبقاً الزمن الذي فيه يتم احتساب الشهر المضاف، وكان يبعث بإشعار إلى الحكام جميعاً لكي يخبروا سائر رعايا المملكة.

وفي العهد الآشوري، فيما يختص بالاعتدال الربيعي يقول نص (على شكل ملاحظة موجهة إلى الملك):

«**في اليوم السادس من شهر نيسان**
يتساوى النهار والليل
ست ساعات نهاراً وست ساعات ليلاً»

وكان اليوم مقسماً إلى (١٢) ساعة (بيرو Berou)، وهي ضعف ساعاتنا الحالية، وكان المنطلق من الاعتدال في تقسيم النهار والليل المتساويين في تلك الفترة، إلى عدد متساوٍ من الساعات، وكانت الساعات مقسمة إلى ٦٠ دقيقة لكل منها (أي ضعف الدقائق الحالية) والدقائق إلى ثوان، ونحن اليوم رغم تقسيمنا اليوم إلى ٢٤ ساعة، احتفظنا في عقارب الساعة بالرقم ١٢، فبقينا هكذا ورثة أوفياء للبابليين.

وكان النهار والليل في بابل مقسومين إلى «**هجعات**» ولكل من النهار والليل ثلاث «هجعات»، (كما تأثرت الإمبراطورية الرومانية بهذا النظام، فقسمت النهار إلى مراحل والليل إلى هجعات، تختلف باختلاف الفصول ووفقاً للاعتدال، وكان لكل من الليل والنهار ١٢ ساعة، كساعاتنا الحالية عينها).

ولقد أشرنا سابقاً في ثنايا البحث إلى علاقة الرقم ١٢ بالديانات والعقائد، بدءاً من أسباط إبراهيم (ع) السلام الاثني عشر، إلى إسباط إسماعيل، إلى الملائكة- النورانيين، إلى رسل «ماني البابلي» وإلى عدد الأبراج، إلى الأئمة الاثني عشر لدى الشيعة الجعفرية!

على أن الكلدانيين كانوا يقسمون «الليل والنهار» (Nychthémétre) إلى ١٢ ساعة (بيرو Bérou)، وكل ساعة إلى ٣٠ دقيقة (غيش gesh)، فقد كان (البيرو) يساوي ١ من ١٢ من اليوم، والغيش ١ من ٣٠ من البيرو.

ونحن نعلم أن (المدار)، أيضاً، و(الدائرة) كذلك، كان مقسماً إلى ١٢ بيرو، وكل بيرو إلى ٣٠ غيشاً، لذا فإننا نفهم من هذا التوفيق الذي قام به الكلدان، بالنسبة للأنظمة المختلفة.

وعلينا أن نتذكر بأن الاثنتي عشرة ساعة تساوي ٣٦٠ دقيقة، وهذا يشير إلى مقاييس الكيل (الوزنة)، فالوزنة = ٦٠ مناً (والمن هو شرعاً ١٨٠ مثقالاً، ويعتبر أكثر من ذلك أحياناً، والمقصود هنا أنه يساوي = ٦٠ مثقالاً). وهذا ما يعادل وزن إنسياب الماء في الساعة المائية التي كانت تستخدم لقياس الزمن إبان اجتياز نجمتين خط منتصف النهار، بحيث تغدو الساعة (البيرو) هي، أيضاً، مقاساً «متجولاً» (٣).

ويديهي بأن تقسيم الزمن إلى سنة مثالية مكونة من ٣٦٠ يوماً و١٢ شهراً، وإضافة أشهر إضافية متداخلة، كان يلزم المنجمين البابليين (الأكديين) بتحديد مطلع كل شهر، وذلك ما كان يفعله الصابئة المندائيون منذ تلك العصور السحيقة، وإلى يومنا.

وهكذا استخدم القمر، مرجعاً مهماً، لتحديد الزمن، ولغاية الآن، يبدأ شهر رمضان، بمشاهدة الهلال، ويحدد يوم العيد بمراقبة الهلال ورصده ومشاهدته عياناً، فبه، تبدأ العرب تقويمها (القمري) وهي وفية بذلك إلى الأجداد الأسلاف السومريين والبابليين:

. يأتي في اللوح الخامس من ملحمة (قصة الخلق البابلية) ان الإله مردوخ:

«سلط القمر على الليل

وجعله زينة في الليل

به يعرف الناس موعد الأيام

في بدء الشهر يطلع القمر
يحدد الأسبوع
وبعد اسبوعين، في نصف الشهر،
يواجه الشمس، يكون بدراً
ينحسر ضوء الشمس عن وجهه، يصفّر
يدركه المحاق، يعود ثانية إلى الأرض»(٤)

وقد كان على إله – القمر (الذي يشار إلى اسمه بالرقم ٣٠، ويعتقد بأن اختياره بسبب مثالية الشهر القمري) أن يدلل على المراحل المختلفة للشهر، وذلك بفضل تغيرات فرصه المرئية.

فالهلال، هو اللحظة البكر– الأولى– لمشاهدة القمر، وهي تعقب القمر الجديد فلكياً، وكان مطلع الشهر متصفاً بأعياد طقسية، إذ احتفل بعيد **«النور الجديد»** لدى ظهور الهلال القمري وذلك لأن الإله القمري (نانا سن) لم يكن ممثلاً بالقرص القمري، بل بالهلال الذي لارتفاع بابل، كان يمثل كسفينة أو قارباً له شكل الحدود القائمة في تلك الأرجاء.

«كان الكلداني **كيدينو** Kidinnou الأستاذ في مدرسة سيپار Sippar، عاش بعد الإسكندر بقليل، يشخص في كل هلال طول القمر وارتفاعه وحركة زاويته خلال ٢٤ ساعة، وكان يشير إلى فائض الشهر (المجمع) عن ٢٩ يوماً، وإلى تواريخ الاقتران الفلكي. ولقد توصل العلماء المحدثون إلى تفسير ألواح الكلدانيين الفلكيين بدقة، والتي شملت أعمدة عدة وصلت إلى ١٨، بينوا فيها حركة الشمس والقمر الشهرية وطول الكسوف والخسوف والاقتران الفلكي، وطول النهار والليل، وتبدل سرعة القمر، وما يتبع ذلك من اقتران، وفوارق البعد الشمسي والقمري، وانعطاف الكسوف وارتفاع القمر.

إن سنتنا المكونة في مدارها من ٣٦٥ يوماً وربع اليوم، (مقياس اجتياز الشمس في برج السرطان ويبدأ حين يخترق مركز الشمس الاعتدال الربيعي) هي في الحقيقة: ٢٤٢٢و ٣٦٥ يوماً.. وأن العدد الذهبي، في الدورة المكتشفة المكونة من ١٩ سنة – الذي قدمه (ميتون) فادخل شهراً إضافياً متداخلاً».(٥) ليس هو إلاّ أسلوب البابليين الكلدانيين القدامى.. تماماً.

لقد ربحنا الدقة والضبط بفضلهم، كان اليوم الأول من السنة محدداً منذ

مطلع الألف الثاني قبل الميلاد، وذلك منذ: «**لحظة الظهور الأولى**» **لشروق الشمس، عبر كوكب الجدي**.

وكانت بعض دول، وديانات بلاد ما بين النهرين السابقة للسلالة البابلية الأولى، قد تبنت اعتدال الخريف للاحتفال بالفاتح من السنة، كما يفعل المندائيون، وبحسب الزحف، الذي يجعله متغيراً كطقس احتفالي، بسبب ذلك (الفرق) كما أشرنا، حيث تراكمت الأيام، بحيث غدا عيد رأس السنة الكبير (عام ١٩٨١) في تموز، في حين أن موقعه - الأصلي - في (شباط).

وكان ثمة تاريخان لرأس السنة في بلاد ما بين النهرين، قبل السلالة البابلية الأولى، ورغم ذلك فإن التاريخين المحددين سواء في الاعتدال الربيعي أو الاعتدال الخريفي، يدلان على دقة ملاحظة، وعلى علم بالزمن، ونظرة علمية تجاوزت (مراسيم الزراعة القديمة).

وليس من ريب أن (العين المجردة) لم تكن وحدها كافية لهذا الرصد، وتدلل عديد الأواني النحاسية، والذهبية التي صنعها الصابئة المندائيون على رسوم ونقوش لا ترى بالعين المجردة، بل بواسطة عدسات مكبرة، ولم تتم هذه، منذ أزمنة بالية، إلا بتوفر مبدعيها على وسائل أكثر من مجرد حدة النظر!

ولتعلق الصابئة المندائيون بتقويمهم، يضعون أمام كل شهر من أشهر السنة أسماء الخلق المختارين الذين ولدوا من ذكور وإناث، فيكون الاسم الديني للطفل المولود حديثاً مطابقاً للاسم الذي يوافق مولده ويتكون من اسم أمه، فيقال: (فلان بر فلانه) = (فلان بن فلانه) وللأنثى: (فلانة بنت فلانه)، حيث يسمى الاسم الديني (**ملواشا**) أي الملاك الأثيري، أو الخلق المقدس، الذي اقترن ميلاد الشخص بميلاده، ويستعمل في المناسبات الدينية، فإذا ولد طفل في شهر شباط، مثلاً، وكانت أمه مولودة في شهر نيسان صار اسمه الديني: (رام إبن ياسمن)، أما إذا كانت أنثى فيكون اسمها الديني: (هو إبنة ياسمن)(٦).

وتجد في حساب الصابئة المندائيين لعمر العالم وللحقب الزمنية ما يدهش، (فمن آدم إلى نهاية العالم: ٠٠٠و٤٨٠ سنة).

وتحكم كل حقبة إحدى علامات البروج، فالحمل، مثلاً، فترته ١٢٠٠٠ سنة، وفترة الثور ١١٠٠٠ سنة والميزان ١٠٠٠ سنة، وهكذا.

ويحكم أحد الكواكب في كل يوم من الأيام، ويقسم اليوم إلى قسمين ليل

ونهار وكل قسم بـ ١٢ ساعة، كما يتحكم ملائكة (**ملكي**) معنيون بالأيام، ومن هنا تكون لهم صفات فلكية، فيوم الأحد، مثلاً، الذي تتحكم فيه الشمس (**شامش**) يرتبط أيضاً بتجسيد «هبشبة» (معناها حرفياً: أول يوم في الأسبوع، وتلفظ في الأشوري الذي يتحدث به الأثوريون في العراق كما هي لدى الصابئة أيضاً: «**هوشابا**»، والأحد، مجسداً، يظهر غالباً في أدبيات الصابئين، ففي أسطورة «**هرمز شاه**» يظهر «هوشابا» مطابقاً لـ «**يوكابر زيوا**»، **يوخاور زيوا**، والصابئون مثلهم كمثل عباد المسيح و«مثرا» يضفون على يوم الشمس شرفاً خاصاً، ففي دين (مثرا) يكون ذلك بسبب كون هذا الكوكب مركز حياتهم وشعائر الخصب لديهم، ولدى المسيحيين بسبب ما يقال من أن **يسوع** قد نهض من الموت في يوم أحد، ولأن الشمس المشرقة ترمز إلى **البعث** فالاعتقاد بأن الشمس تغرب في **الغرب** الذي يرتبط **بالموت**، وأن شروقها في المشرق يرتبط بالولادة الثانية أو **الانبعاث**، إنما هو اعتقاد شائع في جميع أنحاء الكرة الأرضية، ومن المحتمل أن يكون الصابئة المندائيون قد ورثوا هذا التقليد عن **الإيرانيين**، في حين يتحدث كتاب «**كنزا ربا**» عن تفاهة الاهتمام بالأحد لدى المسيحيين فيقول: «في يوم الأحد يبقون أيديهم معطلة أو عاطلة»، مقارناً إياهم بالصابئين الذين لا يعتبرون يوم الأحد يوم راحة كالمسيحيين أو كما ينظر اليهود إلى يوم السبت، فالعماد والطقوس تجري في يوم الأحد وهو مبارك للعمل (٧).

إن الكتابات المحفوظة لدى الكهان، بحسب دراوور، لا تصف الجوانب الفلكية للأيام يوماً يوماً فقط، بل وساعة ساعة، بحيث يمكن تدبير شؤون الحياة بنجاح:

«**يوم الأحد تعود الساعة الأولى إلى** «**شامش**»، وهي ساعة ملائمة للشروع ببناء بيت جديد، وللسفر، ولارتداء الملابس الجديدة، وأكل الخبز ومقابلة الملوك والحكام، ولشرب الشراب وللبيع والشراء.

وتعود الساعة الثانية إلى (الزهرة) (ليبات) وعليك فيها أن تمكث في مدينتك وأن تكون مع زوجك، وأن تأكل خبزاً جديداً وتركب الخيل وتستشير الأطباء...الخ»(٨).

وللشمس عند المندائيين «**جانب أنثوي** ليس بزوجة بل متمم وشبيه

(دموثة): إنها أم جميع الملائكة وأقرب الشبه بالأنثى، وحسبما تعتقد، الليدي دراوور، فإن (الشمس) في (شكلها الأنثوي) «تابعة إلى (ملكة زيوا) ومنها ينبثق العالم واسمها: سيمات هي أما القمر فإن «الأرواح النورانية، فيه، تحول بينه هو وملك الظلام، وبين تضليل أبناء البشر، فبتأثير هذين الاثنين يأتي الناس بأعمال معيبة، يخجلون من الإتيان بها نهاراً ولولا التأثير المعاكس لأولئك العشرة (اثري) لاختفى الحس الخلقي لدى الناس، غير أن ملك الظلام يعجز من أن يؤذي رجلا يسيطر على نفسه وله إيمان ثابت. وينظر للزهرة (ليبات أو دلبات) نظرة أكثر وداً من النظرة إلى القمر، وصيغة الاسم غريبة، فالصيغة السومرية -البابلية «دل-بات»- كما يرى بالس Pallis (دراسات مندائية ص ٣٦) كانت مهملة في الفترة التي جمعت فيها المخطوطات الصابئية، وهو يظن بأن النساخين حين استنسخوا الوثائق الأولى اعتبروا «الدال» أداة إضافة وليست من أصل الاسم، ثم حذفت نهائياً لعدم ضرورتها، وتأتي في كتاب «كنزا ربا» فقرة تصف مطهراً (مطهراته) فيه أولئك الذين يذهبون إلى بيت «تموز» حيث يقيمون هنالك ثمانية وعشرين يوماً «يجزون الأغنام ويمزجون الكؤوس ويعملون الخبز ويندبون في بيت دلبات». وهناك إشارات أخرى في «الكنزة» باسم «دلبات».

والزورق الفلكي الصغير خلف زورق «شامش» مباشرة في تصاوير «ديوان أباثر» يعود، كما يقال، إلى «ليبات» وتحت أحد الشخوص فوقه مكتوب:

«هذه شبيهة ليبات وهي جالسة فوق جبل شامش ولها سبعة أسماء» وكثيراً ما تذكر «ليبات» في عمل الرقى، ووظيفتها الخاصة أن تساعد في شؤون الحب والتناسل وتنبيء عن المجهول... أما علاقتها بـ«زهريل» زوج هيبل زيوا، المسؤولة عن المحافظة على الولادات من النساء فلا ينظر إليها بمقت»[٩].

تؤكد الليدي دراوور «**بأن الأتقياء من الصابئين**» ينظرون إلى عمل الرقي باسمها، «**نظرة تجهم واستنكار**»، ومع ذلك فقد صنعوا لها «**تعويذة الزهرة**» التي تملكها، حيث طلب الكاهن الذي كتبها إلى «ليبات» أن: «**تجعل وجهي متألقاً جميلاً**»، **كما تقول**:

«**وليكن المتضرع والمحبوب متأججين بالرغبة**
وأن يكون قلباهما مفعمين بالحب الأعمى وبالرغبة الجامحة».
«**سوف لا يأكلان ولا يشربان حتى يمتلك أحدهما الآخر**».

وهذا التشخيص المندائي، في كتاب «**ديوان أباثر**» المقدس، أو بحسب الرقى والتعاويذ التي يكتبها الكهان، يعطي «**ليبات**» (**أي عشتار**) خاصيتها في الحب والخصب والنماء، تماماً كما هو «دورها» وكما هي وظيفتها، أو بعض وظائفها، في مجمع الآلهة السومري، والبابلي؛ بل والديانات الأخرى.

«**لها سبعة أسماء**» هي ليست عبارة اعتباطية، بل هي تكريس لصفات عشتار (ليبات) وخصالها، إنها **آلهة الحب، الزهرة، فينوس، أيضاً، والجالسة فوق جبل** شامش (شمس)، **أي النار الملتهبة، وهي إذ تظهر كأكبر شخصية (أنثوية) في** (مجمع الآلهة) الأكدي، فذلك لأن شخصيتها انكشفت في عهد سابق جداً، كالعهد السومري، (غازية/ مقاتلة) بصورة خاصة، ففي كثير من معابد ما بين النهرين، لم تتأخر هذه الآلهة (الأنثى) عن عزل أو كسف أو إحتواء/ **الآلهات** المحلية، من أصل سومري كانت أم من استيراد سامي.

ومن ثم فإن (المظاهر) العديدة والمتناقضة (ظاهرياً) التي بدت في شخصيتها، أعطتها هذا (**المزدوج**) الموحد لخصالها، فهي الآلهة (**الرجولية**) **للمعارك**، متلهفة للحروب والصراعات والدم. ففي النقوش البارزة – الريليفات – تظهر بين أشكال أُخر، واقفة وعلى ظهرها جعبتان للسهام وعلى جنبيها يتدلى سيف، منتصبة في وقفتها فوق ظهر أسد، تقبض على زمامه بيدها اليسرى، وهي، أيضاً، وأساساً: **آلهة الحب**، في أصفى أنواعه، وفي (أردئها!)، إنها **عشيقة، أخت، زوجة، وأم لكثير من الآلهة، والوالدة الشاملة، مصدر كل حياة وكل خصوبة، محبة، عنيفة، متأججة بالرغبة** –تماماً كما تصفها الرقى المندائية، أيضاً، وهي **عنيفة، متقلبة، شفيعة البغايا العقيمات والمخنثين والخصيان**، إنها تجسد، خاصة، في هذه الملامح: **السلالة الطويلة من (الآلهات العاريات)**، اللواتي يظهرن في الفن الصوري الشعبي، منذ فجر التاريخ، واللواتي سيستمر وجودهن وظهورهن بعد نهاية الحضارة البابلية بمدى أبعد.

إنها واقفة عارية، دون أية ثياب، وهي، غالباً، تسند نهديها بكلتا يديها،

إنها الآلهة الكبيرة للخصب والإنجاب: «.... وبقدر ما يتعلق الأمر بوادي الرافدين، فإن الدلالة على وجود العقيدة الخاصة بالآلهة الأم، تعود إلى أقدم المستوطنات الزراعية المعروفة لحد الآن، إذ عثر في «جرمو» التي يرقى زمانها إلى الألف السادس قبل الميلاد على مجموعة من الدمى قسم منها نسوة حبالى، مع سمنة مفرطة في الأرداف رمزاً للخصب، عثر، أيضاً، على نماذج مماثلة للآلهة الأم في مواقع أخرى تعود إلى المراحل اللاحقة من العصر الحجري الحديث، مثل: تل الصوان، وحسونة، وحلف، والعبيد، وإلى جانب دمى الآلهة الأم، فقد عثر في حسونة- وهي قرية من العصر الحجري، تحتوي في الأصل على أواني الأكل والشراب ليتزود منها الميت مما يدل على اهتمام الإنسان بمصيره بعد الموت.

«أما في عصر حلف اللاحق، فالملاحظة في دمى الطين أنها كانت تتصف بالإضافة إلى السمنة عند الأرادف، بثديين كبيرين ملوئين تحيط بهما اليدان من الأسفل، ثم إن دمى الآلهة الأم كانت تزين بخطوط أفقية على الجسم والرأس وكأنها خطوط من الوشم»(١٠).

إن عشتار، أيضاً، هي السيدة الحكيمة والقديرة للآلهة والبشر أجمعين، ومدبرة الكون، فهي تعطي الملوك (الصولجان والعرش والشارة الملوكية).

إن اشارة «الليدي دراوور» في كتاب «كنزا ربا» من النزول إلى «بيت عشتار» واداء الطقوس، والندب، من ثم إلى رمز عشتار (الهلال/ الزورق الفلكي) والرقية التي كتبها الكاهن إلى دراوور لتجعل عشتار (ليبات المندائية) وجهها متألقاً جميلاً، وقلبها وحبيبها مفعمين بالحب الأعمى والرغبة الجامحة، يتصل بجذوره إلى ذلك العهد السحيق، في سومر وأكد وبابل حيث عشتار، تتبنى وتحمي السلالات، هي الأم، والمحبة.

وهي (في عالم النجوم): «الزهرة»- فينوس- تماماً كما هي عند المندائيين، أكثر النجوم اشراقاً واشعاعاً... وعلى الأنصاب الأثرية يمثل رمزها المجاور لرموز الشمس- تماماً كما في النص المندائي الذي يظهرها خلف «شامش» (في تصاوير ديوان اباثر)، والمجاور لرموز القمر، أيضاً، تظهر برمزها الذي يمثل نجمة ذات ثمانية، أو ستة عشر شعاعاً، ضمن دائرة، فحينما تظهر في المساء فهي (عشتار أوروك) موزعة اللذات الليلية، وحينما تظهر صباحاً فهي (عشتار أكد) التي تشرف على أعمال الحروب والموت، والتي

اختها أو شبيهتها هي (**سيدة الجحيم**): (**المطهر**)، تماماً كما هي اشارة «كنزا ربا» عندما تصف مظهراً فيه أولئك الذين يذهبون إلى «**بيت تموز**» (**العالم السفلي**).

«عرفاناً لتربة الأرض، كأم رؤوم كبرى، جسد السومريون عبادتها، في إنانا، لأنهم وجدوا الاخصاب والعطاء والميلاد من خواص الأنثى، ثم تمثلوا لها رمزاً في المساء، هو كوكب «**الزهرة**».

في مدينة **الوركاء** ولدت عبادتها ونمت، وهي في لسان سومر: **إنانا**، **منحوتة من (آن) وتعني سيدة، و(آنا) وتعني: السماء، وكانت تدعى** «**ابنة القمر**» و«**نجمة الصباح والمساء: الزهرة**».

وانتقلت إلى أقوام أخرى بأسماء مختلفة، كما هي ليبات أو دلبات عند المندائيين، وعبدها التوراتيون، ومارسوا الطقس الرافدي الموسمي (**في البكاء على تموز**) بعد نزوله إلى (**أرض اللاعودة**) (تماماً كما بكاه المندائيون، كما في نص كنزا ربا) الذي اشارت دراوور إلى مقطعه.

يروي **النبي حزقيال** في سفره بالكتاب المقدس، «أنه شاهد بين اليهود عند مدخل بيت الرب، نسوة جالسات يبكين تموز، وإذا عند باب الهيكل، بين الرواق والمذبح، نحو خمسة وعشرين رجلاً ظهورهم نحو الهيكل ووجوههم نحو الشرق وهم ساجدون..» ، وتابعوا طقس (**العهر المقدس**) الرافدي، ومارسوه في هيكل بني إسرائيل، وكان طبقة متقدمة من النساء (العذراوات) يطلقن على أنفسهم اسم «**عشتاريتو**» في بابل، وهن «**بنات الهوى**» يمارسن بيع أجسادهن في أيام معدودات وشراء ذبائح **لعشتروت** بأجورهن، (**تقرباً**) ومشاركة لها في أدعى أفعال التكاثر للنبات والحيوان والإنسان.

وقد بقي هذا الطقس حتى عهد متأخر، فأسهب في ذكره المؤرخ اليوناني «هيرودت نحو ٣٠٠ ق.م» فسماه (**عيد شابوعوت**) اليهودي، وهو نسخة من أعياد (**الزهرة**) **في صيغتها الكنعانية**، حيث كانوا يتركون «**تربة الأرض**» تستريح سنة كل سبع سنوات تسمى سنة «**السبت**»، لا يبذر أو يحصد فيها شيء، لذا فإن ملاحظة الليدي دراوور بأن «**الأتقياء من الصابئين**» ينظرون إلى عمل الرقى (باسمها) نظرة (تجهم) و(استنكار) لها، من وجهة نظرهم ما يبررها، على ضوء معرفتهم بأساطير الأولين، والطقوس بخاصة من (**بنات**

الهوى) البابليات، حيث الطقس اليهودي البغاء (عيد شابوعوت)، أو (عيد الأسابيع) في تسميته بالكتاب المقدس، هو (عيد قيامة إنانا) للحياة، وعودة الخصب إلى الأرض في (أوائل نيسان) كما كانت تقدم في بابل.

وإلى تلك العبادات الرافدية القديمة يعود (عيد الفصح) في أصله، وهو بالإنجليزية: (إيستر)، وفي الألمانية: (اوستير)، وفي التوتونية (أي عشتار) بلكنات مختلفة Ostara / Easter.

و«العذراء»، أحد ألقاب عشتار، إنانا، كان عبادها يخاطبونها بقولهم: (العذراء، العذراء المقدسة، الأم العذراء) - مع كونها ترمز إلى الجنس، فعذريتها «جوهر» لا يبدده لقاء عابر أو حمل أو ولادة، وقال المفسرون المحدثون: إنه لما كان دم الحيض عند العذراوات أغزر منه بكثير عند المتزوجات وبخاصة بعد الولد الأول، فقد اعتقد الأقدمون بمقدرة (العذراء) الإخصابية أكثر بكثير من غيرها.

وهكذا فعذرية (الزهرة) بمعنى (المخصبة ابداً) (الغزيرة دم الحيض الخالق للحياة).

ثم حلت «السيدة مريم العذراء»، وقد دعيت بسيدة السماء، أيضاً، محل الأم الكبرى، أو القوة الإخصابية الممثلة، بائعة الحب، العذراء.

ولدى الرومان فإن اسم «مريم» هو لقب «كوكب الزهرة».

ومريم، ابنة (أوميت) ملكة بابل وزوجة نبوخذ نصر، بسببها، حين تعمدت مندائية في القدس، وبفضلها وفضل أمها أوميت، تحول والدها نبوخذ نصر الملك إلى الدين المندائي وآمن به.

والعذراء، كلمة مشتركة في اللغات السامية، فمنطوقها الأكدي والكنعاني واحد: «بتلت»، وفي الآرامية: «بتولتا»، وفي العبرية: «بتولا» وفي العربية «بتول».

توصف الفتاة في (نشيد الأنشاد) بالزوجة والأخت، وهما نعتان للزهرة الرافدية، وفتاة الأناشيد على سر أمنا القديمة:

«ليقبلني بقبلات فمِه، لأن حبك أطيب من الخمر

في الليل، على فراشي، طلبت من تحبه نفسي»

عبدها (عرب الشمال) وأطلق منجموهم على «الزهرة» اسم «السعد الأصغر»، واضفوا عليها صفات «الطرب» و«اللهو» و«السرور»، وأسطورتهم

عنها تقول: (كانت امرأة حسناء، أغرت ملكين، وتعلمت منهما الكلمة التي يصعدان بها إلى السماء، حيث ارتفعت وأصبحت هناك كوكب الحسن، ورمزوا لها بالعزى، وجعلوا اليوم المكرس لعبادتها في الرافدين، وهو يوم الجمعة، مقدساً، فسماه الجاهليون، اعتزازاً، «يوم العروبة»).

من شمال الجزيرة عبرت (عشتار) إلى جنوبها فعبدت باسم «عشتر»، وانتقلت إلى بلاد الحبش باسم «عشتر».

وكما آمن الرافديون بأن «العزى» و«اللات» و«مناة»، الثالثة الأخرى، جمعيهن رموز للزهرة، وهن «بنات الله».

ولما كان هؤلاء يفضلون إنجاب الذكر على الأنثى، فقد حاججهم القرآن مستنكراً: ﴿ألكم الذكر وله الأنثى تلك إذاً قسمة ضيزى﴾ [النجم: ٢١-٢٢]

ويروى أن الرسول محمد (ص) كان كلما رأى الزهرة التي فتنت الملكين «هاروت» و«ماروت» يقول:

«طلعت الحمراء فلا مرحباً ولا أهلاً..»(١١)

فإذا كانت (الجمعة) (يوم درهاطي) هو «يوم» الزهرة، تتحكم به، عند المندائيين، فإنه يوم مقدس عند (عرب الشمال) الذين رموزا لها بالعزى، وجعلوا هذا اليوم مكرساً لعبادتها، وسماه الجاهليون «يوم العروبة»، كما المحنا، في أعلاه، فإن «الرؤى» وابداع الصياغات، تمتد بجذورها من ذلك العهد السحيق، حيث علم الحساب والتقاويم والفلك والنجوم، البابلي، يتعالق ويتنافذ مع «العلم الإلهي» المندائي.

وبالرغم من اعتبار «كنزا ربا» الكواكب «كائنات ضارة بالجنس البشري»، فإن (الفكر الصابئي المعاصر) والتعزيم، تعزو لبعضها منافع وللبعض الآخر أضراراً. (١٢)

يلاحظ البروفيسور «مولتون» أن الكواكب في النظام المجوسي مخلوقات (أخرى) كالشياطين، ويقول إنه «يشك ما إذا كانت كذلك حقاً في المزدكية الإيرانية الأصلية لأنها مسماة باسماء اليازتات، فجوبيتر اسمه: اورمازد، وفينوس اسمها: أناهيت»... الخ(١٣).

«سفر البروج» (اسفر ملواشه) هو الكتاب الذي يسترشد به الكهان المندائيون في جميع المعلومات الفلكية، ويقولون إن «هيبل زيوا» اعطاه لآدم ليكون قادراً به على التنبؤ بما سيحدث.

وتقرر أكثر الحوادث الرئيسة في حياة الصابئين القدامى، بخاصة، باللجوء إلى الكهان الذين يخبرونهم عن «اليوم السعيد» للزواج، أو عن (وقت) ارسال الولد إلى المدرسة، أو الشروع في عمل جديد، أو التهيؤ للسفر.. ولم تعد هذه «الجبرية» القدرية، الآن، قائمة لدى أغلب المندائيين، بل إن نسبة عالية منهم تؤمن، سياسياً، بالعلمانية، والفكر الماركسي، بل إن السمة (التقدمية) وسمت تفكيرهم، وبخاصة وجوههم الابداعية البارزة، في التعليم والتدريس والأدب والفن والعلوم والتجارة.

وإذا كان (علم الهيئة) لدى البابليين، الكلدان، يحظى بمكانة رفيعة، في بحوث اليونان والرومان، فلأنهم آمنوا بأن الكلدانيين كانوا يستشهدون، في زمن الاسكندر، بمشاهدات متتالية عمرها ١٩٠٣ سنة ويحسب سيمبليسيوس: «فهو»: «تقدير لا مغالاة فيه».

ويقول جامبليك: «لم يكتف الآشوريون بمشاهدة النجوم خلال ٧٢ ألف عام، كما يؤكد هيبا رخيوس، إنما حفظوا، أيضاً، ذكر عهود العوالم السبعة وتصوراتها». (١٤)

ويخبرنا (سترابون) بأن «ثمة في بابل طبقة أو فئة فلاسفة محليين يسمون «كلدانا» شغلهم الرئيس علم الفلك، يمارس بعضهم ضرب الفال، ولكنهم لا يلقون تأييد البقية» ويشير، أيضاً، إلى عمل الفلكيين والرياضيين الجماعي ذاكراً أسماء كتبة معروفين من بينهم:

«كيديناس، كيدينو، نابوريانوس، نابورماني، وسوديناس، وأكد بإن اليونان عرفوا هذه المصنفات. وتؤكد مارغريت روثن، بأننا نعرف من سيمبليسيوس بأن (كاليستينوس) أرسل من بابل إلى (أرسطو) سلسلة مشاهدات فلكية عمرها (١٩٠٣ سنة)، وقال (أرسطو) في الكتاب الثاني من (السماء) حيث يذكر أرسطو عن اختفاء المريخ بسبب القمر:

«وقام المصريون والبابليون بمشاهدات مماثلة على الكواكب الأخرى وذلك خلال سنوات عديدة، وكانت تحفظ في بابل (على الطين المشوي) (أي على رقم طينية)، وهذه الرقم - الوثائق، هي التي كشفت علمياً بأن ما قام به الفلكيون البابليون، يفوق كثيراً ما قام به الاغريق (١٥).

بإيجاز بليغ ترد معلومات تسبق الفكر اليوناني بكثير، ترجع إلى مطلع

الألف الثاني يرتب فيها (مردوخ) السماء والأرض وبعد أن خلق الكواكب «صنع مردوخ منازل للآلهة» و:

«خلق الأبراج،
ثبتها في أماكنها
حدد الأزمنة،
جعل السنة فصولاً
ولكل شهر من الأشهر الإثني عشر ثلاثة أبراج (المجموع = ٣٦)
حدد الأيام بأبراجها
ثبت برج «نييرو» (المشتري: كوكب مردوخ)
فلا يجهل نجم عمله،
ولا برج وظيفته،
في الوسط، ثبت السمت
وإلى الشرق والغرب فتح بوابة (أنليل وأيا)
وسلط القمر (الإله - القمر) على الليل
وجعله زينة في الليل» (١٦)

هذا الثراء في فكر البابليين القدامى، كان يشد الأحداث التي تهم الإنسان إلى علل النظام «الكوني» فقد كان المقبول أن تكون شؤون الحياة على علاقة بالتحولات التي تتم في الأعالي، وكان في الأمكان البحث عن معرفة ما سمي بـ «كتابة السماء» من خلال الظواهر السماوية، فكان (علم الهيئة) يوسع دائرة بحوثه، بحيث تخرج رويداً رويداً عن النطاق الضيق الذي لعلم الأنواء الشعبي تستحثه هموم البشر الباحثين عن اكتشاف سر المصير.

وفي المعتقد المندائي، يأتي ذكر (تكوين العالم) لا أقل من سبع مرات في «الكنزه ربا»، فالكائن الأعلى يسمى بأسماء متنوعة، فهو ملك النور (ملكه دنهورا)، ورب العظمة (مار ادربوثا)، والروح العظمى (ما نه ربه)، وهو الكائن الذي انبعثت منه الحياة الأولى ثم الثانية، وفي أحد الأقسام يظهر الكائن الأعلى باسم «الحياة العظمى» وهو يخلق «مانه» و«بيره ربه» (الفاكهة العظمى»)، تتساءل الليدي دراوور: «هل هذه الأسماء كنى والقاب، أم أنها تصورات منفردة» (١٧) يعقب المترجمان الأستاذان نعيم بدوي وغضبان

رومي، في ملاحظتهما على الفصل السادس من كتاب الليدي دراوور، حول «مانه ربه» بقولهما:

(مانه ربه)، واحياناً «مانه ربه كبير» (مانه العظيم)، ويوجد خلاف في الرأي حول معنى كلمة (مانه)، ويستعرضان آراء الباحثين في هذا الصدد(١٨).

إذ يميل «هوفمان» و«بالس» إلى أن معناه: (كساء)، ويطابقانها بالكسوة التعميدية، في حين يقول «براندت» إنها تعني «اناء» أو «أداة»، ويدعي «نولدكه» أن الكلمة من أصل إيراني. أما الدكتور «جولسون» فيقول إن «مانه القديمة»، تعني (العقل أو الفكر أو الروح) فهم يقولون: «فوهو مانه» أي (العقل النير) و«أكيم مانه» أي (العقل السلبي)، وهما حالتا «أوهورا مزدا» اللتان انتجتا العوالم الحقيقية والعقلية. ويقول «ماكدونل» في كتابه «الأسطورة الفيدية» (ص ١٦٦): «إن «الفيدا» قد قسمت القانون إلى «اسو» (أي النفس)، وتعبر الحيوية الطبيعية حتى لدى الحيوانات، وإلى «مانه» كمستقر للفكر والعواطف، وكانت تظهر في «ريكفيدا» مستوطنة القلب (هرد)، ويعطي أحد الكهان الصابئين أربعة معان لكلمة «مانه»:

ا- روح
ب- حمامة
ج- كساء
د- بيت

ويقول «جولسون» إن «مان» في الفارسية تعني «بيتا».

وكما ورد في الفصول السابقة عن الملائكة النورانيين (الأثري)، و(الخالق العظيم = ملك النور)، والجنة (عالم النور)، فإن «أثري» و «ملكي»: كائنات شبه إلهيه (موكلة) بحمل ارادة الحياة العظمى وتنفيذها. وهي تابعة للخالق وأول مظهر من مظاهر خلقه.

معروف أن «مردوخ» (كما تبين قصة الخلق البابلية) هو الذي خلق السماوات والأرض والكواكب والإنسان، ووزع واجبات المصير، وهو فوق تعدد الآلهة، وقد أشرنا إلى أسمائه الخمسين ونعوته المقاربة إلى الأسماء الحسنى في الإسلام، وفي المندائية، من حيث المعاني والجوهر. وكانت الآلهة الأخرى، عشتار، ايا، أنليل، ... إلخ، وهي آلهة (التخصص)، الموكلة بالأعمال، فهي للخير والشر والطاعون والموت، كما للخصب والنماء... الخ.

إن لكل منها واجبه الذي حدده (كبير) مجمع الآلهة (مردوخ).

في الإسلام، وفي **المعتقد المندائي**، **(كدين توحيد لكليهما)**، **يتحول (معنى) مجمع الآلهة، إلى عالم الملائكة، أو الملائكة النورانيين، الذين هم (رسل) الخالق الأعظم**، والموكلة بحمل ارادة الحياة العظمى وتنفيذها، فهناك **(جبريل)** كما هناك **(عزرائيل)**، وسواهما، فكل منهما له واجباته المحددة، ومن بينها النزول إلى الأرض على هيئة أشخاص لمحاورة الأنبياء والايحاء لهم بتنفيذ أوامر اللّه. إن تلك **(الكائنات)** الأثيرية، النورانية، تقوم بدور **(الوحي)** أحياناً.

والأساطير، التي تشير إلى مقتل «**تموز**» ونزوله **(غيبته)** في العالم السفلي، ثم **(عودته)** لبعث الخصب، ستة أشهر في السنة، ضمن دورة حياة يتبادلها مع **(عشتار)**، إنما هما معنى (الروح) وعودتها، معنى **(البعث)** ومعنى **(خلود)** الجوهر، حيث (الله)/ **الرب/ الخالق العظيم/** يقول للأشياء: كن ، فتكون، كونه «**القادر على كل شيء**».

من هنا تتوالد الأساطير حول **(غيبة) المسيح**، و**(صعوده) إلى السماء**، **ثم بعثه من جديد**، حيث سيكون **(المخلص)** مع **(الخضر)** و**(المهدي، صاحب الزمان)** و**(العزير..)**، **مثل تموز تماماً**، وحيث تجتمع حبات تلك الروايات (من معتقدات عدة) في نسق واحد، هو: **البعث**، **بعد الغيبة**، **وخلود الروح**، تماماً، كما أراد **كلكامش** أن يكون ويتحول من جانبه البشري إلى تمام الآلهة.

عند المندائيين، أثري وملكي، كائنات شبه إلهية موكلة بحمل ارادة الحياة العظمى وتنفيذها.

في المعتقدات الأخرى، كل نبي، مضحي، هو مخلص.

ومرات يكتسب مفهوم **(المناضل)** المعاصر، ويتعالق ويتنافذ مع مفهوم **(النبي)** أو (الرسول)، **صاحب العقيدة والرسالة**، في الأزمنة السابقة.

يشنق المسيح، أو أي مناضل أو يصلب: **سبارتاكوس**، أو يقطع رأسه: **يوحنا المعمدان**، **الحسين بن علي (ع)**، **علي بن محمد (صاحب الزنج)**، **ابن المقفع**، **الحلاج**، **(ماني البابلي)**، حيث يتحد مفهوم الفِداء، مع البعث: **تموز**، **المهدي المنتظر**، **المسيح في عودته**، وكل شهيد، في ديمومة ذكره: **وفاءً**، **أو طقوس عزاء**، **أو احتفالية** (من احتفالات الربيع وعودة الخصب البابلية في نيسان إلى ذكرى قيامة المسيح، أو استشهاد الحسين، أو استشهاد جيفارا، أو يوسف

سلمان (فهد)، أو أي معنى (رسالي) معتقدي، وحيث تتواتر الأساطير، وتتضخم الإضافات حول «**سيرة البطل**»، لأن كل «راوية» يضيف على جذر النص الحكائي، ما يحتاجه مجتمعه، وما تضغط عليه أوضاعه، أنه يرى في «البطل» ما يكمل «القصة الغائبة» أو المعنى الغائب، أو الفعل الغائب.

لذا لم تكن طموحات أبي الطيب المتنبي، شعرية، ولا (بطولات كلام) أو أطماع لإمارة (قطعة أرض)، بل هو أراد من تلك الإمارة، وقطعة الأرض، قاعدة لإعادة الفعل وجعله حاضراً، والفعل، هنا، هو «الارث» **الطالبي المغتصب**، بحسب إحالة نسبِهِ إلى سلالة الإمام علي، من زين العابدين بن الحسين، وكما يدعي «**النصيرية**» انتسابهم إليه، كذلك يدعي «العلويون» في الشام.

ابن الكوفة ذاك، لم يقتل بسبب (هجاء)، بل بسبب رسالته **المضمرة في طموحاته**، وحيث يحتضن «**تنظيماً**» سرياً، باطنياً، لم يعلن عنه، كما هو حال أغلب الحالات المطلبية لدى الطالبيين «الأئمة الإثني عشر»، مثلاً.

أو ربما يكون السيد المسيح الذي «صلب» أو «شبه لهم»، هو غير المسيح الحقيقي، حيث الثاني هو «**قائد**» **تنظيم سياسي فكري ضد رموز ذلك الزمن من حكام**، وحيث لم يشِ به «**يهوذا**» وهو أحد تلامذته ومريديه، بل ضحى (أحدهم) نيابة عن المسيح الحقيقي، كما «**الواشي**» هو فدية أخرى، كي تكتمل حبكة الخلاص، ويتحقق الفداء على صورة البديل، كما في قصة فداء إبراهيم الخليل بابنه **إسماعيل**، بحسب المصادر الإسلامية، وإسحق، بحسب التوراتيين، وأن «**الكبش**» هو البديل، الذي أرسله اللّه بعد امتحان إبراهيم في ايمانه ويقينه.

إن تلك الحالة، تتكرر مع الأزمنة، عند كل ثائر على الظلم، أو لدى كل صاحب رسالة ويقين. من هنا تتوالد القصص وتزداد الإضافات حول «سيرة البطل» الأسطوري، الشعبي، أو التاريخي، بحسب المكان والزمان، والصراع.

إنه في الخلاصة: **يلتقي مع توزيع مهام المصير وواجباته، في الحلقات الوسيطة، بين الخالق، وبين الرعايا. عبر الوسطاء: الرسل، أو الملائكة، أو المناضلين الثوار، أو الأئمة.**

من هنا خصصت المندائية للأثري معنى، كما خصصت للملكي **معنى آخر**،

إذ تعني «ملكا» ملكاً وليس ملاكاً، هنا. وهكذا يترجمها «ليدزباريسكي»، مع أن وظائف «الملكا» تشبه وظائف الملاك العبري، والملك في العربية، وهو الرسول أو الملك، فإن الصابئين يستعملون كلمة «ملاكيا» للدلالة على «الأرواح الشريرة» وبحسب بدوي وغضبان؛ يظهر في كتاب «أنوش» الذي يطعنان في صحته (إذ ليس بين كتب الصابئين كتاب بهذا الاسم، وانما هناك دعاء بهذا الاسم في كتاب «كنزا ربه») (ص: ١٥٧) تصور لكائنات سماوية ليست بعيدة الشبه بالصابئين، إضافة إلى امتلاكها لقوى موكلة بالظواهر الطبيعية كالسحب والبروج. وهؤلاء يظهرون في الكتب الصابئية بين الأرض المادية المظلمة وبين عالم النور النقي الأثيري، مباشرو الاتصال، كما يظهرون كتجسيد للصفات المجردة والقوانين لقوى الطبيعة المادية. وهم يشبهون «اليازاتات» في «الافستا» حيث يوجد «يازاتات» للعالم الروحي وآخرون للعالم الطبيعي، وهم يتحكمون في الطبيعة.

ويذكر «جوزيفوس» أن (الاسينين) قد استعاروا أسماء الملائكة للتصرف بها إضافة للغوامض الأخرى:

«إنه المهتدى حديثا يقسم أن لا يبوح بعقائدهم لأي شخص وبأية وسيلة كانت عدا الطريقة التي حصل هو بها عليها، وعليه أن يمتنع عن السرقة وأن يحتفظ بالكتب التي تعود إلى نحلتهم وبأسماء الملائكة»

ومن الخطيئة لدى الصابئين كشف أسماء «الملكي»، جمع ملكا، لفرد من غير دينهم، وهو عرف أو تقليد أو «قانون» يلتزم به بحزم كل من ينتظم في تنظيمات سرية، على تعددها وتنوعها، من تلك التي ظهرت أيام العباسيين، حتى «الماسونية» و«التنظيمات السياسية» في عصرنا.

كلمة «مَلَكْ» تطلق في (العامية العراقية) العربية على الأرواح الشريرة، أو الجني، أحياناً، وأحياناً تطلق على روح الآباء، أو الأحباء، أو المساعدين الذين يقدمون العون للإنسان، بحسب المناطق، والتعدديات الإثنية، ويرد «ملك طاووس» اليزيدي، أو «الملاك الطاووس» (أمير الظلام) في كتاب «دراشة اد يهيا» (كتاب يحيى) حيث يطلق اسم «طاوسه» على ملاك ينوح ويندب لأنه قد أخطأ بحق «الحياة العظمى»، وأنه سمح بكبريائه أن تقوده إلى العصيان.

إن كلمة «ملكي» لدى الصابئين، بحسب بدوي ورومي، تطلق عادة على

الأرواح الشريرة والطيبة بينما تطلق «اثري» على الكائنات النافعة اطلاقاً (١٩).

وتؤول كلمة «اثري» ومفردها «اثرا» بمقاربها اللغوي السرياني «يثري» أي «يغتني»، مع أن (ليدزباريسكي)، يترجمها، على أساس أن اختيارها تم لتجنب اللبس بأسماء الملائكة لدى اليهود والإسلام، فالمرجح اشتقاقها من معناها المجازي يمتلئ إلى أن يطفح.

ولا علاقة للفعل الصابئي (نثر) (ومعناه يطفح) أصلاً ذا علاقة بكلمة «أُثْر». ويذكر البروفيسور «روبرت سمث» في كتابه (أديان الساميين) اسم إله في الجنوب العربي يسمى (أثنا)، يتحكم في الري، ويقول: إن «عثاري» كانت تعني ما يروى من السماء ومن الينابيع (أراضي بعل). وهنا مصدر معنى أصيل لهطول المطر من السماء على الأرض، وهو يكتسب لدى الصابئيين صفة (الماء الحي) الآتي من (بيت الحياة)، وهكذا يكون معنى «اثرى»، بالأصل، أرواح الحياة التي تهب الخصب والغنى على شكل مطر وينابيع، وفي الأراضي القاحلة التي لا نبت فيها إلا حين تهطل أمطار الربيع، فإن رسلاً كهؤلاء هم حقاً «واهبو الحياة»، وأن حقيقة تسمية زوجات «الملكي والاثري» سحباً وقطرات (أنانيا ونطفتا) يلقي ضوءاً على هذا الرأي.

إن كلمة «آثري» كانت تطلق، أصلاً، على «الأرواح النورانية» وأنها أخذت معنى أوسع بالتدريج، وأن الاسم العربي لمجموعة: «الثريا»، النجوم، تصغير «ثروة»، وتعنى في الاعتقادات القديمة، بحسب (البيروني)، إن هذه المجموعة كان ينظر إليها كواهبة للمطر (٢٠).

إنها نظرة تتعلق بالمعتقد، التنجيم، الفلك، وهي عالقة في مغامرة العقل الأولى، منذ البدء الأثيري (العماء الأول) حيث الماء، وحيث (اللّه)، مردوخ، أو يهوه، استوى عرشه، بعد ستة أيام من الخلق، أي استوى عرشه في اليوم السابع، على الماء.

وهكذا، إذ كان على العرافة، منذ البابليين، استخدام التنبؤ بطريقة النجوم للتعرف على قرارات الآلهة والعمل، بشكل صحيح، وكان الملوك والقادة أول من حاولوا معرفة الأحداث السياسية المتعلقة بهم وببلدانهم وبمصائرهم الشخصية، عبر «الكواكب» والعرافة، ولا زال (أغلبهم) يؤمن بذلك، خارج حسابات العدل، والحريات، والديمقراطية، والكفالة الاجتماعية، حتى حل الحاسوب

(الكومبيوتر) محل (العرافة) و(المنجم)، لكن (بعضهم) لا يؤمن بحسابات العقل والعلم، بل يميل صوب «القدر» و«الجبرية».

وليس من الصعب إيجاد «كوديا» الحاكم السومري، الحكيم، أو نظيره في عصرنا، لكي يصف، مجدداً، على إنائين طينيين، كالمحفوظين في متحف اللوفر، رؤياه قبل إقدامه على تشييد الهيكل، فهو قد رأى الآلهة (نيسابا) العارفة بمعاني الأرقام، وهي تحمل لوح نجمة السعد لبنيان الهيكل، وهي النجمة المبشرة بالنجمة المقدّسة الضرورية لتشييد الهياكل.. وبعد أن توصل (كوديا) إلى تفسير حلمه استطاع آنذاك فقط أن يباشر بالعمل.

إن غريزة السببية لدى أبناء بلاد الرافدين، آنذاك، تجمع عين الأسباب إلى عين النتائج، وما (الشواذ) التي بوسعها أن تحدث في (النظام السماوي) سوى علامات لما يحدث من ازعاجات (مستقبيلة) في نظام الأمور، ولتأكدهم بأن (الحركات الخفية) للكواكب تحدد (طالع المصائر) البشرية، كانوا يميلون إلى دراسة مسارها باهتمام، وكان لهم الحظ الأوفر في الحصول على المشاهدة والرصد بفضل الأوضاع المناخية الفريدة والمعدات والدعم والمتابعة.

وكانت تقارير لفلكيين رسميين عديدين موقعة من قبل المسؤول، توجه إلى الملك في أعقاب الارصاد التي تتم، أحياناً، على طلب بيِّن، من الملك عينه، فنحن نلقى عن المشتري، وهو الكوكب الذي يرعى الملك، ما يأتي:

«اليوم السابع والعشرون من شهره، وهو يوم ثابت، هو ذا شئ عن كوكب المشتري الذي كتبت عنه سابقاً إلى سيدي الملك:

«في طريق آنو رأوه، لكنه كان منخفضاً. وفي الشفق، لم يكن واضحاً.

ولدى شروقه بان واضحاً تحت العربة الواقفة في طريق أنليل..».

إن تحديد «العربة» مكتمل، أما بشأن تحديد المشتري مول = ببار Mul Babbar الذي في طريق آنو، فهو لم يكتمل بعد، كما كتبت سابقاً لسيدي الملك، فليعلم سيدي الملك ذلك..».

إن الفلكي كان متحفظاً، وبكل فطنة يرشد الملك.

أما المثال الآخر فهو عن القمر:

«إلى الملك، سيدي، من خادمك رئيس مرصد الفلكيين في مدينة أربيل، سلام سيدي الملك، يا من يباركه نابو (إله الكتابة). مردوخ، وعشتار أربيل، لقد

قمنا في اليوم ٢٩ برصد، وبما أن الغيوم غطت المرصد، فإننا لم نر القمر» (٢١).

وصلت الدقة العالمية لحسابات الكلدانيين، فيما يخص الكواكب، إلى نتائج ملحوظة، أشار إليها بطليموس الذي تسلمها من هيبا رخيوس:

فإن ٥٧ فترة لزحل تعادل ٥٩ سنة

و ٦٥ فترة للمشتري تعادل ٧١ سنة

و ٣٧ فترة للمريخ تعادل ٧٩ سنة

و ٥ فترات للزهرة تعادل ٨ سنوات

و ١٤٥ فترة لعطارد تعادل ٤٩ سنة

وهكذا، ثمة كمية كبيرة من الألواح العائدة إلى مكتبة (**آشور بانيبال**) (**القرن ٧ ق. م**) هي أرصاد لشروق الزهرة وغروبها. وكان الاعتقاد بأن اختفاء الزهرة يرد رمزه في أسطورة نزول إنانا- عشتار إلى العالم السفلي، كونها: (عشتار)، إنانا، والزهرة من أسمائها، كما نوهنا، إنها العزى، أيضاً ونجمة السعد عند المندائيين.

تتنافذ العلوم، والإبداع، فلا غرابة.

وتماماً، كما ظهر للمندائيين علماء وشعراء في سالف الأزمنة، ظهر فيهم المبدعون في عصرنا.

جاء في كتاب (**في ظلال القرآن**) لسيد **قطب** (م ١ ص ٩٥) في تفسيره لما جاء في سورة البقرة عن الصابئين قوله:

«والصابئون الأرجح أنهم تلك الطائفة من مشركي العرب قبل البعثة، الذين ساورهم الشك فيما كان عليه قومهم من عبادة الأصنام، فبحثوا لأنفسهم عن عقيدة يرتضونها، فاهتدوا إلى التوحيد، وقالوا: إنهم يتعبدون على الحنيفية الأولى، ملة إبراهيم، واعتزلوا عبادة قومهم دون أن يكون لهم دعوة فيهم. فقال عنهم المشركون إنهم «صبأوا» أي مالوا عن دين آبائهم، كما كانوا يقولون عن المسلمين بعد ذلك، ومن ثم سموا بالصابئة، وهذا القول أرجح من القول بأنهم عبدة النجوم كما جاء في بعض التفاسير. والآية تقرر إن «من آمن بالله واليوم الآخر من هؤلاء جميعاً وعمل صالحاً فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون»، فالعبرة بحقيقة العقيدة لا بعصبية جنس أو قوم» (٢٢).

يفهم مما كتبه الباحثون والفقهاء والمفسرون المسلمون عن الصابئين أنهم

ليسوا على اتفاق فيما كتبوا عنهم، وإنما هي روايات وأقوال واجتهادات تختلف عن بعضها البعض كل الاختلاف، ونحن نؤيد أن يكون ثمة أقوام تسموا بالصابئة وهم الأحناف وأوائل المسلمين في بدء البعثة النبوية الشريفة ولكننا نميل إلى أن الذي قصده القرآن الكريم من كلمة (صابئين) إنما هو هذه الطائفة (المغتسلة) التي كانت تعيش في جنوب العراق منذ آلاف السنين، والتي لا تزال تعيش هناك إلى يومنا هذا.

إن (باطنية) الدين الصابئي وجهل مؤرخي العرب باللغة المندائية ومشاهدتهم بعض طقوس وشعائر الصابئين وشعائرهم، وهي غريبة عليهم حقاً، وتلقيهم كثيراً من المعلومات عن طريق المارقين عن الدين الصابئي الذين يحاولون تبرير مروقهم بشتى النعوت، ثم ظهور الحرانيين باسم الصابئيين وبروزهم في مقر الخلافة العباسية منذ القرن الثالث للهجرة، وحقيقة كون الحرانيين الصابئين عبدة كواكب ونجوم، كل ذلك أدى إلى هذا الخلط الكبير فيما يخص ديانة الصابئين الحقيقيين، أي (الصابئين المندائيين)، أو (صابئة البطائح) أو(المغتسلة).

وقد فطن الدكتور جواد علي إلى كون الصابئين طائفة خاصة لا دين خاص مثل اليهود والنصارى، وقال في رده على المفسرين بصورة عامة: «ولكن الذي يفهم من القرآن الكريم أن الصابئين جماعة كانت على دين خاص، وأنها طائفة مثل اليهود والنصارى، أي أن الكلمة مصطلح، ولها مدلول ومفهوم»(٢٣).

وفي الحقيقية فإن بعض المؤرخين والمفسرين الذين تصدوا للبحث في دين الصابئين أو لتفسير كلمة صابئين التي جاءت في القرآن الكريم قد تأثروا إلى حد كبير بصابئة حران الذين كان منهم، ومن الصابئين المندائيين الحقيقيين، المترجمون والأطباء والفلكيون في بلاط الخلافة العباسية، وقد كان الحرانيون الذين تسموا بالصابئين عبدة كواكب ونجوم فعلاً، كما جاء عنهم في كثير من الكتب التاريخية.

وليست العلاقة بين الحرانيين الصابئين وبين الصابئة المندائيين مجرد تسمية تجمع بينهما، بل إن ثمة علاقة تتصل بهجرة الصابئين الحقيقيين المندائيين من موطنهم في فلسطين بعد الميلاد إلى مدينة حران ومجاورتهم

للحرانيين هناك، ثم من تشابه بعض الأزياء التي كانت تتماثل إلى درجة كبيرة بينهما.

إن أدلة واضحة حول تاريخ الصابئين الأصليين المندائي توجد في كتاب (حران كوثيا) ونسخته الموجودة في مكتبة المتحف العراقي، وقد ترجم إلى اللغة الإنكليزية.

وهذا الكتاب عن (حران السفلى أو الداخلية)، المفروض أنه تاريخي، غير أن الحكاية فيه هي مزيج بين التاريخ والأسطورة والنبوءة حول كيفية هرب الناصورايي من اضطهاد اليهود لهم في أورشليم، وكيف بحثوا عن مأوى لهم في جبال ميديا (طور أد مداي)، ومدينة حران في تلك الجبال، وكيف أن مضطهديهم قد عوقبوا بتخريب أورشليم مما جعل نزوحهم وهروبهم بعد عام ٧٠ بعد الميلاد. وفي حران وجدوا إخواناً لهم في الدين، ومن هناك بدأت هجرتهم الثانية تحت رعاية الملك البارثي الصديق (أرطبانوس)، ويسمونه (أردوان ملكا) إلى القسم الأدنى من بلاد ما بين النهرين، حيث أقاموا لهم مركزاً في محل يدعى الطيب (طيب ماثه) بين واسط وعربستان.

ويتطرق الكتاب بعد ذلك إلى ذكر الفتح العربي لتلك الأصقاع، ويذكر أن وفداً من الصابئين المندائيين هؤلاء برئاسة أحد كبار كهنتهم المدعو (دانقا) قد ذهب لمقابلة القائد العربي وعرض عليه أمر الصابئين هؤلاء، وأن القائد العربي أقرهم على دينهم فأكسبهم ذلك التسامح الديني كأهل ذمة، وبقوا بين المسلمين يؤدون الجزية.

وتكمن أهمية هذه الوثيقة التاريخية في تأكيدها للروايات الشفوية التي يتناقلها الصابئون اليوم وهي أنهم هاجروا إلى موطنهم الحالي في العراق من حران وكانوا قبل ذلك في فلسطين (٢٤).

وفي بحثهما «تاريخ الأدب السرياني من نشأته إلى الفتح الإسلامي» ذكر الدكتوران مراد كامل ومحمد حمدي البكري: «اللهجة المندعية (المندائية) واسمها مشتق من الكلمة الآرامية: مدّعا، ومعناها المعرفة، ويسمى أصحابها بالصابئين المندعيين (المندائيين) وهم طائفة من القبائل الآرامية كانت تسكن منطقة الأردن ثم هاجرت منها إلى العراق» (٢٥).

وفي أوائل الحكم الوطني في العراق (١٩٢٠-١٩٢١) استدعت الحكومة

العراقية خبيراً مختصاً بعلم الأجناس هو الدكتور هنري فيلد، لدراسة سكان العراق من الشمال إلى الجنوب وقد تناول بالوصف خصائص الصابئة المندائيين:

إن لون الجلد يختلف من الوسط الفاتح إلى الأسمر النحاسي، وهناك من تأثر لونه بالمناخ فشابه عشائر (البو محمد) وبدو الجهات الشمالية الغربية من العراق.

أما شعرهم فيتميز بلونه الأسود الفاحم إلى البني، وهو خفيف، ونادراً ما نشاهد بينهم شعراً رمادياً قبل الأربعين.

يحتفظون بلحى مرسلة نتيجة لتقاليد دينية.

عيونهم غامقة شهلاء، كما أن عيون بعضهم سود غير غامقة، وبينهم من هم بعيون زرق أو خضر أو سود، جميلة وممتازة، وذلك يعود لكثرة تناولهم الأسماك.

٣٠٪ منهم من ذوي الأنوف مفلطحة. والسائد، امتلاكهم عند الكبر، أنوفاً كبيرة مستقيمة.

الشفاه طبيعية، وتشابه أسنانهم إلى حد كبير الأسنان الأوروبية في انطباقها، وهي جميلة، وبحال جيدة.

تمتلك النساء هيئات جميلة، وبعضهن جذابات في أشكالهن ولون شعورهن الأسود الفاتح مع تموجات قليلة، وعيونهن شهلاء، وأنوفهن مستقيمة أو محدودبة، متوسطة الطول.

مهدت بابل وفارس وميديا، ظروفاً طبيعية لنمو ديانات وعقائد وفقت بين التقاليد والشعائر القديمة وبين أفكار حضارات وفلسفات أخرى كالحضارة الصينية والفلسفة الدينية القديمة في الهند، وقد تمتع الصابئة المندائيون بحرية المعتقد، حتى ممن شغل وظائف بارزة في ديوان الخلافة العباسية كأبي إسحق إبراهيم بن هلال بن زهرون الصابي، الذي بقي كاتباً للإنشاء في بغداد، وصديقاً ملازماً للشريف الرضي، كما سنأتي على ذكره.

وأورد ابن النديم تراجم لأعلامهم من أطباء ومهندسين وفلكيين وأدباء ممن عاصروا الخلافة العباسية، وعاشوا ضمن المجتمع الإسلامي آنذاك.

وكان برز (جابر بن حيان) الذي اعتنق أجداده الدين الإسلامي بدلاً من

الدين الصابئي المندائي، ويعتبر من أبرز رجالات العرب المسلمين، واستحق لقب (**الكيمياوي**). قال عنه القفطي، إنه كان متقدماً في العلوم الطبيعية بارعاً منها في صناعة الكيمياء، له تآليف ومصنفات مشهورة حتى أن «**أبا بكر محمد الرازي**» يشير إليه في كتبه الخاصة بعلم الكيمياء بقوله «**قال عن أستاذنا أبو موسى جابر بن حيان..**»

وهو أول من وضع لعلم الكيمياء قواعد علمية اقترنت باسمه، وألف العديد من الكتب في الفلسفة حتى قيل إنها بلغت الـ (٣٠٠) كتاب، و(١٣٠٠) رسالة في صنائع مجموعة آلات الحرب، وكتاباً عظيماً في الطب، وألف كتاب الزيج اللطيف بنحو (٣٠٠) ورقة (٢٦).

أما الشاعر **زهير بن أبي سلمى المزني**، فقال عنه صاحب (**الأرب في معرفة أحوال العرب**) إنه عاش ومات على (**الحنفية البيضاء**) ملة سيدنا إبراهيم الخليل (أي كان صابئياً على الحنفية الأولى)، وقد أدرك الإسلام إبناه «**كعب وبُجير**» ولم يدركه هو.

قال الإمام **أحمد** بن زيد **الشيباني** المعروف بـ «ثعلب» فيه: اخبرنا أبو الفضل محمد بن الناصر السلامي عن أبي زكريا يحيى بن علي التبريزي عن محمد الحسن بن محمد الدهان عن أبي الحسن علي بن عيسى الرماني عن أبي بكر أحمد بن موسى عن أبي العباس أحمد بن يحيى بن زيد– ثعلب: أن أهل بيت زهير كانوا من مُزينّة، وكان بنو عبد الله بن غطفان جيرانهم.

وكان من أمر أبي سُلمى، واسمه ربيعة بن رياح، وهو ابن أخت لأسعد بن الغدير بن سهم بن مرة بن سعد بن ذبيان بن بغيض، وقد اختلف ربيعة مع خاله أسعد على غنيمة أصابها الخال وابنه كعب من غارة على «طي»، ولم يفردا حصة ربيعة فرحل وأمه إلى أهله بني مزينة، ولبث فيهم حيناً ثم أغار بقومه على خاله أسعد وقومه غطفان.

قال عنه **أفرام البستاني**: **زهير بن أبي سلمى**، واسم أبيه ربيعة بن رياح بن قرة بن الحارث من مزينة، وتزوج رياح من امرأة من بني فهر بن مرة من غطفان فأقام فيهم.

كان صاحب المعلقات في سوق عكاظ، أبوه كان شاعراً وخاله شاعراً وأختاه سلمى والخنساء كانتا شاعرتين، وكانت سلمى أكبرهن فسمي بابي

سلمى، فأما الخنساء فهي ليست تماضر أخت صخر شاعرة العرب المشهورة، وحتى زوج أمه (أوس بن حجر) كان شاعراً، والذي تزوجته بعد وفاة ربيعة أبي سلمى، وهو الذي اعتنى بتربية زهير.

تزوج زهير بامرأة تكنى بأم «أوفى» فأنجبت له أولاداً ماتوا كلهم فتزوج بأخرى واسمها «كبشة» بنت عمار من غطفان وهي (أم ابنيه كعب وبجير)، فغارت أم أوفى من ضرتها كبشة حتى طلقها ولازمه الحنين. وكان نجلاه كعب وبجير شاعرين، أيضاً، وقد اشتهر كعب في قصيدته «بانت سعاد»، وقد أدركهما الإسلام فأسلما، وكان إبن ابنه (المضرب بن كعب) شاعراً وإبن حفيده (العوام بن المضرب) شاعراً. وكان على عكس أبناء قومه، يظهر بمظهر المتقين الحكماء، رزيناً، متروياً، ناصحاً بما فيه الخير والسلام، فاكتسب احترام قومه، واتصل بأشرافهم بمدحهم وهم يصلوه حتى كثر ماله فكان يعيش عيشة السيد الحليم الوقور، وكان مشهوراً في الورع، وقد حث ولديه على اعتناق الإسلام ومؤازرة من يجيء به لحلم رآه قصّه على أولاده وكأنه عالم بمجيء محمد (ص).

كان يخالف قومه في العبادة، كعادة عقلاء العرب قبل الإسلام، أمثال زيد بن عمرو بن نفيل بن عبد العزى بن كعب، وقال فيه (ابن قتيبة) إنه كان «يتأله»، ويتفقه في شعره، إذ يدل شعره على إيمانه بالبعث والحساب كما في قوله:

فلا تكتمن اللّه في صدوركم ليخفى
ومهما يكن، يكتم اللّه يعلم
يؤخر فيوضع في كتاب فيدخر
ليوم حساب أو يعجل فينقم

فاستنتج الأب (شيخو) من هذا أنه نصراني، إلا أن بلوغ الإرب في معرفة أحوال العرب لمحمود شكري الآلوسي البغدادي، والشيخ محمد بهجت الأثري يذهبان إلى أنه عاش ومات على «الحنفية البيضاء».

وقد روي أنه كان يصرف أربعة شهور في نظم القصيدة وينقحها في أربعة شهور أخرى ويعرضها على أخصائه في أربعة شهور، فلا ينشرها إلا بعد سنة، ولهذا تسمى قصائده بالحوليات (أي كل واحدة تستغرق حولاً كاملاً)، وقد تغنى زهير بن أبي سلمى كثيراً في مديح من أخمد نار الحرب بين داحس

والغبراء، وتوسط الصلح بين خصومهما عبس وذبيان، وذم من غدر منهم بعد الصلح، حيث انتهت حرب داحس والغبراء سنة ٦٠٨-٦١٠، ومما قاله، بعد أن بلغ الثمانين من عمره:

«سئِمت تكاليف الحياة ومن يعش

ثمانين حولاً لا أبالك يسأمِ»

ونقل صاحب الأغاني، عن آخر حياة زهير، أنه كان نظاراً متوقيا اللّه منذ رؤياه الحلم الذي أخبر به إبنيه وأوصاهما بصاحب الرسالة (ص)، توفي عام ٦١١م. أسلم إبناه بعد سنة ٦٣٠م، بعد أن أنشد كعباً قصيدته المشهورة في مدح النبي، «**بانت سعاد**»، والتي سميت «**بالبردة**»[٢٧].

أما (**قس بن ساعدة الأيادي**)، فهو أسقف نجران وشاعر العرب وخطيبها وحليمها، وأول من قال: «**البَيِّنة على المدعي واليمين على من أنكر**»، وأول من اتكأ عند خطبته، على سيفٍ أو عصا، وأول من كتب: (من فلان إلى فلان). أدركه الرسول محمد (ص) ورآه بعكاظ، وكان مؤمناً بالله والبعث والحساب، وعلى دين التوحيد بمكة.

وسأل عنه الرسول محمد (ص) مرة، فأجاب المسؤول عنه، وهذا من بعض ما وصفه به:

«**هو أول من تألّه من العرب وتعبد من تعبد في الحقب وأيقن بالبعث والحساب وحذر من سوَد المنقلب والمآب، ووعظ بذكر الموت وأمر بالعمل قبل الفوت. الحسن الألفاظ، الخاطب في سوق عكاظ، العارف بشرق وغرب، ويابس ورطب وأجاج وعذب...**».

فقال الرسول (ص): «يرحم الله قساً إني لأرجو أن يبعث يوم القيامة أمة واحدة».

وله خطبة مشهورة قال فيها:

«**أيها الناس، اسمعوا وعوا، من عاش مات، ومن مات فات، وكل آت آت، ليل ساج ونهار سراج وسماء ذات أبراج، ونجوم تزهر وبحار تزخر وجبال مرساة وأرض مزجاة، إن في السماء لخبراً وإن في الأرض لعبراً، ما بال الناس يذهبون ولا يرجعون، أرضوا فأقاموا، أم تركوا فناموا**».

ومن حكمه: «**من فاته حسب نفسه لم ينفعه حسب...**»

وكان من المعمرين، وقد اختلفوا في سنه، وقيل إنه توفي في قرية روحين «قريبة من حلب وفي لحف جبل»[٢٨].

وطرفة بن العبد، من أصحاب المعلقات في الجاهلية، كان من قوم ينزلون البحرين فولد هناك، وهناك قتل. ولد سنة ٥٤٣م وقتل على يد عمرو بن هند ملك الحيرة سنة ٥٦٩م، حسبما جاء في رثاء اخته «الخرنق»:

إذ قالت:

«عددنا له ستاً وعشرين حجةً
فلما توفاه استوى سيداً ضخما
فجعنا به لما رجونا إيا به
على خير حال لا وليداً ولا قحما»

فسماه البعض: الغلام القتيل، وسماه غيرهم: ابن العشرين، لأنه عاش (٢٦) عاما، غلب اسم طرفه على اسمه الحقيقي لشعر قاله في شجر الطرفاء.

كان مقراً بتوحيد الربوبية والألوهية ناهجاً نهج من اعتنقها وليس يهودياً ولا نصرانياً لاختلافه عنهم. إنه صابئي مندائي موحد، وهذه ما روته أساطير المندائيين عن رواتهم القدامى، وكانوا يحفظون من شعره. وله المعلقة الثانية بين معلقات سوق عكاظ السبع، وهي دالية على البحر الطويل، اهتم بها الأدباء وعلماء اللغة اهتماماً كبيراً، وكان عدد أبياتها ١٠٤ بيتاً:

«لخولة أطلال ببرقة ثهمد
تلوح كباقي الوشم في ظاهر اليد
وقوفاً بها صحبي لعل حطيم
يقولون لا تهلك أسى وتجلّدِ»

اختلف مع أعمامه لعدم إنصافهم أمه بعد وفاة أبيه رغم ثرائهم، فهجاهم وبحث عن قوم يعيش بينهم فاتجه نحو الحيرة، حيث ملكها عمر بن هند، ومن جلاسه المقربين صهر طرفة (عبد عمر بن بشر) وخال طرفة (جرير بن المسيح) المعروف بالملمّس أخو (وردة).

أما طرفة فأنس به عمرو بن هند كثيراً وبشعره، وأنعم عليه، ثم اختلفا فنقله وخاله إلى مجلس أخيه قابوس بن هند، ولقسوته عليهما هجاه طرفة بن العبد، فأضمر لهما عمرو بن هند وزودهما بكتاب وقال لهما اذهبا إلى البحرين حيث هناك عاملي «أبو كرب ربيعة بن الحارث» لأخذ جوائز كما منه، فشعر المتلمس في الطريق بالمكيدة فقرأ له أحد غلمان الأعراب كتابه فعرف

مضمونه بالقتل، ولكن ابن أخته (طرفة) أصر على مواصلة الطريق دون أن يلحق به خاله، فوصل أبا كرب، وحين اطلاعه على المضمون قال لطرفة: انج بنفسك، إذ تربطني وإياك صلة قرابة الخؤلة، فرفض طرفة، فكتب العامل إلى الملك بأنه لا يجسر على قتل الشاعر لصلة القربى بينهما من جهة ولمنزلته من حيث أبيه من جهة أخرى، فهو من أشراف قريش. لكن الملك الغاضب إمعاناً في غيضه أرسل عاملاً آخر فقتل طرفة وأبا كرب معاً.

وهكذا انتهت حكاية شاعر نابغة عظيم، قال الشعر منذ نعومة أظفاره، وعلقت أحد فرائده ضمن المعلقات، وهو ابن ست وعشرين عاماً فقط.

ولد طرفة في بيت اشتهر بالشعر، كالشاعرين المرقش الصغير والمرقش الكبير وغيرهما من بني بكر بن وائل، إضافة إلى خاله (جرير) شاعر العرب المشهور (٢٩).

ومن بين أعلام الصابئة ومبدعيهم: **زيد بن عمر بن نفيل**، وأمه (**جيداء**) بنت خالد بن جابر بن حبيب. اتفق، هو وعبيدالله بن جحش بن الحويرث بالرأي والعقيدة، وتعاهدا على نبذ عبادة قومهم (الوثنية) وتصادقا على دين التوحيد، وعلى طقوس المندائيين ومشاعرهم، كما نحا نحوهما شاعر العرب الشهير امرئ القيس، والراهب المعروف (بحيرى الراهب) والشن، وكانوا على دين التوحيد (٣٠).

أما **ثابت بن قرة (أبو الحسن، بن زهرون)**، فقد ولد سنة ٢٢١هـ، وتوفي سنة ٢٨٨هـ، وله من العمر ٦٧ عاماً، وكانت مهنته (الصيرفة) لكنه برع في مهنة الطب والفلسفة، وألف أكثر من ٢٠ مؤلفاً، بعد انتقاله من حران إلى بغداد.

يقول **يوسف نجاتي**: عندما كان في حران كان من أعيان عصره، وحدث بينه وبين صابئة حران خلاف في المذهب فرفعوا أمره إلى رئيسهم فأنكر عليه مقالته ومنعه من دخول (المعبد) فتاب وعدل عن رأيه ثم أعاد مقالته، فمنع من الدخول ثانية، فهاجر من حران ونزل في (كفر توثا)، وهي قرية في الجزيرة الفراتية، وبقي فيها إلى أن قدم (محمد بن موسى) راجعاً من بلاد الروم إلي بغداد فاجتمع به فرآه فاضلاً فصيحاً فاستصحبه معه وأنزله في داره، وأوصله إلى (**الخليفة المعتضد**) العباسي، فأدخله في جملة المنجمين، وكان لمحمد وأخيه محمود أبناء موسى مرصداً للفلك خاصاً باسميهما، وهو

أول من أدخل رئاسة الصابئة في بغداد في البلاط العباسي، وكان يعامل معاملة الصديق لمكانته السامية عند (المعتضد) الذي يخاطبه بالأستاذ، وقد أنجب سلالة غاية في علوم الطب والرياضة، وهو خال (هلال بن المحسن بن إبراهيم) صاحب ديوان الإنشاء في العهد العباسي، وله مؤلفات منها: (كتاب حساب الأهل، ورسالة في سنة الشمس، وكتاب وجع المفاصل والنقرس، ورسالته في مرض الجدري والحصبة، وفي البياض الذي يظهر في اليدين، وفي الحجة المنسوبة إلى سقراط، وفي الحصى المتولد في المثانة، وفي سبب ملوحة مياه البحر، وكتاب عن جالينوس في أدويته المفردة). وقد ترجم كثيراً من كتب علوم اليونان إلى العربية، وعالج مرة الشاعر «السري الرفاء» فشفي على يديه (٣١).

ويلغ إبراهيم بن ثابت بن قرة، رتبة أبيه في الطب، أما سنان بن ثابت بن قرة (أبو سعيد) فكان طبيباً متقدماً كأبيه، وكان طبيب (المقتدر) ثم خدم (الظاهر)، ولشدة إعجاب الخليفة به أراده أن يدخل الإسلام فعز عليه دينه وامتنع كثيراً فهدده، فانهزم إلى خراسان ثم عاد إلى بغداد وتوفي مسلماً سنة ٣٣١هـ، وكان يقوم بامتحان من امتهن الطب وإجازة من ينجح، وكانت له رئاسة المستشفيات يعين فيها من هو مقتدر، لا سيما زمن الوزير «علي بن عيسى بن الجراح»، فاقترح الوزير عليه أن يجهز الأطباء بالأدوية ويطوفوا بالسواد ويقيموا في كل صقع منه مقدار ما تدعو الحاجة ليعالجوا الناس، ثم ينتقلوا إلى غيره، ففعل سنان، وانتهى الوفد الطبي إلى «صور وكان يعالج أهل الذمة، ويمارس الطب البيطري، أيضاً». وله رسالة في أخبار أجداده وآبائه، والعديد من الرسائل منها شرح مذهب الصابئة. ونقل (نواميس هرمس) وشرحها مع السور والصلوات. وتميز جداً في الفحوص السريرية لأمراض الحصبة والجدري وغيرها (٣٢).

أما إبراهيم بن سنان بن ثابت بن قرة، ويكنى (أبا إسحق) فقد توفي مبكراً وكان فاضلاً في علم الهندسة والرياضيات، وله كتاب تفسير للمقالة الأولى من المخروطات وآخر عن أغراض كتاب المجسطي. وله أخ يعرف باسم (أبو الفضل بن سنان بن ثابت)، أما ثابت بن سنان بن قرة، فكان صابئي النحلة لم يغير دينه، عاصر معز الدين بن بويه، وكان طبيباً عالماً نبيلاً يقرأ عليه كتب

بقراط وجالينوس، وكان فكاكاً للمعاني، وقد سلك مسلك جده ثابت بن قرة في نظرة الطب والفلسفة والهندسة فجمع (**الصناعات الرياضية**) للقدماء، وله تصنيف في التاريخ أحسن فيه، ويكنى «أبا الحسن» توفي في «ذي القعدة سنة ٣٦٥هـ، ومن أحفاده (أبو الحسن بن أبي الفرج بن أبي الحسن ثابت بن قرة) (٣٣).

ويعتبر آل زهرون، من أشراف حران وتميز بينهم (**حيون الحراني المنطقي**)، وكان مثرياً يمتهن الصيرفة، أنجب زهرون الذي انتهج في حران نهج والده، وقد أنجب إبراهيم (إسحق) وهو من أبرز مجايليه في الطب والعلاج النباتي، الذي ورثه من أجداده (**سلالة الأخليمو، الآراميين، أي البدو**). وزاد على أهله عزاً في مهنة الطب، مات بعد أن أنجب ثابتاً أبا الحسن وأبا الخطاب وهلالاً، حيث ذكر المؤرخون من هؤلاء الأخوة ثابتاً، لما تميز به من حذق في الطب وقال عنه هلال الصابئي بن المحسن: إن الوزير ابن بقيه في وزارته لعز الدولة بختيار بن معز الدولة أحمد بن بويه، شفي على يده من علة كادت أن تؤدي بحياته، كما أنه عالج كثيراً من أعيان الدولة ونالوا الشفاء على يده، أمثال: (أبو عبدالله بن أبي الحجاج، وأبو العباس بن المنجم). وقال عنه أبو الحسن بن أبي الفرج بن أبي الحسن بن سنان، وكان مجبراً وحيداً في زمانه قال: حدثني أبو الحسن أبي في دار محمد المهلبي الوزير، والذي كان قد عرف أمراضاً ما، فعالجه عن طريق المعاينة والتشخيص بجس النبض ومشاهدة ما في المريض من أوجاع وعلامات ونتائج، وكان يأمر بالفصد في بعض الحالات، وله عدة كتب منها (**في اختصار جالينوس في الأغذية، وفي صفة كون الجنين، وفي مسائل الطب العليل، وفي أجناس ما توزن به الأدوية**، كما له في الهندسة والفلك كتاب **في طبائع الكواكب** وتأثيراتها، وفي مساحة الأجسام المتكافئة. كما أن له رسائل عدة في شرح مذهب الصابئة (بالسريانية)، وفي تكفين الموتى ودفنهم، وفي اعتقاد الصابئين، وفي الطهارة والنجاسة، ورسالة في ترتيب الصلوات، وصلوات الابتهال إلى الله (٣٤).

ومن مشاهير الصابئة المندائيين: **إبراهيم بن هلال**، المعروف بـ (**الرئيس أبو إسحاق الصابئي صاحب ديوان الرسائل**)، وهو: إبراهيم أبو إسحاق بن هلال بن إبراهيم بن زهرون الصابئي الحراني، ولد سنة ٣١٣ هـ. وهو صاحب ديوان الرسائل المشهور والنظم البديع. أصل سلفه من حران، نشأ وتأدب في

بغداد، استهواه الأدب وحفظ القرآن واستعمله في مكاتباته وانشائه في البلاط العباسي، «وكان بليغاً في صناعة النظم والنثر، وله اليد الطولى في علم الرياضيات، وخصوصاً الهندسة والهيئة».

ولما عزم (شرف الدولة بن عضد الدولة) على رصد الكواكب ببغداد، اعتمد في ذلك على يحيى بن رستم القوهي، وكان في من يحضره من العلماء بهذا الشأن: إبراهيم بن هلال الصابئي، وكتب خطة في المحضر بصورة الرصد وإدراك مواقع الشمس من نزولها في الأبراج، وله مصنف بخطه في المثلثات، وله عدة رسائل في أجوبة ومخاطبات لأهل العلم، لذا يعتبر من العلماء، إضافة إلى كونه من أدباء عصره.

اختلفت به الأيام، ما بين رفع ووضع، وتقديم وتأخير، واعتقال وإطلاق، في الرفعة والتقدم وصل درجة يلقب بها بصاحب ديوان الإنشاء، وهي وظيفة رفيعة يلقون فيها الخلفاء إليه بأسرارهم ويخصونه بخفايا أمورهم، وكان يخاطب بالأستاذ الرئيس، كاتماً للأسرار أميناً، يسلم المكاتبات الواردة مختومة فيفضها عند الخليفة وهو يأمر بتنزيلها والإجابة عليها، اشتغل معه حفيده (هلال بن المحسن) حتى اتقن أمور البلاط بعد وفاة جده.

قال الثعالبي، في «يتيمة الدهر»: سمعت أبا منصور سعيد بن أحمد، ببخارى يقول: إن أبا إسحق الصابئي كان في نساك أهل دينه المشددين في ديانته في محاماته على مذهبه وتصونه عما يدعو إليه الهوى.

وقال: حدثني أبو نصر سهل بن المزربان، أن الصابئي حضر يوماً مائدة المهلبي فامتنع عن الأكل لباقلاء كانت عليها حمام، لأنه يحرم على الصابئة ما كان على السمك ولحم الخنزير ولحم الجمل والفراخ والجراد، فقال المهلبي: لا تبرد وكل معنا من هذه الباقلاء، فقال: أيها الوزير لا أريد أن أعصي اللّه في مأكل. فاستحسن ذلك منه.

وقد ذكر الثعالبي: تصنيف كتاب التاجي وما جرى له منه، وذكر ما دار بينه وبين صديقه من محبة في ج١ ص ٢١٥.

لقد وصف الرئيس إبراهيم أبو إسحاق الصابئي، صاحب ديوان الرسائل: رسوم دار الخلافة عادات وتقاليد متبعة في مقابلة الناس أو معاملاتهم في شؤون الألفة ومقابلة الملوك وعظام رجال الدولة.

ومفرد هذه (الرسوم) رسم، الذي يعرف عندنا الآن بـ «المراسيم»، وعند الغرب: «البروتوكول» أو « الإتكيت ».

وقد أتى الصابئي على تفاصيل دقيقة عن الخلفاء، مواكبهم، وما يقع في مجالسهم، وكيف كانت تسير الأمور بحضورهم، ومكالماتهم ومقابلتهم ومسايرتهم ومناداتهم. ومن كلمة الرسم، أيضاً، جاءتنا كلمة «**الرسمي**»، سواء أكان اجتماعاً (رسمياً)، أو (دائرة رسمية)، أو كل شيء حكومي يطلق عليه رسمي، ومنها أُخذ «**المرسوم الجمهوري**».

وقد وضع لنا الصابئي في كتابه: لماذا يمشي رئيس التشريفات بالمقدمة أمام موكب رئيس الدولة، سواء أكان رئيساً أو ملكاً ومن معهم من ضيوف، من الملوك والرؤساء.

وقد سار عليها حفيده هلال الصابئي بن المحسن، وقال إنه كان يرى والده في أسفاره مع **المعتضد بالله العباسي** إذا استدعاه إلى مسايرته يخرج عليه (بما يساوي الآن رئاسة التشريفات)، فظن أنه فعل ذلك سهواً، فسأله عن السبب فقال «يا بني، إن من الأدب المأخوذ على من أَهلّه الخليفة لمسايرته ومطاولته في مواكبه، أن يخرج عليه في المسايرة شيئاً يسيراً كما ترى، فعل، ليكون هو الملتفت إليه ولا يكلفه الالتفات، حتى إذا انقضى ما يخاطب فيه، وأراد التباعد عنه تقدم وكان في أوائل موكبه، حتى إذا احتاج إليه استدعاه من أمامه ولم يتجشم الخليفة التوقف على انتظاره.

ومن أدب المسايرة للخلفاء والرؤساء أن يكون التابع سائراً من تحت الريح ليكون الرئيس في أعلاه، وأن يأخذ، أيضاً، الجانب الذي يواجه الشمس ليكون الخليفة أو الرئيس مستدبراً له.

وقد رثاه صديقه الحميم الشريف الرضي بعد وفاته بقصيدة عنوانها «جَبَلٌ هوى» مطلعها:

«أعلمت من حملوا على الأعواد
أرايت كيف خبا ضياء النادي
جبل هوى لو خرَّ في البحر اغتدى
من وقعه متتابع الأزباد
ما كنت أعلم قبل حطك في الثرى
أن الثرى يعلو على الأطواد»

كما رثاه الشريف المرتضى، شقيق الرضي، بقصيدة عنوانها «ما كان يومك» مطلعها:

«ما كان يومك يا أبا إسحاق
إلاّ وداعي للمنى وفراقي
وأشد ما كان الفراق على الفتى
ما كان موصولاً بغير تلاقي»

حتى يقول:

«من ذا نضا عنا شعار جمالنا
ورمى هلال سمائنا بمحاق» (٣٤)

وهلال الصابئي (٣٥٩-٤٤٨هـ) ولد في بغداد ومات عن ٨٩ عاماً ودفن في داره بالكرخ، وأسلم وله من العمر ٤٤سنة. يعتبر أول من دخل الإسلام من آل زهرون، وكان رأى في المنام رسول اللّه محمد (ص) مرتين، فدعاه إلى الإسلام، وأكد عليه، «ويروي ابن الجوزي هذه القصة بتفاصيل أخاذة، ويضيف أن زوجته شَكّتْ بإسلامه لكثرة تردده إلى أهله وذويه من الصابئة، فجاءها طيف الإمام علي (ع) وطمأنها فايقنت».

وكان سبب تردده على أهله أنه لم يسلم رهبة ولا طمعاً بجاه أو مال أو منصب، وقد رفض الهدايا التي جاءته بعد إسلامه من الوزراء والأمراء، قائلاً: إنني لا أريد أن أخلط بين الدنيا والآخرة، وكتب مصحفاً بخط يده، وصان إسلامه..

وكما ذكرنا، فإن الفضل يرجع في تعليم هلال فنون الكتابة وأصول البلاغة إلى جده أبي إسحاق، وكان هلال كاتم أسرار (فخر الملك أبي غالب محمد بن علي بن خلف) وزير «بهاء الدولة»، وأصله من واسط، فاسهب هلال في ذكره واستوفى أخباره وحياته، وكان يساعده بذلك «صابئي آخر» اسمه علي بن سعيد بن عبد الرحيم..

وقد خلف لإبنه أملاكاً على «نهر عيسى» (المعروف بالعهد العباسي)، وكان يعرف باسم نهر (اهرادوا) في العهد الآشوري، وبنهر (الحوقل) في العهد البابلي، وهو «نهر الخر» أو «الخير» حالياً. وأنفق عليه، وكتم أمره على أولاده فظنوا بتركته أنها تقدر بألف دينار، ثم عثروا على مذكرة تشير إلى

موضع «الدفين» في داره، فنقبوا عنه فوجدوا (١٢) ألف دينار، فاقتسموها.

سمع من مشاهير النحاة، فتأدب عليهم، فنبغ في علمه وأدبه، وكان شاعراً، أيضاً، توثقت علاقته بالشريف المرتضى نقيب العلويين.

مرض عام ٤٣٦هـ فعالجه (أبو الحسن ثابت بن سنان) فشفي على يده، وعاش بعدها حتى مات ليلة الخميس ١٧ رمضان سنة ٤٤٨هـ، ودفن في داره في البستان الزاهر المطل على دجلة.

له مؤلفات عديدة، منها كتاب أخبار بغداد، والأمثال والأعيان، والتاريخ (بأربعين مجلداً)، وتحفة الأمراء في تاريخ الوزراء، ورسوم دار الخلافة، وكتاب السياسة، وكتاب الرسائل، وغرر البلاغة.

وله كتاب في مآثر أهل بيته ضمنه معلومات قيمة عمن نبغ منهم في العلم والأدب والسياسة، وقد ضاعت هذه المؤلفات مع غيرها من آلاف الكتب عندما أحرق المغول (دار الحكمة) التي أنشأها هارون الرشيد، فاتلفوا كتبها(٣٦).

خلف هلال بعض البنين اشتهر منهم: أبو الحسن محمد غرس النعمة، الذي نشأ في كنف أبيه ورعايته وعنه أخذ العلم، وقضى بعض الزمن في دار الإنشاء للخليفة القائم بأمر الله العباسي.

ذكر عنه (سبط بن الجوزي) بأن سنة ٤٤٨هـ كانت بدايته في التأليف، ولكن أعماله ضاعت كما ضاعت غيرها، ما خلا كتاب «الهفوات النادرة».

توفي عام ٤٨٠هـ، ودفن في شارع ابن أبي عوف، ثم نقل إلى مشهد الإمام علي بن أبي طالب (ع) في النجف الأشرف، ومن أحفاده أبو علي الكاتب وأبو الحسين بن إسحاق صاحب ديوان الإنشاء أيام المستضيء بالله العباسي، وله عدة مصنفات (مات سنة ٦١٩هـ).

وثمة جماعة من المندائيين، اشتهر منهم: علي بن سعيد بن عبد الرحيم من معاصري هلال الصابئي، وأبو نصر الذي اشتهر بالطب، والبتاني، وأبو الفرج، وأبو سعيد.

وهذا ما جاء في «هفوات نادرة» لمحمد غرس النعمة، كما أكد د. مصطفى جواد، في تحقيقه له.

كما بزغ في الطائفة بالعراق المعاصر، علماء وشعراء وجامعيون وباحثون وأطباء وفنانون ومهنيون ممتازون.

وكان من أعلامهم الدكتور العالم عبد الجبار عبد الله (ابن الشيخ عبد الله بن الشيخ سام)، ولد في قلعة صالح في مدينة ميسان (العمارة) في ١٤/١١/١٩١٢م، وأكمل دراسته الابتدائية في قضاء (قلعة صالح)، والمتوسطة في مركز العمارة، والكلية في بغداد فالجامعة الأمريكية ببيروت، ثم الدكتوراه في الفيزياء بأمريكا. وافاه الأجل في أمريكا في ١٢/٧/١٩٦٩م ونقل جثمانه إلى بغداد، ودفن في (أبي غريب) حيث مقبرة الصابئة.

وكان إلى جانب تخصصه في علوم الفيزياء والرياضيات، ميالاً إلى الأدب محباً للشعر الجاهلي، ويتقن لغات عدة: كالإنكليزية والفرنسية والألمانية والمندائية والعربية. كما له اطلاع واسع في الفلسفة الإسلامية والتاريخ العربي الإسلامي.

له آراء قيمة تخص الجامعة وكيفية الأخذ بها وتطويرها، نشرت بعض آرائه وبحوثه في الصحف والمجلات العراقية والأجنبية، أكد على أهمية البحث العلمي والبحوث التطبيقية، وعلى التكنولوجيا وأهميتها. وأعطى أهمية كبرى للمختبرات والمطبوعات التي تنقل أحدث ما توصل إليه العلماء في أرجاء المعمورة. شغل منصب رئيس جامعة بغداد في أوائل العهد الجمهوري ثم تعرض إلى الاضطهاد والاعتقال، وحال إطلاق سراحه رحل إلى ذات الجامعة التي تخرج فيها، وشغل هناك كرسي أستاذ حتى وفاته.

وتميز من الصابئة المندائيين، الباحثان نعيم بدوي وغضبان رومي، ومن أشهر شعرائهم المعاصرين: لميعة عباس عماره، وعبد الرزاق عبد الواحد، ومن بين أبرز الأسماء البحثية، في التأليف والترجمة د. ناجيه المراني. ومن صحفييهم اللامعين: عزيز سباهي، وهمام المراني.

إلى جانب من اشتهر بينهم في المسرح والسينما كالفنان مكي البدري، وفي النحت والرسم، كالفنانين: يحيى الشيخ، وخلود سيف، وغالب ناهي، وسوسن سلمان، وفيصل السعدي. واشتهروا في الغناء «بطور الصبي». لكنهم جميعاً يجيدون المهنة المتوارثة عن الأجداد: صياغة الذهب والفضة والتطعيم بالمينة، فقد اشتهروا بصناعة السيوف والخناجر والنخلة العراقية من الذهب الخالص، حيث تهدى أعمالهم إلى الملوك والرؤساء الذين يزورون العراق. وقد فاقوا، في هذه المهنة، مهارة اليهود، حيث تميزت أعمالهم بالنكهة العراقية

الخالصة المستلهمة من الآثار والشواهد المعمارية والتراثية الأصلية، التي صنعوا نماذجهم تجسيداً لها: كأسد بابل، وقيثارة أور، ومسلة حمورابي، وملوية سامراء، وطاق كسرى (المدائن) إلى جانب: النخلة، الجامع، الزورق، النهر، بيت القصب، الجمل، السفينة الشراعية، والدلة العربية مع طاقمها من الفناجين والصينية.

كما تفننوا في صياغة الحلي والخواتم، والأساور والقلائد والأقراط والأواني وإطارات المرايا والصور.

وابتداءً من سقوط بغداد على أيدي المغول وحتى الحرب العالمية الثانية تعرضوا للاضطهاد والعنت، وانتشروا بين العشائر في جنوب العراق، واهتدوا إلى المهن التي رأوا أصلحها لمحيطهم الاجتماعي، فمنهم من اختص بالنجارة وصناعة الزوارق على اختلاف حجومها، وهي صناعة توارثها سكان العراق في الأهوار أباً عن جد من السومريين ولغاية يومنا، كما تميزوا بصناعة النواعير، ومنهم من عمل بالحدادة لصنع المناجل والفؤوس والسكاكين والمسحاة والمعاول، ومنهم من اشتغل بالميكانيك لتصليح المكائن (كمكائن الطحين والثلج والسقاية)، وتصليح الأسلحة كالبنادق والمسدسات وعمل الإطلاقات من الخراطيش المستعملة. ومنهم من زاول مهنة الآباء: صياغة الفضة والذهب لعمل الحلي لأسر الموسرين والاقطاعيين ورؤساء العشائر، والتي نمت بشكل بارز في بداية القرن العشرين. ولحساسية مهنهم تلك، عز قدرهم، وبرز بعضهم في الشعر والتنجيم والغناء وطلاقة اللسان، فقربهم رؤساء القبائل وأنزلوهم منزلة التقدير والاحترام، وأصبحت لهم منزلة كبيرة في أعين جلاس المضيف (ديوان الشيخ)، رئيس الاقطاع من الفلاحين، أو رؤساء الدين الإسلامي ومقربيهم ووصفوهم بأنهم من أحفاد صابئة بني العباس، ولما لهم من علاقة متينة بين الشريف الرضي والرئيس أبي إسحاق الصابئي.

ومن خلال هذه الشهرة، اكتسب إخوانهم سكان الأهوار في الجنوب، الذين كانوا في حالة بدائية بسيطة، درجة عالية من التسامح والتقدير والمعاملة الحسنة.

ودعاهم رؤساء القبائل إلى الإسلام فاستجاب العديد منهم من آل زهرون (آل بوزهرون)، ولا سيما من نزح منهم من بغداد من إسلام آل زهرون أحفاد

هلال الصابئي، وتعرف فروعهم الآن باسم «**بيت أبو زهيره**»، وقد اكتسبوا لقب **الساعدي** لتعايشهم مع **قبائل السواعد- حميّر**، في الثلاثينات، والآخرون منهم (**البوخميس**)، وقد تعايشوا مع (البومحمد وبيت أبو سعيدة ومع بني مالج (بني مالك)، وهم **أكثر** طوائف الصابئة في العراق إسلاماً لما لهم من علاقة بإسلام آل زهرون والزهيرية).

وحين ازدهرت صناعة الذهب والفضة انتقل عدد كبير منهم إلى المدن الكبيرة، وبخاصة العاصمة بغداد.

ازدهر نشاط الصابئة المندائيين وتبلور، بعد اعتراف الحكومة العراقية بهم طائفة عراقية لها حق ممارسة شعائرها وطقوسها بحرية تامة داخل «المندي» (**بيت العبادة**)، مقرهم الديني. وصدر هذا الاعتراف بالمرسوم الجمهوري المرقم (١٩٦)، وتم تعيين المجلس الروحاني الأعلى للطائفة، وبات لهم ناديهم الثقافي والاجتماعي المعروف بـ «**نادي التعارف**» يقيمون فيه أنشطتهم الثقافية والاجتماعية منذ تأسيسه في ١٢/٢/١٩٧٣، ولغاية اليوم.

ومن جملة إصداراتهم: «**آفاق مندائية**» احتوى العدد الأول على دراسات من بينها عن الغناء (طور الصبي)، ووثائق مندائية عن (**عباس عماره الصائغ العراقي الفني**، وهو والد الشاعرة المتميزة لميعة، وعن (المخطوطات المندائية) في دار صدام للمخطوطات، وعن الأحجار الكريمة، والعَلَم أو الراية (**الدرافشا**)، وكرنفال مندائي مبارك بترسيم رجال دين جدد، هم (**الشوليا**)، ودراسة عن كتابهم المقدس (كنزا ربه).

إن الصابئة المندائيين الذين سكنوا الحواضر، وابتعدوا عن شواطئ الأنهار في بداياتهم (**ميسان، الناصرية، البصرة**) ظلت معابدهم في أماكنها، في كل تلك المدن، يمارسون فيها طقوسهم، لكنهم، أولاء الذين تفرقوا في المدن الكبيرة، ولم يعودوا يمارسون شعائرهم الدينية بصورة بدائية، واستعاضوا في كثير من شعائرهم بالماء المعقم بدلاً من الجاري، وحلقوا شعور رؤسهم وذقونهم وارتدوا الملابس العصرية، ولم يتقيدوا كثيراً في بعض المحرمات كالمسكرات واللحوم، وهم الآن، أكثر من أي وقت مضى، في طريقهم إلى تطور كبير، وكبير جداً، في شعائرهم وطقوسهم بخاصة بعد أن شملت طائفتهم ما شمل المجتمع العراقي من ظروف لا إنسانية بعد الحرب والحصار.

سيبتعد الأحفاد عن الأسلاف، لكنهم سيبقون في تجدد، تماماً كالماء والنور، تنبثق منهما حياة، بلا نهاية ولا حد، فالمندائيون، يمتلكون خصالهم الأصيلة، يتكيفون، لكنهم راسخو الجذور، لهم لغتهم، ولهم أبجديتهم، ينظرون إلى حروفهم كأنها سحرية ومقدسة، بل هي سحرية ومقدسة.

لذا يطلقون على الألفباء اسم «آ- با- كا»، **حيث يمثل كل حرف لهم قوة من قوى الحياة والنور، يؤمنون بدورة الحياة، والحياة الثانية (البعث)، فالحرفان الأول والأخير في أبجديتهم (ألفا وَ أوميكا) هما نفس الحرف، يمثلان كمال النور والحياة**، ومع ذلك، فهم يقولون: إن هذ الكمال لم يخلق ذاته، بل خلق، وحين خلق الـ «آ» حسب رواية أحدهم لليدي دراوور، فهو يمثل ملك النور (ملكة دنهورا)، صاح:

«ليس هناك أقدر مني،
وحين نطق بهذا،
رأى على وجه الماء
حروف الألفباء الأربعة والعشرين،
وكأنها جسر،
فقال في نفسه:
من خلق هذا؟
لم أفعل أنا ذلك،
فلابد أن يكون هناك، من هو أقدر مني» (٣٧)

وفي إحدى أساطيرهم، أن **الحروف كتبت في الأصل على قميص** «مارا اد ربوثه» (رب العظمة)، **وفي** أسطورة أخرى، أن «**هيبل زيوا**» **هو يعلم آدم الأبجدية!**

لذا تقع الكتابة لدى المندائيين (تحت تأثير الكوكب أنبو- الذي ينطقونه: أنوو، وتنقش حروف الألفباء على قدر عددها من قطع الفضة أو الذهب، لتوضع تحت وسادة الشخص الذي يرغب بالإرشاد السماوي، حين تنزل به نازلة ما، حيث يقوم بإفرادِ حرف واحد كل ليلة، حتى إذا رأى مناماً يتعلق بما لديه من محنة، اعتبر الروح التي تعود لتلك الحروف، أو لذلك الحرف قد انكشفت له، وإنها راغبة بمساعدته، حينئذ يلبس ذلك الحرف كطلسم في عنقه،

وهكذا نرى إلى أكثر الأبراج الطلسمية تبدأ بحروف الألفباء بحسب ترتيبها، وأحياناً بقيودها الحركية، أيضاً.

من هنا تأتي قراءة الحروف بصوت مسموع كتعويذة لطرد الأرواح الشريرة. ولهذه القراءة فعل خاص مشتق من ترتيبها:

(آ- با- گا) مساوٍ لـ «يقرأ» أو «يتهجأ»

والتفسير الصابئي للمعاني الباطنية، أي لما ترمز إليه الحروف، مهم لأنه تقليد قديم، بالرغم من أن ما يرمز إليه في الأصل قد نسي على نحو واضح(٣٨).

فحرف «باء» ( ) يلفظ كما لو كتب مع حرف المد (آ) ( ) فالحرفان الأول والأخير يمثلان دائرة [○] وبحسب اعتقاد الليدي دراوور: **تمثل قرص الشمس**، رمزاً للنور، وهما ينطقان كالصوت (آ)، وتجري مقارنة مع الألف الفينيقي [ا>] الذي يمثل رأس الثور، و«**الفاء**» **معناها**: «**الثور**» **وكان الثور** رمزاً **للسماء والشمس**. لذا تعتقد بأن حروف المد هي هذه الدائرة، باجراء بعض التعديلات، وهي تمثل الشمس غاربة أو مشرقة وقد اتخذ تشكيل الزاوية لغرض التوضيح.

يشير المترجمان الأستاذان نعيم بدوي وغضبان رومي تعليقاً على اجتهاد الليدي دراوور، هذا بأن «**حرف إد، والحرف الأخير «آ» قد وضعا لجعل العدد فلكياً**: أي أربعة وعشرين حرفاً، أما الشكل [○] **فيسمى «حلقة» و [>] يسمى «عكسه» و«د» يسمى** (أوشينا)، **ويكتبونه مع الهاء هكذا (سد) وتلفظ (هوشنا)، ومع الكاف وتلفظ (كوشنة)**.

تعتقد دراوور أن ليس ثمة «**اتفاق بين الصابئيين حول معاني بعض الحروف**» و«**اتفاق**» **حول بعضها الآخر**، وتأتي بمثال عن «**كاهن**» و«**مثقف ديني**» ومن عائلة كهنوتية، أعطيا أمامها تفسيرين غير متطابقين للحروف:

آ = (وتعني) = أعلى **الجميع، وهو «الكمال والنور والحياة، وبدء ونهاية كل شيء»**

گا = أب، الأب الأعلى

ا = گوربيل شليهه- جبرائيل الرسول

دا = دِركه = السبيل، أو القانون

ها = أولاً: هي ربي = الحياة العظمى

ثانياً: هيبل زيوا

وا = ويلي (تكتب ويله - ويل لمن لا يصغي للغة الحياة)

زا = زيوا، وتعني = الاشعاع والنور الفاعل، والحرف رمز لصورة الشمس فوق الأفق أو للشمس كواهبة للحياة.

هه = وهذا الحرف مقدس لدرجة أنه لا يستعمل كثيراً، وهو يمثل: عين اللّه، (وهذا تفسير غير كاف - ويستعمل هذا الحرف فقط كملحق لصيغة الشخص الثالث الفرد).

يقول «**نولدكه**»: «نعلم منذ القدم أن أنباط العراق الذين (يمكن) أن ننسب **المندائيين لهم، أيضاً، كانوا يلفظون حرف (ع) وحرف (ح) بشكل تشعر معه أنهما غريبان على لسانهم، ويأتي الحرف في نهاية الكلمة ويعني «له أو لها أو لهم»** في حالة المفعول به، وينطق على التوالي: «**هي، أي، ها**، آ» ويكتب غالباً ذيلاً للألف، غير أن شكله الخاص بيضوي.

طا = أولاً: طاب = طيب أو حسن

ثانياً: مشتق من طير، الذي يمثل الروح، **وهي تعدو حين تفارق الجسد، إلى عالم النور**، ومن الواضح أن هذا الحرف يمثل صورة الطير (محلقاً)، رمزاً للروح المنعتقة، فـ«مانا» تحرك جناحيها عائدة إلى «**مانا العظيم**»، والطاء، في أكثر النقوش السامية.

هي = طائر:

«استوطنت البحار

إلى أن نبت لي جناحان

وإلى أن أصبحت مخلوقاً مجنحاً

وإلى أن أصبحت مخلوقاً مجنحاً رفعني جناحاي إلى موقع النار»

(من ترنيمة تتعلق بعودة الروح البهيجة بعد الموت)

من كتاب: «كنزه ربه- جهة اليسار».

وكلمة (طس) لدى الصابئين المندائيين تعني= (طير)، إلا أن المعنى الأكثر استعمالاً لـ «يطير» هو= (پهر).

يا = أولاً: اليوم

ثانياً: يا من – اليمين

واليمين رمز للنور، واليسار رمز للظلمة، كما أن اليمين للكائن واليسار للذي لا يكون.

كا = أولاً: كليله = أكليل الآس.

ثانياً: كشطه = الحق أو عمل الحق.

لا = أولاً: لشان = لسان، يتحمد.

ثانياً: آلمه – العالم = وهو خطأ بيّن.

ما = مانه ربه كبيره = العقل العظيم الأول، أو: الروح.

نا = نهوره = نور.

سا = سيمات هيي = أم جميع الحياة.

اى– أَينْ = العين، أو: عين الماء، وهو ليس حرفاً حلقياً لدى الصابئين بل مجرد حرف مد.

يا – پيره انات هي = (وقد ترجمها كاهن: أنت الشجرة الحية).

اقترحت الليدي دراوور أن يكون معناها = (فاكهة) غير أن جميع الحاضرين اصروا على أنها = شجرة.

و(انات هيي) تعني عند (ليدزبارسكي): (كائناً روحياً أنثوياً) وينطقها: (اناث هيي)[٣٩].

صا = صوت أناتْ قد مْايى= أنت الصوت الأول.

قا = قال انات قد مايى دهيي = أنت قول الحياة الأول.

را = (لم تضع المؤلفة معنى هذا الحرف وحين سئل الشيخ عبد الله الشيخ سام عن معناه أجاب: «ريش» = أي رئيس).

شا = شامش = الشمس.

تا = توبه = التوبه.

آد = وهذا يعتبر حرفاً دائماً، مع أنه أداة اضافة.

آ = (أنظر الحرف الأول).

هذه الألفباء، هي بذاتها: «شرح موحٍ» حول تقليد ومعتقدات الذين يستعملونها» [٤٠]، هكذا تقول السيدة دراوور، بفطنة الباحثة التي عايشتهم، فتعلمت كيف يفكرون، ويتخيلون، ويجعلون للكلمة سحراً.

طلاب النقوش السامية المهرة، الذين كتبوا حروفهم، على الماء، كتبوها على النحاس، لتبقى.

وبمهارة صنعة، نقشوا على المعادن، والذهب، والفضة، تلك الحروف طلاسم، وتعويذات، فلا غرابة أن يصنعوا الفن كله في صياغة الذهب والفضة والمينا. بل ويصنعوا لهم أسماً في سجل الابداع، أبداً.

من شعرائهم، قبل الإسلام، وكتاب دواوين العباسيين، حتى عالمهم الفذ الدكتور عبد الجبار، ابن الشيخ عبدالله سام، المرجع الديني الأعلى للطائفة المندائية في العراق والعالم، حتى وفاتهما، رحمهما اللّه.

احترقت أكواخ القصب، تلك، على حافات المياه،

والنيران، انطفأت بذات الماء..

ولا غرابة،

ففي النسخة النادرة، النحاسية الأوراق، من «الكنزه ربه» التي عادت، إلى العراق، أخيراً، وجد ذات النص القرآني، حرفياً: ﴿**وجعلنا من الماء كل شيء حي**﴾ [الأنبياء:٣٠]، أيضاً، على لسان اللّه، الخالق، العظيم.

من جوهر الماء، يخرج الحرف، ويخرج الخلق، وتخرج المخيلة. وبالماء غمس المندائيون مساحيق ألوانهم والفحم، ثم ليغمسوه بالزيت، وبالماء المقدس، كي يكتب النورانيون، سفرهم الأبدي، على النحاس، تماماً، جوار السومريين، الذين اخترعوا الحرف، ليكتبوا سفر حضارتنا، على الطين.

الحروف الأبجدية المندائية	**مقابلها بالعربية**
ο	آ
[illegible]	بَ بِ بْ بِ
[illegible]	گـء گِـء گـُء گـْء
[illegible]	دَ دِ دُ دْ
[illegible]	هَـ هِـ هُـ هْـ
[illegible]	وَ وِ وُ وْ
[illegible]	هـ
[illegible]	طَ طِ طُ طْ

يَ يِ يُ يْ
كَ كِ كُ كْ
لَ لِ لُ لْ
مَ مِ مُ مْ
نَ نِ نُ نْ
سَ سِ سُ سْ
إي
پَ پِ پُ پْ (وتلفظ أيضاً: ف)
صَ صِ صُ صْ
قَ قِ قُ قْ
رَ رِ رُ رْ
شَ شِ شُ شْ
تَ تِ تُ تْ (وتلفظ أحياناً: ث)

نماذج من الحروف بعد ربطها بالحركات:

= بَ
= بِ
= بُ
= بْ

نماذج من الحروف المندائية التي لا يجوز اتصالها:

= نـَ
= نـِ
= نـُ
= نـْ

حروف تكميلية أدخلت على الأبجدية المندائية متأخرة لتساير التطور، وهي ليست مستعملة في الكتب الدينية؛ بل يقتصر استعمالها على الكتابة

لأغراض الحياة العامة أو في الشروح على الكتب الدينية.

[illegible]	= غ
[illegible]	= ع
[illegible]	= ضا أو ذا
[illegible]	= چا
[illegible]	= فا

الحروف المندائية وقيمتها العددية

آ = ١	بو = ٨	كَي = ١	دا = ٥	ذْ = ٤	هو = ١١
وي = ٤	زا = ٨	ز ٥ = ٧	طا = ١٠	ط = ٩	يو = ٤
كي = ٦	لا = ٧	ل = ٦	مي = ٢	نا = ٣	ك = ٢
سو = ٦	پا = ٩	پ = ٨	صو = ١٢	قي = ٢	را = ٩
ر = ٨	شو = ٦	تي = ٢			

النص باللغة المندائية عن بعض (صفات الخالق) مصوراً من كتاب «كنزا ربا»:

[illegible]

النص بالعربية:

إلهي	طاهر
سبحان	بقلب

«سبحان ربي، بقلب طاهر،
إله كل العوالم، سبحانه
مبارك هو ومسبح، معظم ومبجل
ودائم، الله العظيم المتعالي
سبحانه ملك الأنوار السامي
رب الحق ذو الحول الشامل
الذي لا حدود له. النور النقي، والخير
العميم الذي لا ينضب. الغفور التواب،
الرحيم الرحمان، الهادي
لجميع الطيبين، العزيز الحكيم،
العالم البصير المتسلط، القادر على
كل شيء. رب كل
عوالم النور، العليا والوسطى
والسفلى. ذو الجلال
العظيم الذي لم يُر ولم يُسمْعَ».

الإحالات:

١) **علوم البابليين**: ص ٨٣–٨٤.
٢) نفسه، ص ٨٥.
٣) نفسه: ٨٧.
٤) **أنيس فريحه**؛ ملاحم وأساطير من الأدب السومري، بيروت ١٩٦٧.
٥) **علوم البابليين**: نفسه ص ٨٩.
٦) **ناجية المراني**: مفاهيم صابئية مندائية، ص ١٤٠.
٧) **الليدي دراوور**: الصابئة المندائيون (الكتاب الأول) ط٢ ، ١٩٨٧، ترجمة نعيم بدوي وغضبان رومي، ص ١٣٥، وأنظر هامش المترجمين رقم (٧)، ص ١٦٠–١٦١. (ملاحظات حول الفصل السادس).
٨) نفسه: ص ١٣٥.
٩) نفسه: ص ١٣٩–١٤٠.
١٠) **محمد الجزائري**: **خطاب العاشق**، دار الشروق، عمان ط١/ ١٩٩٦، ص ٢٤٩، هـ: ٢: وأنظر: د. **فاضل عبد الواحد**، **عشتار ورت وتموز**، بغداد، ص ٢١.
١١) نفسه: ص ٢٥٤–٢٥٦ (خطاب العاشق/ **محمد الجزائري**/..) هـ: ٢٥، ص ٢٥٧، وأنظر: **أحمد المهنا**: مجلة «اللحظة الشعرية» / العدد ٣/ ١٩٩٣/ ص ٦٧–٧٠ تعقيباً على كتاب الباحث (**السيد القمني**) عن (سيدة السماء/ سيدة الحب..).
١٢) دراوور: مصدر سابق، ص ١٣٦.
١٣) أنظر: (كتاب– الشعر الديني المبكر في فارس)،– هامش ٨– المترجمان **بدوي ورومي**: المصدر السابق، ص ١٦١.
١٤) **علوم البابليين**، مصدر سابق، ص ٩٤–٩٥.
15) Seneca, Nat. Quaest). VII, أنظر: علوم البابليين؛ ص ٩٦.
١٦) **اللوح الخامس من ملحمة** (قصة الخلق البابلية). كما صاغها في النص العربي **أنيس فريحه**: انظر: ملاحم وأساطير من الأدب السامي، بيروت، ١٩٦٧.
١٧) **الصابئة المندائيون** (الكتاب الأول) ص: ١٣٣ (الفصل السادس: الخليقة والتنجيم والأعياد).

١٨) نفسه ص ١٥٦– ١٥٧. و (J. J. M., O. ٤٨١).
١٩) نفسه، ص ١٥٨– الهامش (٢) وتفصيلاته.
٢٠) نفسه، ص ١٥٩.
٢١) **علوم البابليين**: نفسه (السابق)، ص ١٠١.
٢٢) **الصابئة المندائيون**، مصدر سابق، مقدمة المترجمين، ص ١١–١٢.
٢٣) د. **جواد علي**: تاريخ العرب قبل الإسلام، ج ٥، ص ٣٦٨–٣٦٩.
أنظر، مقدمة (الصابئة المندائيون): ص ١٢–١٣
٢٤) **بدوي ورومي**، مصدر سابق/ المقدمة/ ص ١٤–١٥.
٢٥) **المقتطف** ج ١، م ١١٥ لسنة ١٩٤٩م.
٢٦) فهرست ابن النديم ص: ٤٩٩ و٥٠٠، ولاحظ مادة **جابر بن حيان** (أعلام العرب) للدكتور زكي نجيب، ص ١٣ و٢٠ و٣٤.
أنظر: الموجز في تاريخ الصابئة المندائيين، **عبد الفتاح الزهيري**.
٢٧) بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، ط ١، بغداد ١٣١٤هـ، عني بشرحه **محمد بهجت الأثري**، مكتبة المتحف، ص ٣٠٥ جـ ٢/ و ٢٧١ جـ ٢/ و ٣٠٩–٣١١.
وأنظر ديوان زهير بن أبي سلمى بشرح **ثعلب**، مطبعة دار الكتب المصرية ١٩٤٤م – ١٣٦٣هـ وشرحه **لأبي الحجاج** يوسف بن سليمان المعروف بالأعلم الشنتمري، مطبعة توفيق الأدبية، مصر.
٢٨) أنظر شعراء النصرانية قبل الإسلام للأب **شيخو**، ص ٣١١ و ٣١٣ و ٣١٦ والعرب قبل الإسلام، د. **جواد علي**، ج ٥، ص ٣٧٧.
وعبد **المنعم الغلامي** صاحب الانساب والأبراج، مطبعة شفيق، بغداد ١٩٦٥ ص ١٣٦.
٢٩) أنظر: الروائع، بقلم **فؤاد البستاني**– مكتبة المتحف، / المطبعة الكاثوليكية، بيروت ١٩٣٩، الموسوعة العربية– دار فرانكلين للطباعة، ص ١١٥٧ (عن: **طرفة بن العبد البكري**).
٣٠) د. **جواد علي**، العرب قبل الاسلام، ج ٥، ص ٣٧٧. وشعراء **النصرانية**، ص ٦١٩. ومفصل العرب واليهود، ص ٢٨٨.
٣١) لاحظ وفيات الأعيان، ج ٣ ص ١٣١، ٣٩٤،١٣٧/ و ج ١، ص ٣١٣، ٣١٥ أما معنى (**كوثيا**) – فهو: **قلعة أو حصن**.. واصل الكلمة: (حران كوث) = **حصن حران أو قلعة حران**. «**كوث**» مقاربة لكلمة «**كوت**» باللفظ والمعنى.. ومصغرها «كويت».
٣٢) لاحظ تاريخ الحكماء للقفطي، ص ١٩٠، وتاريخ العرب قبل الإسلام، ج٢، ص ٤٤٦ ووفيات الاعيان ج٣ ص ٤٣٥، وفهرست ابن النديم، ص ٤٢١ (الفن الثاني من المقالة الأولى).
٣٣) لاحظ ج ٣، ص ١٣٧ من **وفيات الأعيان**، وتاريخ الحكماء **للقفطي**، ص ١٠٩، ١١١، ١١٣،، ١٢١.

٣٤) **وفيات الأعيان** ج ٣، ص ٤٣٥، **وتاريخ الحكماء**، ص ١٠٩-١٢١، **ويتيمة الدهر للثعالبي** طبعة مصر (١٩٣٤م) ج ٢، ص ٢١٨، **وتحفة الأمراء لهلال الصابئي تحقيق ميخائيل عواد**، ورسوم دار الخلافة لهلال الصابئي تحقيق ميخائيل عواد، أيضاً.

٣٥) جاء ذكر إبراهيم بن هلال في عديد المضان التاريخية، ففي **وفيات الأعيان** (ص ٥٢، ٥٤، ١٠٨ ، ١١٣) من الجزء ١، **وتاريخ الحكماء** (ص ٧٥) **ومعجم الأدباء** ج ١، ص ٣٢٤، **وتحفة الأمراء** ورسوم دار الخلافة حققه ميخائيل عواد، **مفاتيح العلوم**، ص ٧٨، **قانون ديوان الرسائل** ص ٩٤، ١١٧ ، **يتيمة الدهر** ج ٢، ص ٢٣ و ٢٢١، و ج ١، ص ٢١٥، ديوان الشريف الرضي، ج ١، ص ٣٨١، ٣٨٦، وديوان الشريف المرتضى حققه رشيد الصفار وراجعه د. **مصطفى جواد** والشيخ محمد رضا الشبيبي، سنة ١٩٥٨م، فهرست ابن النديم، ودائرة المعارف الإسلامية.

٣٦) نفسها، السابقة، ولاحظ المنتظم، ص ٨-١٧٧ وسبط بن الجوزي - مرآة الزمان، ص ١٩، ٢٠ ، ٢١ (المخطوط).

٣٧) الليدي دراوور: الصابئة المندائيون، ص ٣٣١.

٣٨) نفسه، ص ٣٣٢.

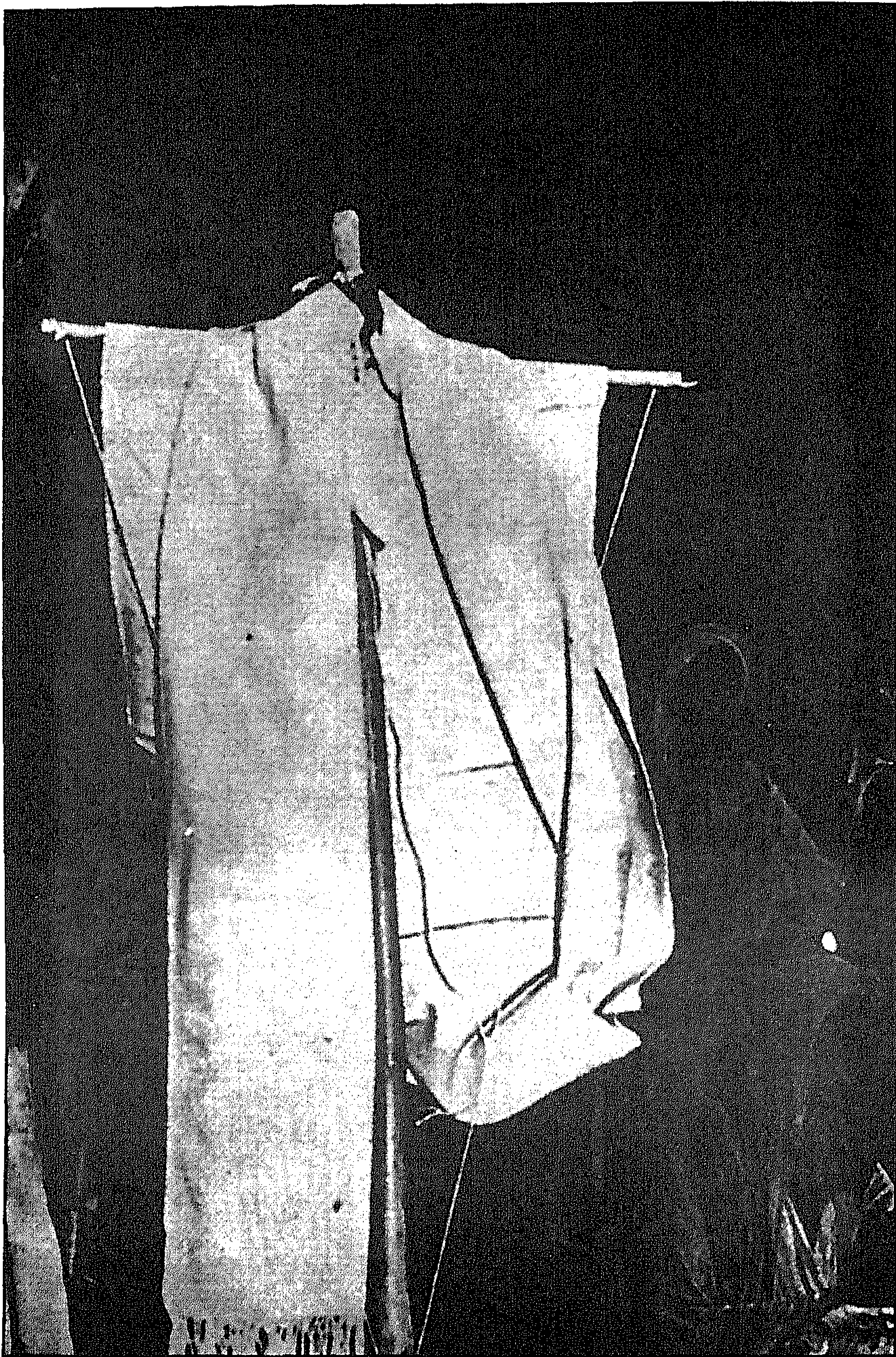
٣٩) أنظر: براندت: الدين المندائي، ص ٢٣ (Brandt)، حول المعاني المختلفة لكلمة «پيرا».

٤٠) **الصابئة المندائيون**، نفسه، ص ٣٣٥.

صور- وثائق - خرائط

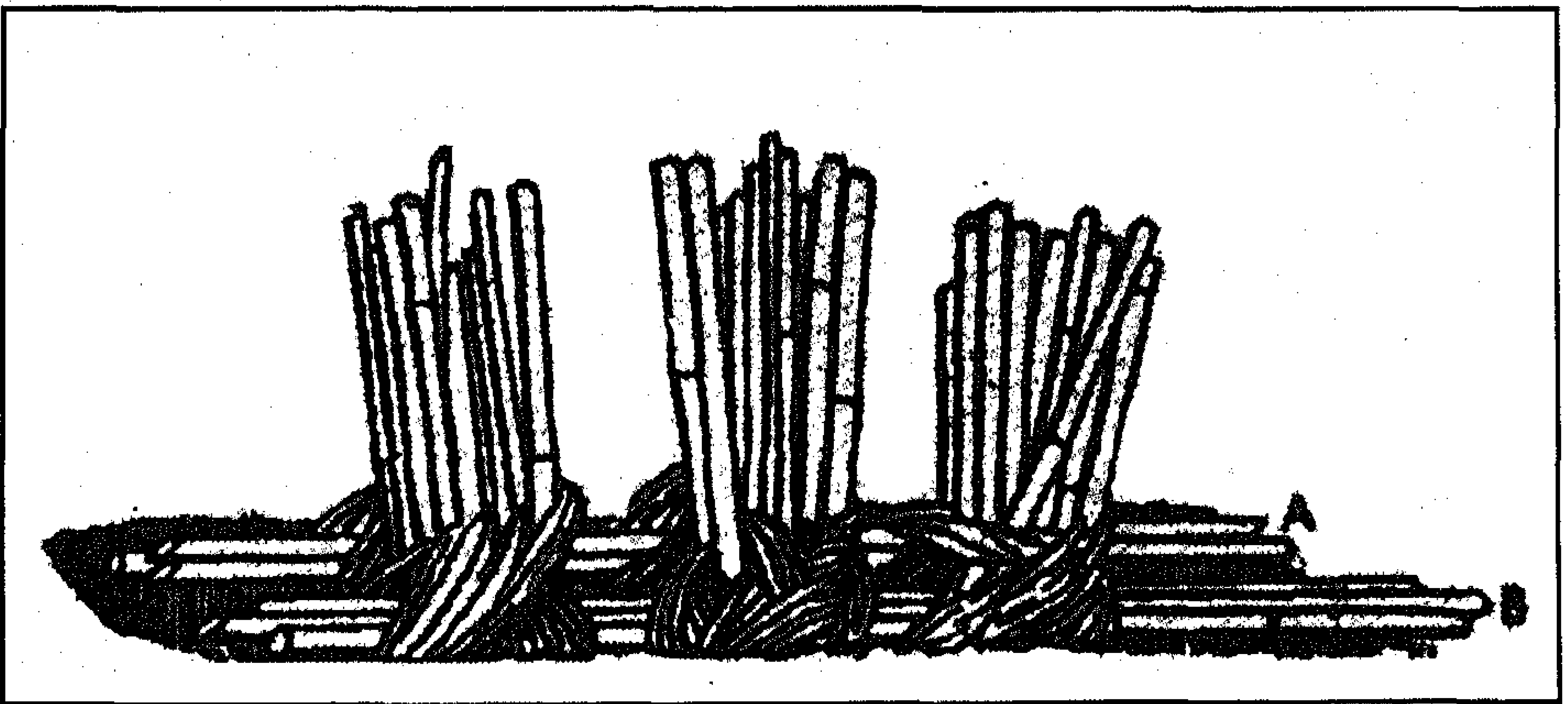


١ - كاهن في زيه الديني الكامل (رسته)



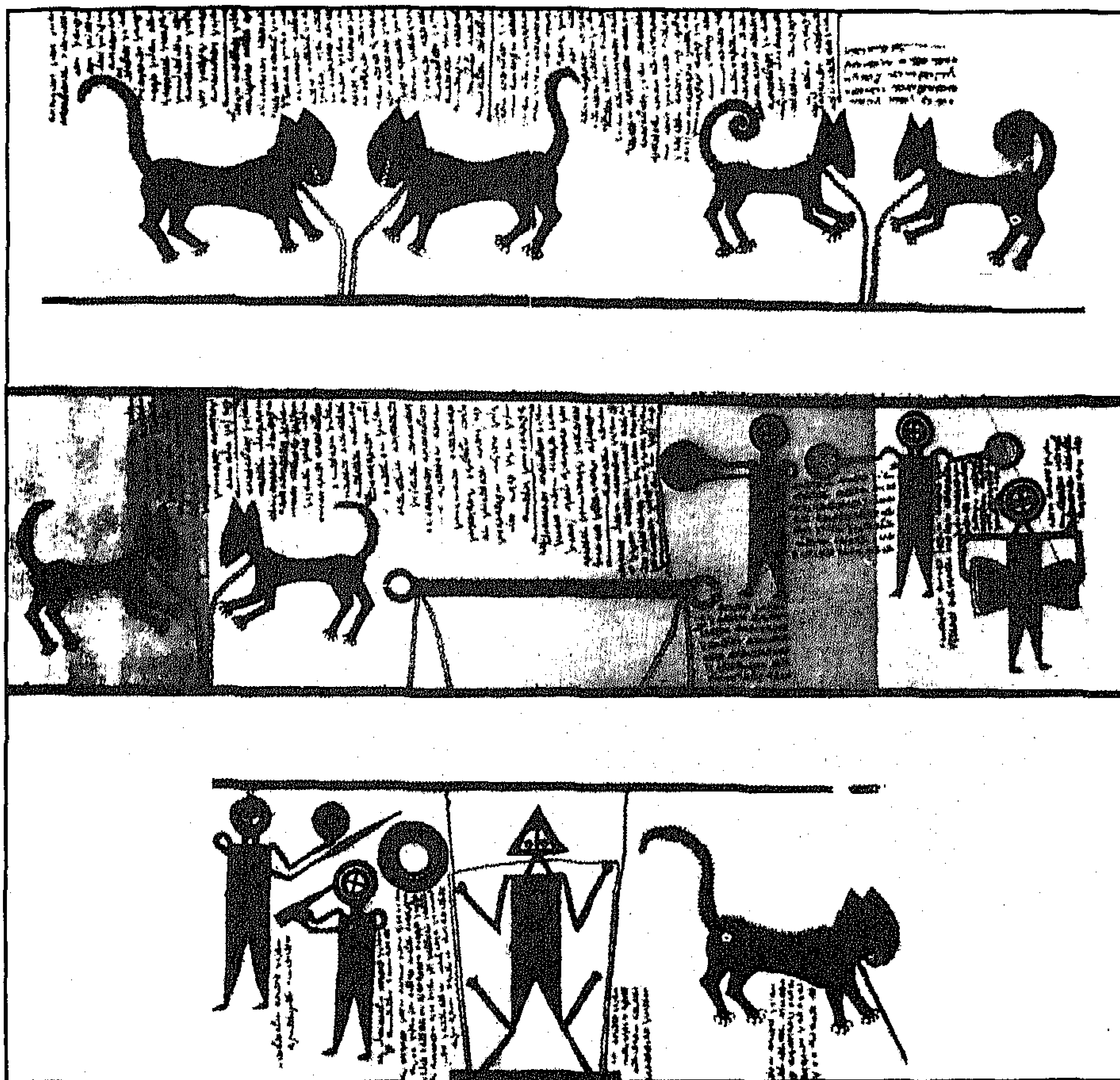
٢ - الراية: (درفش يهيا)

٣ – المندي: (في الثلاثينات/ قلعة صالح – العمارة)

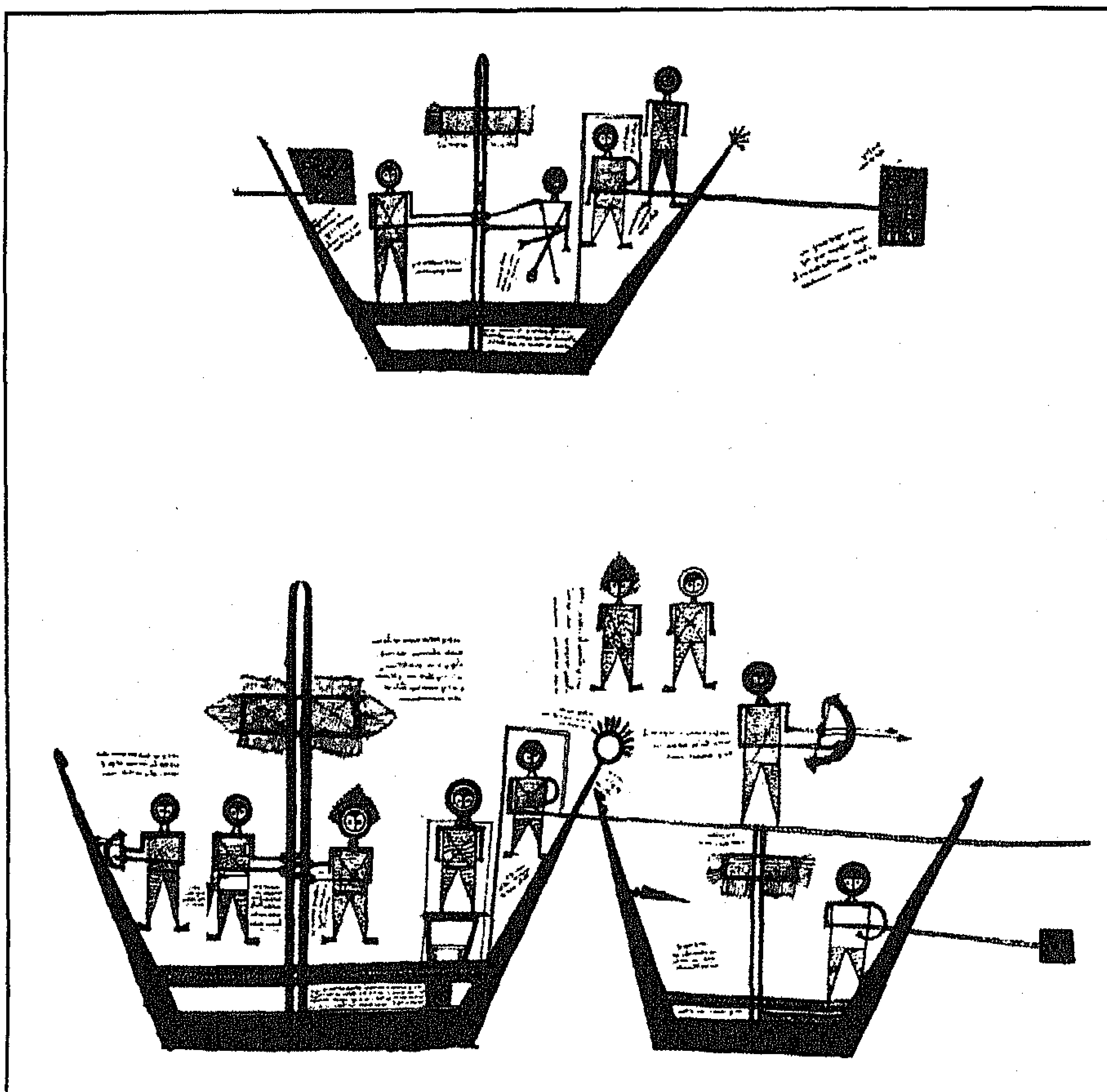


٤ – المندلتا

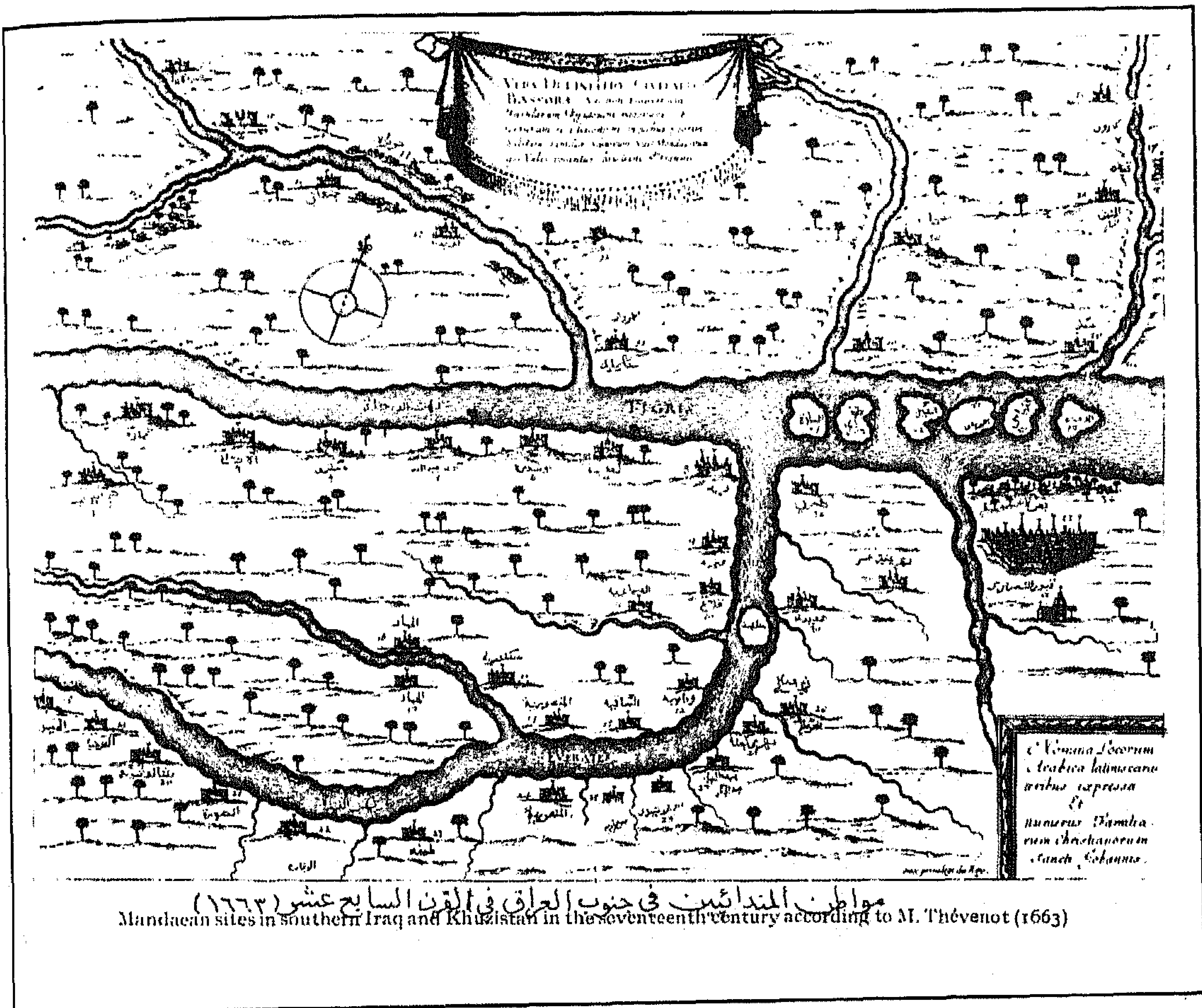
٥ – الشجرة المربية للأطفال (الأنا اد ماربي يانقي)



٦ - اسود وكلاب نيرغ.

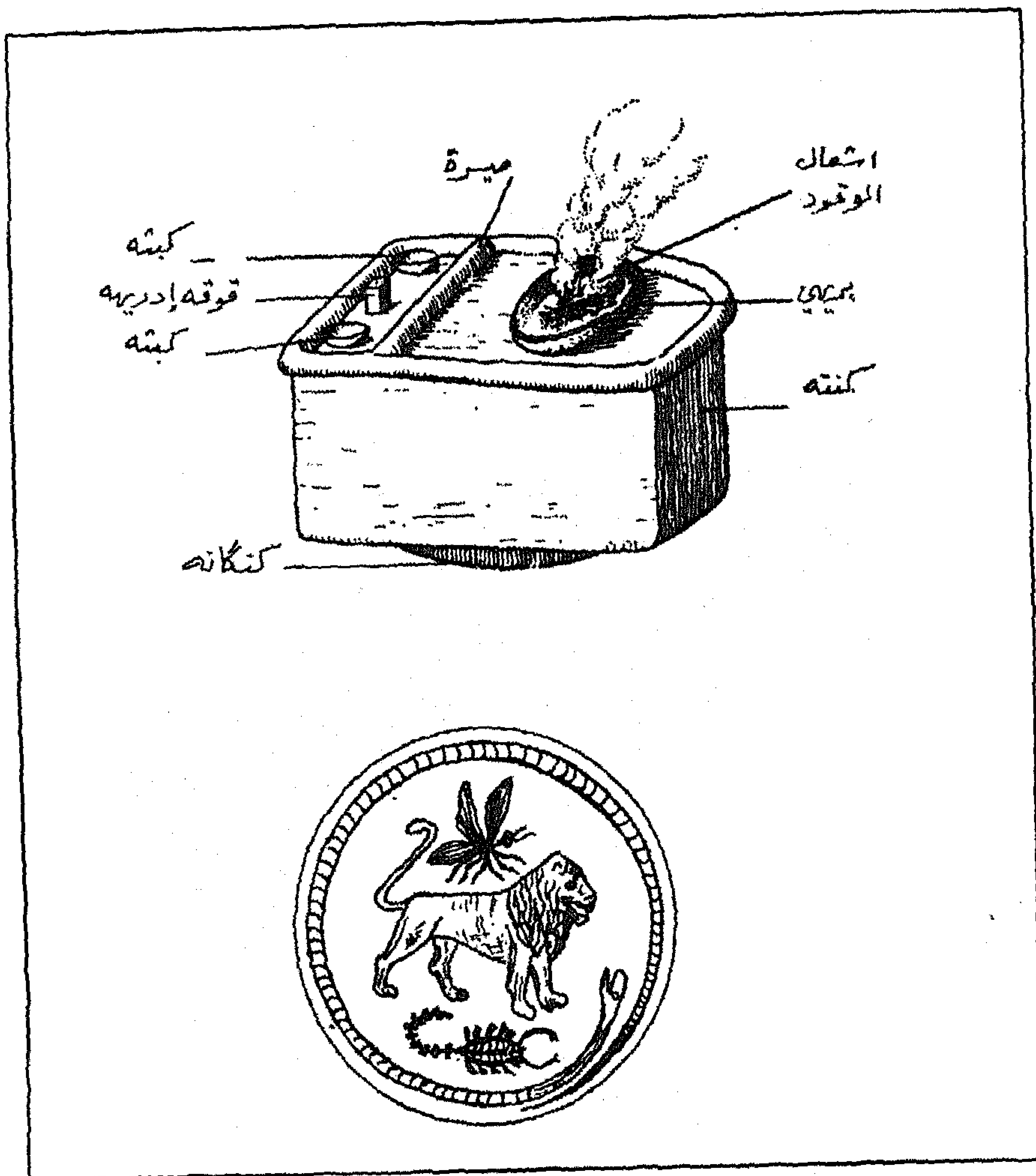


٧ - فلك الشمس، وتشاهد «ليبات» في الأعلى إلى اليمين



مواطن المندائيين في جنوب العراق في القرن السابع عشر (١٦٦٣)
Mandaean sites in southern Iraq and Khuzistan in the seventeenth century according to M. Thévenot (1663)

٨ – مواطن المندائيين في جنوب العراق (ق ١٧ – ١٦٦٣م)



٩ - (سكين دوله): شعار المندائيين



١٠ – الشيخ عبدالله الشيخ سام (توفي عام ١٩٧٩م)، وعلى يساره الشيخ غريب مصبوب على أحد شواطئ نهر المشرح



١١ - الشيخ (الكاهن) والراية المندائية



١٢ – لقطة من مراسيم الزواج أثناء تماس رأسي العروسين



١٣ – عريس بملابسه الدينية



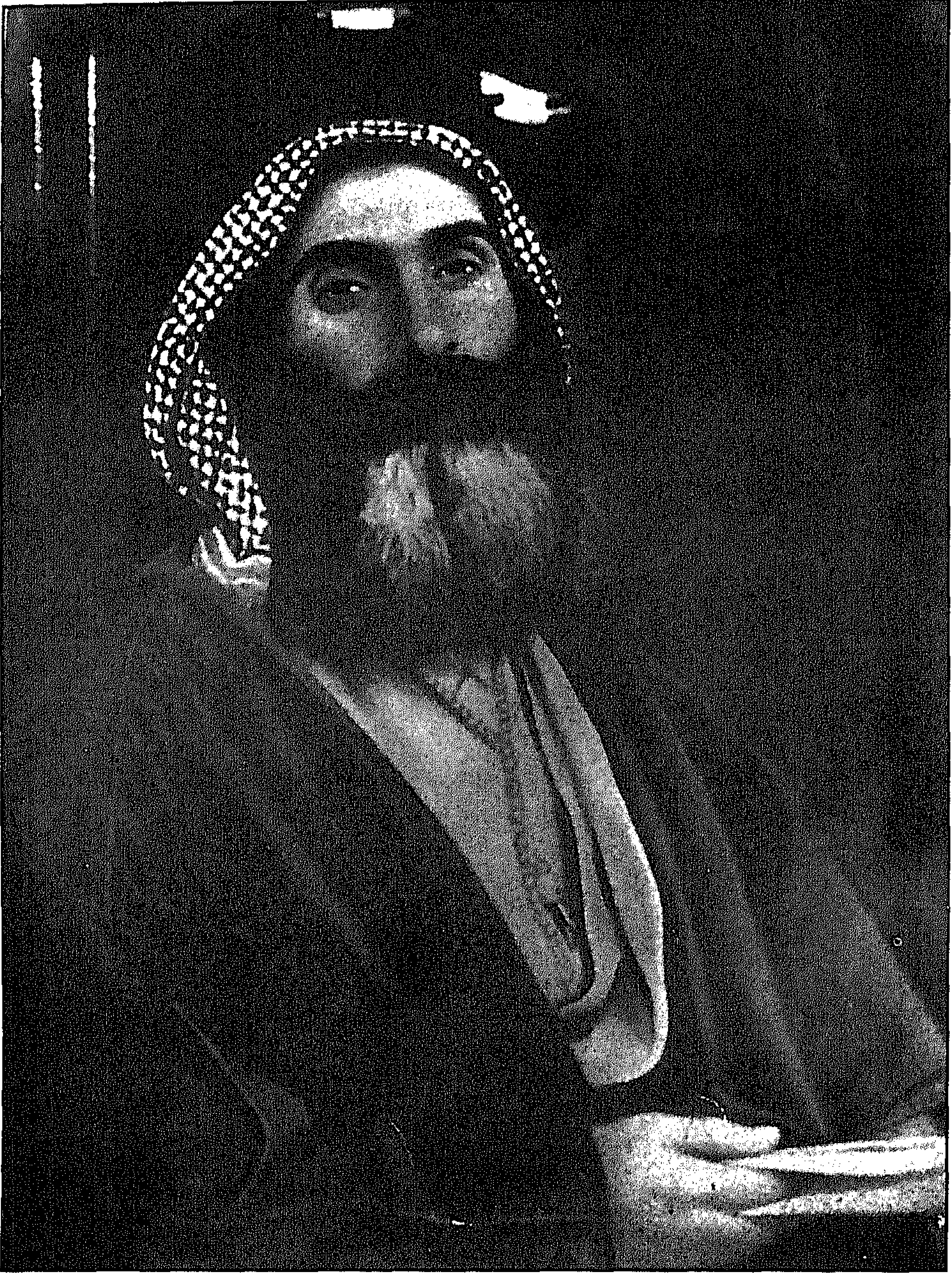
١٤ – المرحلة الأخيرة من التعميد



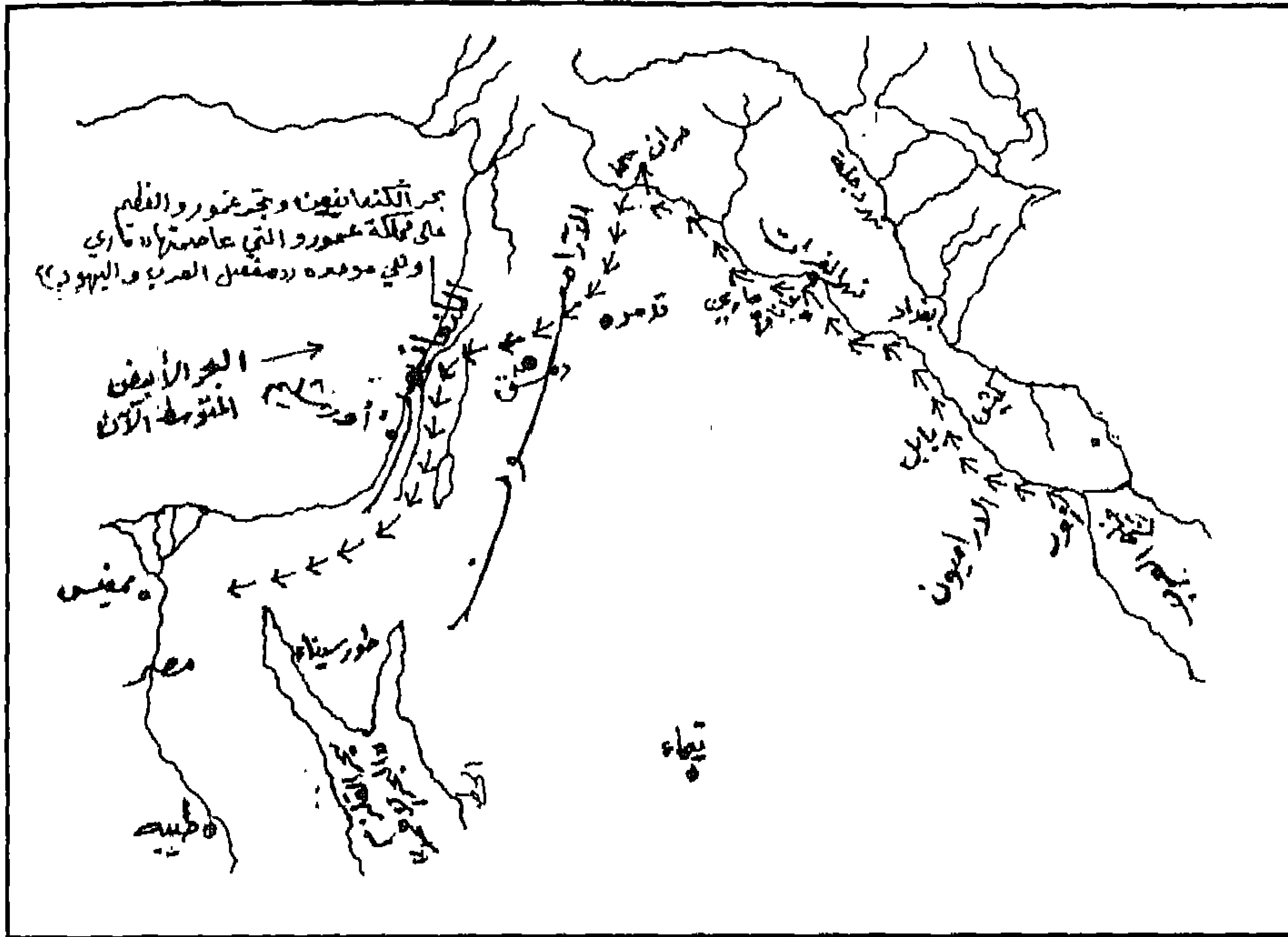
١٥ – الغطسة الثالثة في تعميد الكاهن



١٦ – الشيخ عبدالله الشيخ سام رئيس طائفة الصابئين الروحاني في بغداد وعن يساره البروفيسور د. رودلف كوت، أحد كبار المهتمين في دراسة الدين الصابئي الذي كان رئيساً لقسم اللاهوت في جامعة لايبزك. ويقف السيدان نعيم بدوي وغضبان رومي مترجما كتاب الليدي دراوور (الصابئة المندائيون) إلى يمين ويسار الصورة على التوالي.
(التقطت الصورة، صيف عام ١٩٦٩م – بغداد)



١٧ – الشيخ دخيل الشيخ عيدان آل بهرام (١٨٨١ – ١٩٦٣م) الرئيس الروحاني للطائفة المندائية في العالم لغاية العام ١٩٦٣م، وقد خلفه الشيخ عبدالله الشيخ سام.
والشيخ دخيل هو الوحيد الذي يعتبر ضريحه في بيته (الدورة – محلة المهدية – بغداد) مزاراً دينياً للصابئة المندائيين



١٨ – خارطة تمثل الطريق الذي سلكه إبراهيم الخليل (ع) من أور إلى حران وإلى كنعان وإلى مصر ١٨٥٠ – ١٩٠٠ ق.م (مفصل العرب واليهود، د. أحمد سوسة ص ٥٢١)

يعتمد نضطلب لنتعهم ديانه فيا حدود

... واحد لكم ...

نائب

وجه تحرير هاذا الورقة الترتيب بيننا

نحن الواضعين اسمائنا وختامنا ادناه بعال تاريخه قد اتفقنا جميعنا بخصوص المثالي الذي يتحصل من ملتزمة الاوابسا

الحسيني والترسيذية الذين معهم وهم الشيخ ادخيل والترسيذية الذي معه والشيخ ادم والترسيذية الذي معه والشيخ

روبعي والترسيذية الذي معه والشيخ روبعي والترسيذية الذي معه والشيخ جدوع والشيخ آلبيس والترسيذية

الذي معهم بموجب اوراق الذي تصدقت من رسمي هذان اشهرنا الجمع وعملنا صندوق واحد وقد عينا في كل

محل وكيل يجمع الواردات والقبضيات الذي تلوي من يد الوكيل المتعين وهو يدفع الى الترسيذية الذي معه بموجب

علم وخبر والباقي الترسيذية ما لهم حق ان يتدخلوا ما جماعة الاهم وهو الشيخ ادخيل اجمل في الناصرية والشيخ

ادم في القرنة بني سعيد والشيخ روبعي في الجلبة والشيخ جدوع في العمارة والشيخ آلبيس في الحلفاية

المسيحيين يجمعون المثالي وهو مما ملتزمين لكل نفر اربعين ليرة في كل سنة ورسم الزواج وتعميد الصيادة والخيرات

الشرعي ما تعيد الحد ما يدخل الصندوق واما المستثنا الذي يدخل فيها يستحق منه والذي لا يدخل

ما لهم حق فيها والترسيذية الذي يصير وما يتغير وما يصيره من لهم حق يمشي منه اليه والشيخ ادخيل يمشي منه

الجهي في كل سنة مرة ليطلب بحاسب المتوكل من هاذا الصندوق وعلى هاذا وقع الرضا والقبول الجمعية

التكرر امرهم منعنة بعدد وتشهدة عن هاذا الترتيب ومن الرضا والقبول وشهدنا على انفسنا

ست التماضي وبه ضبط شاهد ... سنة

عن قرار / شيخ ...

عن قرار / شيخ جدوده

عن قرار / شيخ ادم

عن قرار / شيخ روبعي

عن قرار / شيخ آلبيس

عن قرار / شيخ سعيد

عن قرار / شيخ ادخيل

عن قرار / شيخ زهرون

عن قرار / شيخ سعيد

عن قرار / شيخ فرحان

عن قرار الشيخ / بهيس

عن قرار / شيخ آلبيس

عن قرار / شيخ حنيدان

عن قرار / شيخ نادي

عن قرار / شيخ عبد / شيخ ... / شيخ جابر

عن قرار / شيخ احمد

١٩ – وثيقة

المراجع

- **القرآن الكريم.**
- **التوراة (العهد القديم).**
- **كنزا ربه (صحف آدم).**

■ **الكتب**

- **الصابئة المندائيون**، الليدي دراوور.
- **مفاهيم صابئية**، الدكتورة ناجية المراني.
- **الصابئة**، غضبان رومي.
- **الصابئون حرانين ومندائيين**: د. رشدي عليان.
- **الموجز في تاريخ الصابئة المندائيين**: عبد الفتاح الزهيري.
- **مفصل العرب واليهود في التاريخ**: د. أحمد سوسه.
- **المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام**: د. جواد علي.
- **الكامل في التاريخ**: ابن الأثير.
- **الشرائع العراقية القديمة**: د. فوزي رشيد.
- **ألواح سومر**: صموئيل كرايمر.
- **الأساطير السومرية**: صموئيل كرايمر.
- **من الواح سومر إلى التوارة**: د. فاضل عبد الواحد.
- **علوم البابليين**: مرغريت روثن.
- **اليهودية واليهود**: علي عبد الوافي.
- **الأديان اليهودية**: د. أحمد شلبي.
- **قصة الحضارة**: ديورانت.

- **الشعب اليهودي قديماً وحديثاً**: اولبرايت.
- **موسى والتوحيد**: فرويد.
- **نزهة المشتاق في تاريخ يهود العراق**: يوسف رزق الله غنيمة.
- **دليل الراغبين في لغة الآراميين**: القس متي الكلداني.
- **السيرة النبوية**: عبد الملك بن هشام.
- **الجامع في أحكام القرآن**: القرطبي (محمد بن أحمد الانصاري).
- **أخبار مكة**: الازرقي (محمد بن عبدالله).
- **عصر النبي وبيئته قبل البعثة**: محمد عزة دروزة.
- **تاريخ الرسل والملوك**: الطبري (محمد بن جرير).
- **تاريخ سنى ملوك الأرض والأنبياء**: الأصفهاني (حمزة بن الحسن).
- **بنو إسرائيل في القرآن والسنة**: محمد سيد طنطاوي.
- **التوراة جاءت من جزيرة العرب**: د. كمال صليبي.
- **الجذور التاريخية للشعوبية**: د. عبد العزيز الدوري.
- **تحفة الامراء، ورسوم الخلافة**: هلال الصابئي.
- **مع الأنبياء**: عفيف عبد الفتاح طباره.
- **إبراهيم**: ماتيو كولان.
- **إبراهيم الخليل في المصادر الإسلامية**: د. هاشم الملاح.
- **إبراهيم والله**: جوناثان ماكوينت.
- **العراق أرض نبينا إبراهيم**: د. يوسف حبي.
- **إبراهيم أبو الأنبياء**: عباس محمود العقاد.
- **تاريخ فلسطين القديم**: د. سامي سعيد الأحمد.
- **المانوية والإسلام**: د. فاروق عمر.
- **التنبيه والاشراف**: المسعودي.
- **سبائك الذهب**: المسعودي.
- **مروج الذهب**: المسعودي.
- **المعارف**: ابن قتيبة (عبدالله بن مسلم).
- **وفيات الاعيان**: ابن خلكان.
- **الملل والنحل**: الشهر ستاني.

- ذبيحة إبراهيم: اوريجين.
- تاريخ ابن الوردي.
- توت عنخ آمون فرعون مصر: ارنست دودال.
- الذات الجريحة: سليم مطر.
- مغامرة العقل الأولى: د. فراس السواح.
- الأنساب والأبراج: عبد المنعم الغلامي.
- تاريخ الحكماء: القفطي.
- العبر وديوان المبتدأ والخبر (المقدمة): ابن خلدون.
- ملاحم وأساطير من الأدب السومري: أنيس فريحه.
- الروائع: المطبعة الكاثوليكية: فؤاد البستاني.
- خطاب العاشق: محمد الجزائري.
- القاتل والضحية: محمد الجزائري.
- آثار البلاد: القزويني.

■ المعاجم والموسوعات

- معجم البلدان: الحموي.
- المعجم المفهرس لألفاظ القرآن: محمد فؤاد عبد الباقي.
- الموسوعة الكونية الفرنسية.
- قاموس الكتاب المقدس.
- القاموس الاشوري.
- الفهرست: ابن النديم.
- القاموس المندائي.
- موسوعة السلطان قابوس (معجم الأسماء العربية).

■ الدوريات

- بين النهرين: العدد ١٠٣ – ١٠٤، ١٩٩٨.
- التراث الشعبي: العدد ٩، ١٩٧٤ والعدد ٢ –٣، ١٩٧٦.
- مجلة روز اليوسف: ٢٠٣٧.

- **المقتطف**: ج١ ، م ١١٥، ١٩٤٩.
- **سومر**: م ٥، ١٩٤٩.
- Judaism, 33, 160 - 170, 1984

الفهرس العام

(أ)

(ب)

(ت)

(ث)

(ج)

(ح)

(خ)

(د)

(ذ)

(ر)

(ز)

(س)

(ش)

(ص)

(ط)

(ع)

(غ)

(ف)

(ق)

(ك)

(ل)

(م)

(ن)

(هـ)

(و)

(ي)

المؤلف:

كاتب وباحث من العراق

- ولد في البصرة عام ١٩٣٩.
- صدرت له مجموعة كتب منها:

١- **حين تقاوم الكلمة**: (دراسات نقدية)، ١٩٧١.

٢- **ويكون التجاوز**: (دراسات نقدية معاصرة في الشعر العراقي الحديث)، ١٩٧٤.

٣- **الفن والقضية**: (دراسة نقدية تشكيلية)، ١٩٨٧.

٤- **أسئلة الرواية**: (جدل الرؤية والتسجيل في الرواية العربية المعاصرة)، ١٩٨٩.

٥- **مقامات الحريري**: (دراسة نقدية وكتابة ثانية للمقامات)، ١٩٩٠.

٦- **خطاب الابداع**: (دراسة نقدية حضارية: الجوهر المتحرك، الجمالي)، ١٩٩٣.

٧- **خطاب العاشق**: (ميثولوجيا ورؤى)، ١٩٩٦.

٨- من **الواقعية إلي الفنتازيا**: (دراسة نقدية تشكيلية)، ١٩٩٧.

٩-**القاتل والضحية**: (ميثولوجيا وشعر)، ١٩٩٨.

١٠-**احتلال العقل**: (التطبيع، الحصار، صراع الغد)، ١٩٩٨.

١١- **آلة الكلام - النقدية**، ١٩٩٩.

١٢- **حالات عشتار**: (دراسة نقدية تشكيلية)، ١٩٩٩.

١٣- **تخصيب النص**: (الأسطورة، الرمز، السيرة الشعبية)، ٢٠٠٠ .

المندائيون الصابئة

من هم المندائيون الصابئة الذين ورد ذكرهم في القرآن الكريم، باعتبار دينهم ديناً قائماً بذاته كالأديان الكتابية المعروفة؟
وما جذر لفظة «الصابئة»؟ ومتى وأين ظهرت معتقداتهم؟ وما علاقتهم بالأديان الأخرى؟ وبماذا يختلفون عن الصابئة الحرّانيين؟ وما هي طقوسهم وشعائرهم وعاداتهم وتقاليدهم الاجتماعية؟ وكيف حافظوا عليها واستمروا في ممارستها؟ ولما اختلف الباحثون في شأنهم؟
هذه التساؤلات وغيرها يجيب عليها هذا الكتاب في بحث اعتمد على نصوصهم المقدّسة، وغيرها من النصوص الدينية، ومعايشة المؤلف لجماعات منهم، وبخاصة شيوخهم والعارفين من بينهم، إضافة إلى المراجع المنشورة عنهم.